النص الكامل
الطبعة القانونية الأولى باللغة العربية

أغاثا كريستي

خِداع المَرَايا

الأجيال للترجمة والنشر
دار الراتب الجامعية
Dar El - Rateb

Agatha
Christie



They Do it
with Mirrors



خِداع المَرَايا

الآنسة ماربل تذهب للعيش في قصر يفي واسع أُقيم فيه مشروع إصلاحي ضم نحو مئتين من الأحداث المنحرفين ذين يسعى أصحاب المشروع إلى تأهيلهم.

لقد جاءت الآنسة ماربل إلى هذا كان الغريب استجابةً لطلب من واحدة ن صديقات دراستها القديمات، بعدما يطر على هذه الصديقة شعور غريب الخطر على أختها المقيمة في هذا القصر.

والآن تقع الجريمة. هل هذا هو الخطر ذي كانت تخشاه السيدة فان ريدوك؟ ما الذي ستفعله الآنسة ماربل؟

رواية جديدة من روايات الكاتبة العملاقة لتي تُعتبر أعظم مؤلفة في التاريخ من حيث انتشار كتبها وعدد ما بيع منها ن نسخ، وهي –بلا جدال– أشهر مَن كتب قصص الجريمة في القرن العشرين وفي سائر العصور. وقد تُرجمت رواياتها طُبع منها ألفَيْ مليون نسخة!

الأجيَال للترجمة والنشر
AJYAL Publishers
دار الراتب الجامعية
Dar El - Rateb

الفصل الأول

تراجعت السيدة فان ريدوك قليلاً عن المرآة، وتنهدت، ثم تمتمت قائلة: حسناً، هذا لا بأس به. هل ترينه مناسباً يا جين؟

نظرت الآنسة ماربل إلى الثوب المبتكر الوارد من دار أزياء لانفانيللي وقالت باستحسان: يبدو لي ثوباً جميلاً جداً!

كررت السيدة فان ريدوك: "الثوب جيد"، ثم تنهدت وقالت لخادمتها: انزعيه عني يا ستيفاني.

وقفت السيدة فان ريدوك أمام المرآة تتأمل وجهها الذي تخفيه طبقة من المساحيق والأصباغ ويشده التدليك المستمر، والذي كاد يبدو فتياً عندما ينظر إليه المرء من مسافة بعيدة قليلاً. أما شعرها فبدا أقرب إلى الزُّرْقة منه إلى الشَّيْب، وكان مصففاً بكل عناية. كان من المستحيل عملياً –عند النظر إلى السيدة فان ريدوك– أن يتخيل المرء حقيقة شكلِها في الأحوال الطبيعية، فقد فعلت بنفسها كل ما يستطيع المال أن يفعله، معزِّزةً ذلك بالحِمْية والتدليك والتمارين الدائمة.

نظرت روث فان ريدوك إلى صديقتها مازحة وقالت: هل تظنين يا جين أن كثيراً من الناس يمكن أن يحزروا أننا -أنت وأنا- من نفس العمر عملياً؟

أجابت الآنسة ماربل بإخلاص وتأكيد: ولا للحظة واحدة، أنا واثقة من ذلك... أخشى أنني أبدو بعمري الحقيقي باليوم والساعة!

كانت الآنسة ماربل بيضاء الشعر ذات وجه لطيف متغضن تتناوب فيه الحمرة والبياض، وعينين زرقاوين بريئتين غامقتين. بدت عجوزاً حلوة جداً، ولكن أحداً لم يكن ليطلق على السيدة فان ريدوك صفة عجوز حلوة جداً.

قالت السيدة فان ريدوك: "إنك تبدين بعمرك الحقيقي فعلاً يا جين". ثم ابتسمت وقالت: وهكذا أنا أيضاً، وإن كان بطريقة مختلفة، إذ يقول الناس عني: "عجيب! كيف تحافظ تلك الشمطاء على شكلها؟"، ولكنهم يعرفون حق المعرفة أنني عجوز شمطاء! ولَكَمْ -والله- أشعر أنني كذلك!

ثم رمت بجسمها على الكرسي المكسو بالساتان، وقالت تخاطب خادمتها: هذا حسن يا ستيفاني، يمكنك الانصراف.

طوت ستيفاني الثوب وخرجت.

قالت روث فان ريدوك: ستيفاني الطيبة العجوز. ما زالت معي منذ أكثر من ثلاثين سنة، وهي المرأة الوحيدة التي تعرف

-حقاً- شكلي الحقيقي! جين، أريد أن أتكلم معك.

انحنت الآنسة ماربل قليلاً للأمام، واكتسى وجهها بتعبير الاستعداد للسماع. بدت -على نحو ما- كأنها شخص وُضع في غير مكانه في غرفة النوم المزخرفة لهذا الجناح الفندقي الغالي، فقد كانت ترتدي ملابس سوداء عتيقة الطراز، وتحمل معها حقيبة تسوُّق ضخمة، وبدت كسيدة تقليدية كلياً.

قالت روث: إنني قلقة يا جين بشأن كاري لويز.

الآنسة ماربل: كاري لويز؟

كررت الاسم وهي تفكر؛ فقد أخذها الاسم بعيداً في الماضي، إلى مدرسة البنات الداخلية في فلورنسا. تذكرت نفسها... الفتاة الإنكليزية البيضاء المحمرّة، وتذكّرت الأختين مارتين، الأمريكيتين اللتين كانتا تثيران اهتمام الفتاة الإنكليزية بسبب طريقة كلامهما الغريبة الطريفة وأسلوبهما الصريح المباشر وحيويتهما. أولاهما، روث، الطويلة المتلهفة التي تضج بالحماسة والحيوية... والثانية، كاري لويز، الرقيقة التوّاقة صعبة الإرضاء.

سألت روث صديقتها القديمة: متى رأيتها آخر مرة يا جين؟

الآنسة ماربل: أوه، لم أرها منذ سنين طويلة طويلة، منذ خمسة وعشرين عاماً على الأقل. ولكننا ما نزال نتبادل بطاقات المعايدة في الأعياد بالطبع.

إن الصداقة لَشيءٌ غريب! صداقتها هي (حين ماربل أيامَ شبابها) والأمريكيتين. لقد افترقت بهن طرق الحياة آنذاك بأسرع ما يكون، ومع ذلك يدوم الحب القديم، وتبقى الرسائل من وقت لآخر، وتبادل التحيات في الأعياد. ومن الغريب أن روث -التي كان بيتها (أو بيوتها بالأحرى) في أمريكا- هي الأخت التي اعتادت رؤيتها مرات أكثر بكثير مما رأت كاري لويز. ولكنْ كلا، ربما لم يكن ذلك غريباً؛ إذ أن روث -كأغلب الأمريكيين من أبناء طبقتها- كانت عالمية التوجه، تأتي في كل عام أو عامين إلى أوروبا ساعية من لندن إلى باريس إلى شاطئ الريفييرا قبل أن تعود ثانية إلى وطنها، وكانت حريصة دوماً على انتزاع بضع دقائق تقضيها مع أصدقائها القدامى.

وقد حصلت لقاءات كثيرة كهذه في مطاعم مثل كلاريدج أو السافوي أو بيركلي أو دورتشستر، حيث يتم تناول وجبة نادرة غريبة، واستعادة الذكريات العاطفية، ثم كلمة وداع مؤثرة عجلى. ولكن روث لم تجد وقتاً أبداً لزيارة قرية سينت ميري ميد. والواقع أن الآنسة ماربل -بدورها- لم تتوقع قط مثل هذه الزيارة. فلكل امرئ في حياته إيقاع، وكان إيقاع حياة روث سريعاً، بينما الآنسة ماربل قانعة لحياتها بالإيقاع البطيء المتمهل.

وهكذا فإن الأمريكية روث هي التي رأتها الآنسة ماربل كثيراً، بينما لم ترَ كاري لويز (التي تعيش في إنكلترا) منذ أكثر من خمسة وعشرين عاماً. وذلك -على غرابته- طبيعي تماماً، فعندما يعيش المرء في نفس البلد لا يشعر بحاجة لترتيب لقاءات

مع أصدقائه القدامى؛ إذ يفترض أنه سيراهم دون تخطيط عاجلاً أو آجلاً، ولا يفتقد الأصدقاء مثل هذه اللقاءات العفوية إلاّ إن كانوا يتحركون في ميادين ومسارات مختلفة. ولم يحدث أن التقت طرق جين ماربل بطرق كاري لويز... هكذا، ببساطة، جرت الأمور.

الآنسة ماربل: لماذا أنت قلقة على كاري لويز يا روث؟

روث: إن ذلك -بطريقةٍ ما- هو أشد ما يقلقني؛ فأنا لا أعرف سبب قلقي!

- أهي مريضة؟

- إنها رقيقة جداً، كما كانت دوماً. ولا يسعني أن أقول بأن صحتها أسوأ من المعتاد، باعتبار أنها تعيش كما نعيش كلنا تماماً.

- أهي تعيسة؟

- أوه، كلا.

كلا، لم يكن ممكناً أن تكون التعاسة هي السبب، هذا ما فكرت فيه الآنسة ماربل، فمن الصعب تصور كاري لويز تعيسة، ومع ذلك فقد مرت عليها فترات في حياتها لابد أنها كانت فيها تعيسة. إلاّ أن صورتها كامرأة تعيسة لم تكن لترى بوضوح. مرتبكة؟ نعم.. متشككة؟ نعم.. أما الحزن الشديد... فكلا.

جاءت كلمات روث فان ريدوك في محلها تماماً، إذ قالت: لقد عاشت كاري لويز دوماً خارج هذا العالم تماماً... إنها لا تعرف شيئاً عنه، وربما كان هذا ما يقلقني.

بدأت الآنسة ماربل حديثها بالقول: "إن ظروفها..."، ثم توقفت وهزت رأسها نفياً وقالت: كلا.

روث: كلا، إن الأمر يتعلق بها هي. لقد كانت كاري لويز دوماً -من بيننا نحن- هي من يملك مُثُلاً عليا. وبالطبع فقد كان من السائد عندما كنا شباباً أن يحمل المرء مُثُلاً عليا، وكلنا حملنا مثل هذه القيم، وكان ذلك أمراً جيداً ومناسباً بالنسبة لفتيات شابات. أنت أردت يا جين أن تذهبي لتمريض مرضى الجذام، وأردت أنا أن أصبح معلمة... ويتجاوز المرء -عادة- كل هذه الترهات. أحسبني أستطيع القول إن الزواج يطرد عن المرء كلَّ هذه الأمور. على أي حال، أنا لم أخسر كثيراً بسبب الزواج!

وفكرت الآنسة ماربل بأن روث كانت تعبّر بقولها الأخير عن الأمر بطريقة مخففة؛ فهي قد تزوجت ثلاث مرات، اقترنت في كل واحدة منها برجل غني جداً، وقد زادت سلسلة الطلاقات المتتالية من حسابها المصرفي دون أي تعكير لمزاجها.

قالت روث فان ريدوك: بالطبع كنت دوماً صلبة ولم توقعني الحادثات. لم أنتظر كثيراً من الحياة، ولم أنتظر -بالتأكيد- كثيراً من الرجال، ولقد استفدت تماماً من كل هذه التجارب،

ولا أحمل لأحد ضغينة. فأنا وتومي ما نزال صديقين ممتازين، ويوليوس غالباً ما يستشيرني في أحوال السوق.

ثم تجهم وجهها وأضافت: وأظن أن ذلك هو ما يقلقني بشأن كاري لويز؛ فقد كان لديها ميل دائم -كما تعلمين- للزواج برجال مهووسين.

- مهووسين؟

- أقصد أشخاصاً متمسكين بمثل عليا. كانت كاري لويز دوماً سهلة الوقوع بسرعة في المثل العليا. كانت تقف هناك كأجمل ما تكون الفتيات... لم تتجاوز السابعة عشرة من عمرها، وتصغي وعيناها منفتحتان باتساع صحن صغير للعجوز غولبراندسن وهو يسهب في الكلام عن خططه ومشاريعه للجنس البشري. كان فوق الخمسين وتزوجته، وهو الأرمل ذو العائلة والأبناء البالغين... كل ذلك بسبب أفكاره الإنسانية. اعتادت أن تجلس لتصغي إليه مسحورةً، تماماً مثل ديزدمونة وعطيل، إلا أنه لم يوجد -لحسن الحظ- أياغو ليفسد الأمور بينهما، ولم يكن غولبراندسن على أية حال ملوَّناً، فقد كان سويدياً أو نرويجياً.

هزت الآنسة ماربل رأسها بتأمل. لقد كان لاسم غولبراندسن أهمية دولية. ذلك الرجل الذي مكّنته فطنته الحادة في مجال الأعمال ونزاهته المطلقة من بناء ثروة هائلة أصبح معها حب الإنسانية والسعي لخيرها هو الحل الوحيد لاستنفادها. وما زال لاسمه أهمية كبرى؛ إذ تكفي الإشارة إلى «صندوق غولبراندسن»

و«منح غوليراندسن الدراسية لأغراض البحوث» و«الملاجئ الخيرية لغوليراندسن»، والأكثر شهرة من ذلك كلمة «الكلية» التعليمية الضخمة المخصصة لأبناء العمال.

روث: إنها لم تتزوجه لماله كما تعلمين. كان من شأني أنا أن أتزوجه لهذا الاعتبار لو قُدِّر لي أبداً أن أتزوجه. ولكن ليست كاري لويز من يفعل ذلك. ولست أدري ما الذي يحدث لو أنه لم يمت وهي في الثانية والثلاثين. فالثانية والثلاثون عمر جيد بالنسبة لأرملة، إذ تكون ذات خبرة وتجربة، ولكنها ما تزال قابلة للتكيف.

هزّت العانس التي تصغي إليها رأسَها بلطف بينما استعاد ذهنها صور أرامل عرفتهن في قرية سينت ميري ميد.

روث: لقد كنت حقاً في أسعد حالاتي من أجل كاري لويز عندما تزوجت جوني ريستاريك. لقد كان هو -هذه المرة- مَنْ تزوجّها لمالها. وإن لم يكن الأمر تماماً كذلك فإنه -على الأقل- لم يكن ليتزوجها لو لم يكن لديها أي مال. لقد كان جوني رجلاً دنيئاً أنانياً كسولاً محباً للملذات، ولكن ذلك آمَن كثيراً من المهووسين بمثل عليا. كان كل ما أراده جوني هو أن يعيش برغد. أراد لكاري لويز أن تذهب إلى أفضل صالونات الشعر، وأن تمتلك اليخوت والسيارات وتتمتع معه. وهذا النوع من الرجال يكون مأموناً جداً. أعطيه الراحة والترف والرفاهية تجديه يتمسحُ بك كقطة ممتنة ويصبح رائعاً جداً معك. إنني لم

أحمل أبداً على محمل الجد تُرّهاته حول تصميم المشاهد والعمل المسرحي. ولكن كاري لويز كانت تهتز طرباً لذلك، فقد رأت في عمله ذاك فناً من طراز رفيع، ودفعته دفعاً إلى العودة إلى تلك الأجواء، وبعدها سيطرت عليه تلك المرأة اليوغسلافية الفظيعة واختطفته معها. لم يكن حقاً يريد الذهاب، ولو أن كاري لويز انتظرت وكانت أكثر تعقلاً لكان من شأنه أن يعود إليها.

الآنسة ماربل: هل اهتمت كثيراً بالأمر؟

– ذلك هو الأمر المضحك، فلا أظن حقاً أنها اهتمت. كانت سعيدة تماماً بالأمر كله، ولكن ذلك من عادتها، فهي دوماً سعيدة. وقد حرصت على الطلاق منه بحيث يستطيع الزواج بتلك المخلوقة، بل عرضت إيواء الصبيين من زواجه الأول في بيتها، لأن ذلك أفضل لاستقرارهما. وهكذا كان مصير جوني المسكين... اضطر للزواج بتلك المرأة، فعاش ستة أشهر فظيعة معها، وبعدها قادت به سيارة على شفير جُرُف أثناء نوبة غضبٍ مجنون. لقد قالوا: إنه كان حادثاً، ولكنني أعتقد أنه الغضب والعُصاب لا غير!

توقفت السيدة فان ريدوك، ثم تناولت مرآة وحدقت بوجهها كمن يبحث عن شيء ما. تناولت ملقط حواجبها وانتزعت شعرة ثم تابعت حديثها: وما الذي فعلته كاري لويز بعد ذلك سوى زواجها بذلك المدعو لويس سيروكولد؟ وهو مهووس آخر... رجل آخر ذو مثل عليا! أوه، إنني لا أقول بأنه غير متعلق

بها، بل هو كذلك كما أعتقد، ولكنه مصاب –هو الآخر– بنفس الداء، في رغبته بتحسين حياة كل الناس نيابة عنهم. وما من أحد يستطيع –في الواقع– أن يحسن حياتك إلاّ أنت.

الآنسة ماربل: لا أدري.

روث: إلاّ أن لهذه الأمور بالطبع موضةً، تماماً كالموضة في الملابس، ففي الأفكار الإنسانية الخيرة موضة أيضاً. كانت الموضة هي التعليم في أيام غولبراندسن. ولكن هذه الموضة بطلت الآن، فقد تدخلت الدولة في الموضوع وصار الجميع ينظرون إلى التعليم كحق ثابت لهم، وهم لا يرون فيه إنجازاً كبيراً عندما يحصلون عليه! أما في هذه الأيام فإن «جنوح الأحداث» هو آخر صرعة؛ فالكل مهتم –لحدّ الجنون– بأولئك المجرمين الصغار أو المجرمين الواعدين. عليك أن تري عيني لويس سيروكولد تلتمعان خلف عدستي نظارته السميكتين وقد جن حماسةً! إنه واحد من أولئك الرجال ذوي الإرادة القوية جداً، ممن يحبون العيش على ثمرة موز وقطعة خبز محمصة، ويضعون كل طاقاتهم في خدمة «قضية». وتنغمس كاري لويز في ذلك كعادتها دائماً! ولكنني لا أحب ذلك يا جين. لقد عقد «مجلس الأوصياء» اجتماعات عديدة، وتم تحويل البيت كله لخدمة هذه الفكرة الجديدة. أصبح الآن مؤسسة تدريب لأولئك المجرمين الشباب، مليئة بالمحللين والأطباء النفسيين وما شابه ذلك. وهناك تعيش كاري لويز مع زوجها لويس يحيط بهما هؤلاء الصبية المنحرفون الذين قد لا يكونون طبيعيين تماماً. والمكان مليء

بالمدرّبين المهنيين والأساتذة والمتحمسين، ونصفهم مجنون تماماً. إنهم مهووسون جميعاً تسيطر عليهم فكرة واحدة، وصغيرتي كاري لويز وسط ذلك كله!

توقفت قليلاً ثم حدقت يائسة بالآنسة ماربل.

قالت الآنسة ماربل بصوت فيه أثر للحيرة والارتباك: ولكنك لم تخبريني –بعد– يا روث بالذي تخافينه فعلاً.

– لقد قلت لك: إنني لا أعرف! وهذا ما يقلقني. لقد كنت عندها هناك في زيارة خاطفة. وشعرت –طوال الوقت– بوجود خطأ ما... خطأ في الجو العام، في البيت، أنا واثقة بأنني لست مخطئة. أنا حساسة تجاه الأجواء العامة، وقد كنت دوماً كذلك. ألم أخبرك –من قبل– كيف حرضت يوليوس على بيع «الشركة المتحدة للحبوب» قبل حصول الكارثة؟ ألم أكن مُحِقة في حدسي عندها؟ نعم، يوجد شيء ما، ولكنني لا أعرف ماذا ولماذا... لا أعرف إن كان ذلك لدى أولئك المجرمين الشباب الفظيعين، أو أنه أقرب إلى العائلة. لا أستطيع تحديد ماهيته، فلدينا لويس الذي اكتفى بالحياة من أجل أفكاره دون ملاحظة ما يجري حوله، وكاري لويز –باركها الله– لا ترى أبداً ولا تسمع ولا تفكر في أي شيء إلاّ أن تعجب بذلك المنظر الجميل أو بذاك الصوت البديع أو بتلك الفكرة الرائعة. وهذا لطف وعذوبة ولكنه ليس موقفاً عملياً؛ إذ يوجد شيء اسمه الشر... وأنا أريد منك يا جين أن تذهبي مباشرة إلى هناك وتعرفي ما هي القضية بالضبط.

هتفت الآنسة ماربل: أنا؟ ولماذا أنا؟

روث: لأن لك أنفاً لا يخطئ في مثل هذه الأمور. كنت دوماً تتميزين بذلك؛ كنت دوماً مخلوقة عذبة بريئة المظهر يا جين، ولكنك –طوال الوقت وفي دخيلة نفسك– لم يكن لشيء أن يفاجئك أو يدهشك أبداً، كنت دوماً تتوقعين الأسوأ.

تمتمت الآنسة ماربل: إن الأسوأ غالباً ما يكون صحيحاً.

روث: كيف تأتّى لك أن تحملي مثل هذا الإيمان الضعيف بالطبيعة البشرية؟ لا أستطيع تصور ذلك، وأنت التي تعيشين في قرية جميلة وادعة حيث العالمُ القديم النقي.

– أنت لم تسكني قرية يا روث. إن ما يجري في قرية نقية وادعة ربما أدهشك.

– آه، ربما. ولكن قصدي هو أن تلك الأمور لا تدهشك أنت، فهل تذهبين إذن إلى «ستوني غيتس» وتجدين ما القضية؟

– ولكن سيكون فعل ذلك من أصعب الأمور يا عزيزتي.

– لا، لن يكون كذلك. إذا تمالكت نفسك بحيث لا يطير صوابك غضباً مني فسأخبرك بأنني هيأت الأرضية لذلك من قبل.

وتوقفت السيدة فان ريدوك... نظرت إلى الآنسة ماربل بشيء من القلق، ثم بدأت تشرح ببعض العصبية: أنا واثقة أنك ستعترفين بأن الأحوال ساءت في هذا البلد بعد الحرب الأخيرة،

ساءت بالنسبة للناس ذوي الدخل الثابت المحدود، أي لأناس مثلك يا جين.

– أوه، نعم في الواقع. ولولا لطف ابن اختي ريموند، بل لطفه الكبير حقاً، لما كنت أدري فعلاً أين سأكون!

– لا عليك من ابن أختك، لأن كاري لويز لا تعرف شيئاً عنه، وإن كانت تعلم فهي تعرفه كاتباً ولا تعرف أنه ابن أختك. ولقد قدمتُ لها القضية على النحو التالي. قلت لها: "المشكلة هي أن الأحوال صعبة جداً بالنسبة للعزيزة جين، وأنها –أي أنت– لا تكاد تجد أحياناً ما يكفي لطعامها، وهي –بالطبع– ذات كبرياء يمنعها من طلب المساعدة من أصدقائها القدامى". وقلت: "إن المرء لا يستطيع اقتراح تقديم نقود كمساعدة، ولكن فترة استراحة طويلة لطيفة في محيط جميل، مع صديقة قديمة ومع كثير من الطعام الغني المتنوع، وانعدام الهموم والقلق...".

وتوقفت روث فان ريدوك قليلاً، ثم أضافت بتحدٍ: هيا الآن... اغضبي مني إن أردت أن تغضبي.

فتحت الآنسة ماربل عينيها الزرقاوين الغامقتين بدهشة محببة وقالت: ولماذا عساني أغضب منك يا روث؟ لقد كانت هذه الحجة مدخلاً عبقرياً ومقبولاً تماماً، وأنا واثقة بأن كاري لويز قد استجابت.

روث: هي ستكتب لك رسالة، وربما وجدتِ الرسالة قد

وصلت حين تعودين. أخبريني بصدق يا جين: ألست تشعرين بأنني تصرفت بحريةٍ لا يمكن غفرانها في هذا الموضوع؟ ألن تمانعي...

ثم ترددت في المضي بحديثها فأكملت الآنسة ماربل سؤال صديقتها وعبّرت -بحذق- عما جال بخاطرها قائلة: ألن تمانعي في الذهاب إلى منزل «ستوني غيتس» تحت باب الصدقة والإحسان، وبأعذار زائفة قليلاً أو كثيراً؟ أبداً، لن أمانع إن كان ذلك ضرورياً. أنت تعتقدين بأن ذلك ضروري، وأنا أميل إلى الاتفاق معك في ذلك.

حدقت بها السيدة فان ريدوك وقالت: ولكن لماذا؟! ما الذي سمعتِهِ وجعلك تتفقين معي؟

- لم أسمع شيئاً. إنه مجرد اقتناعك أنت بذلك... وأنت لست امرأة كثيرة التوهم يا روث.

- صحيح، ولكنني لا أملك أي شيء محدد يصلح دليلاً لتأكيد حدسي.

قالت الآنسة ماربل وهي تتأمل: أتذكّر ذات صباح وأنا في المتجر، وكنت أقف خلف غريس لامبل مباشرة فشعرتُ بقلق متزايد بشأنها. كنت واثقة بوجود مشكلة ما... ومع ذلك كنت عاجزة تماماً عن تفسير ذلك. إن ذلك شعور من أكثر المشاعر إزعاجاً، ويكون -عادةً- محدداً أكيداً جداً جداً.

- وهل كان في الأمر مشكلة فعلاً؟

- أوه، نعم. كان والدها الأدميرال العجوز قد غدا -منذ فترة- غريب الأطوار تماماً، وفي اليوم التالي هاجمها بمطرقة الفحم وهو يصرخ بأنها «روح شريرة جاءت متنكرة على صورة ابنته»، وكاد أن يقتلها. وقد أبعدوه -بعد ذلك- إلى مصحة عقلية وشفيت هي بعد أشهر في المستشفى، ولكنها كانت قاب قوسين أو أدنى من الموت.

- وهل كان لديك ذلك الإحساس المسبَّق في ذلك اليوم في متجر البقالة؟

- أنا لا أسمي ذلك إحساساً؛ فقد كان مبنياً على حقيقة. إن هذه الأمور تكون -عادةً- مبنية على حقائق، مع أن المرء لا يدرك تلك الحقائق في حينها. لقد كانت ترتدي قبعة في ذلك اليوم بشكل مقلوب، وكان ذلك ذا مغزىً عميق فعلاً لأن غريس لامبل كانت أكثر النساء دقة وتأنقاً ولم تكن أبداً شاردة الذهن، وكانت محدودة جداً -في الواقع- الظروف التي قد يفوتها في ظلها أن تلاحظ طريقة وضعها للقبعة استعداداً للخروج. وفي ذلك اليوم تحديداً كان والدها قد رماها بقطعة رخام من تلك التي توضع فوق الأوراق كيلا تتطاير، فأصابت المرآة فهشمتها، فأخذت هي قبعتها على عجل وارتدتها وخرجت بسرعة من المنزل. كانت حريصة جداً على الإبقاء على المظاهر وأن لا يسمع الخدم بأي شيء من ذلك، وكانت تعزو تلك الأعمال

إلى «مزاج البحارة عند بابا العزيز». إنها لم تدرك بأن عقله كان مضطرباً تماماً، مع أنه كان ينبغي لها أن تدرك ذلك بوضوح؛ فقد كان دائماً يشكو لها من أعداء له أو من عمليات تجسس عليه، وهذه كلها من الأعراض المعتادة للاضطراب العقلي.

حدقت السيدة فان ريدوك بصديقتها باحترام وقالت: ربما لم تكن قريتك يا جين، تلك المسماة سينت ميري ميد، ذلك المعتزل الريفي الهادئ الوادع الذي كنت دوماً أتخيله.

– إن الطبيعة البشرية –يا عزيزتي– متماثلة كثيراً أينما كانت. الفرق الوحيد هو أن مراقبتها عن كثب في المدينة مسألة أكثر صعوبة.

– وهل ستذهبين إلى ستوني غيتس؟

الآنسة ماربل: سأذهب إلى ستوني غيتس. ربما كان في ذلك بعض الإجحاف بحق ابن أختي ريموند؛ أعني أن يقال بأنه لا يعيلني أو يساعدني. ولكن ريموند العزيز في المكسيك الآن، وسيبقى هناك ستة أشهر. ومن الآن حتى يعود ينبغي أن تكون تلك القضية قد انتهت.

– ما هي القضية التي ستنتهي؟

– لا يمكن أن تكون دعوة كاري لويز لإقامة غير محددة. ثلاثة أسابيع، أو ربما شهر. سيكون ذلك كافياً.

– كافياً لك لاكتشاف الأمر الخطأ؟

– نعم، كافياً لي لمعرفة المشكلة.

– يا جين الغالية! إن لديك ثقة كبيرة بنفسك... أليس كذلك؟

بدت الآنسة ماربل وكأنّ في صوتها بعض التأنيب. قالت: أنت وثقت بي يا روث، أو هكذا تقولين. أستطيع فقط أن أؤكد لك بأنني سأسعى لأكون جديرة بثقتك.

* * *

الفصل الثاني

قبل أن تعمد الآنسة ماربل إلى استقلال قطار عودتها إلى قرية سينت ميري ميد –في رحلة يوم الأربعاء المخفضة– جمعت بعض المعلومات والحقائق بأسلوب دقيق وعملي.

الآنسة ماربل: لقد تراسلنا (أنا و كاري لويز) عند الضرورة، ولكن مراسلتنا اقتصرت –إلى حد بعيد– على تبادل البطاقات في المناسبات. إن ما أرغب بمعرفته –يا عزيزتي روث– هو الحقائق المجردة فقط، بالإضافة إلى إعطائي فكرة حول مَن سأواجههم من ساكني ستوني غيتس.

روث: حسناً، أنت تعلمين بزواج كاري لويز بغولبراندسن. لم ينتج عن زواجهما أطفال، وقد تأثرت كاري لويز كثيراً لذلك. كان غولبراندسن أرمل عندما تزوجته وله ثلاثة أبناء بالغين، وقد تبنّى الاثنان أخيراً طفلةً أطلقا عليها اسم بيبا، وكانت طفلة حلوة صغيرة لم تتجاوز العامين عندما تبنّياها.

– ومن أين هي؟ وما هي خلفيتها؟

- أوه، حقاً يا جين إنني لا أذكر، هذا إن كنت أعرف أصلاً. ربما كانت من مؤسسة للتبني، أو أنها كانت طفلة غير مرغوب فيها سمع بها غولبراندسن. لماذا تسألين؟ أتعتقدين أن ذلك مهم؟

- حسناً، يرغب المرء -دوماً- في معرفة الخلفية إذا صح التعبير. ولكن استمري أرجوك.

- ما حدث بعد ذلك هو أن كاري لويز أدركت أنها ستضع طفلاً في نهاية المطاف، وقد فهمت من الأطباء بأن ذلك شائع تماماً.

هزت الآنسة ماربل رأسها وقالت: نعم، أعتقد ذلك.

روث: لقد حدث ذلك على كل حال، وهو حدث بطريقة مضحكة، إذ أنه دفع كاري لويز إلى حالة من الارتباك... إن كنت تفهمين ما أعنيه. كانت في الأيام الأولى طبعاً شديدة الفرح، ولكنها كانت قد بذلت حباً مخلصاً للطفلة بيبا بحيث شعرت بأنها مدينة لها بالاعتذار لخذلانها والاستعاضة عنها إذا صح التعبير. وبعد ذلك وضعت طفلتها ميلدريد التي كانت -بالفعل- طفلة لا حظّ لها من الجاذبية والجمال؛ فقد جاءت شبيهة بعائلة غولبراندسن الذين كانوا يتصفون بالمصداقية والجدارة، ولكنهم كانوا بالتأكيد دميمي الشكل. كانت كاري لويز حريصة دوماً على عدم التفريق في معاملتها بين الطفلة المتبناة وطفلتها هي إلى الحد الذي أعتقد أنها مالت معه إلى المبالغة في تدليل بيبا وتجاهل

ميلدريد. واعتقدت أحياناً بأن ميلدريد كانت تغضب من ذلك. ولكنني -على أية حال- لم أكن أراهم كثيراً. وقد كبرت بيبا لتصبح فتاة جميلة جداً، فيما أصبحت ميلدريد فتاة عادية لا جاذبية لها.

توفي إيريك غولبراندسن حين كانت ميلدريد في الخامسة عشرة وبيبا في الثامنة عشرة. وعندما بلغت بيبا العشرين تزوجت المركيز الإيطالي سان سيفيريانو... آه، لقد كان مركيزاً حقيقياً وليس مغامراً أو شيئاً كذلك. كان ينتظر أن تصبح بيبا وريثة، وذلك طبيعي، وإلاّ ما كان ليتزوجها، أنت تعرفين طبيعة الإيطاليين! (ولقد ترك غولبراندسن مبلغاً متساوياً لكلٍّ من ابنته الحقيقية وابنته بالتبني). أما ميلدريد فقد تزوجت معلماً اسمه ستريت، وهو رجل لطيف ولكنه كان يصاب بزكام مزمن، وكان يكبرها بعشر سنوات أو خمس عشرة سنة، وأعتقد أن زواجهما كان سعيداً تماماً. وقد مات ستريت في العام الماضي، وعادت ميلدريد إلى ستوني غيتس لتعيش مع والدتها.

ولكنني تسرعت كثيراً في روايتي للأحداث وأغفلتُ زواجاً أو زواجين آخرين، ولذلك سأعود لهما. فقد تزوجت بيبا زوجها الإيطالي، وكانت كاري لويز سعيدة تماماً بذلك الزواج، فقد كان غويدو سان سيفيريانو ذا أخلاق حسنة ووسامة أخاذة، وكان رياضياً جيداً. ولكن بعد عام من الزواج توفيت بيبا خلال ولادتها طفلتها الأولى، وكانت تلك مأساة فظيعة تركت سان سيفيريانو

محطماً. وقد سافرت كاري لويز كثيراً بين إيطاليا وإنكلترا آنذاك، وقابلت في روما جوني ريستاريك وتزوجته. أما الماركيز الإيطالي فقد تزوج ثانية، وكان مستعداً تماماً للسماح لابنته الصغيرة بأن تُربّى في إنكلترا على يد جدتها بالغة الثراء. وهكذا استقرّ الجميع في ستوني غيتس، جوني ريستاريك وكاري لويز، وابنا جوني واسمُهما أليكسيس وستيفن (فقد كانت زوجة جوني السابقة روسية) والطفلة الصغيرة جينا. وبعد ذلك تماماً تزوجت ميلدريد السيد ستريت كما أسلفنا، ثم حدثت تلك المشكلة بين جوني والمرأة اليوغسلافية، وحدث الطلاق. وما زال ابناه يأتيان إلى ستوني غيتس لقضاء عطلهما، وكانا متعلقين كثيراً بكاري لويز. بعد ذلك، وفي عام ١٩٣٨ كما أظن، تزوجت كاري لويز زوجها الحالي لويس.

صمتت السيدة فان ريدوك لالتقاط أنفاسها، ثم سألت: ألم تلتقي بلويس؟

هزت الآنسة ماربل رأسها بالنفي وقالت: لا، أظن أن آخر مرة رأيت فيها كاري لويز كانت عام ١٩٢٨. وقد اصطحبتني وقتها بكل لطفها إلى الأوبرا في كوفنت غاردن.

روث: آه! نعم. حسناً، لقد كان لويس شخصاً مناسباً جداً لها كزوج. كان مديراً لشركة مشهورة جداً لمحاسبين قانونيين، وأعتقدُ أنه التقاها لأول مرة عند مراجعة بعض القضايا الخاصة بمالية «صندوق غولبراندسن» و«الكليّة». كان رجلاً غنياً ومماثلاً

لها تقريباً في السن ويعيش حياة مستقيمة جداً، ولكنه كان مهووساً مع ذلك؛ إذ كان مغرقاً بالاهتمام بإصلاح المجرمين الأحداث.

ثم تنهدت روث فان ريدوك وقالت: كما قلت لك قبل قليل يا جين، إن في هذه الأعمال الخيرية موضات. في زمان غولبراندسن كانت الموضة التعليم، وقبل ذلك كانت الموضة السائدة هي مطابخ الحساء الجماعية للفقراء.

هزت الآنسة ماربل رأسها موافقة وقالت: نعم، حقاً؛ حساء رأس العجل الذي كان يُعطى للمرضى. كانت أمي تقوم بذلك.

– هذا صحيح.. تغذية الجسم تراجعت لتسود تغذية العقل، وأصيب الجميع بالهوس تجاه قضية تعليم الطبقات الدنيا. وها قد مضى ذلك أيضاً. وقريباً ستصبح الموضة –على ما أتوقع– ألاّ تعلمي أطفالك، بل أن تحافظي بعناية على جهلهم وأميّتهم حتى سن الثامنة عشرة. لقد كان «صندوق غولبراندسن لتمويل التعليم» يمر –على أية حال– ببعض المصاعب؛ لأن الدولة كانت تتولى هي تحقيق أهدافه وبرامجه بنفسها. وهنا دخل لويس –بحماسته المتقدة– تجاه التدريب البنّاء للأحداث المنحرفين. كان هذا الموضوع قد جذب انتباهه لأول مرة في سياق مهنته، إذ كان يدقق بحساباتٍ ارتكب فيها شبان أذكياء عمليات احتيال. وقد أصبح مقتنعاً أكثر فأكثر بأن الأحداث المنحرفين ليسوا أناساً غير أسوياء، وأنهم يتمتعون بعقول وقدرات ممتازة، ولا ينقصهم إلاّ التوجيه الصحيح.

قالت الآنسة ماربل: في ذلك شيء من الصحة، ولكنه ليس صحيحاً كلياً. وإنني أتذكر...

ثم توقفت ونظرت إلى ساعتها وقالت: آه يا عزيزتي، عليّ ألاّ أضيع قطار السادسة والنصف.

قالت روث بسرعة: وهل تذهبين إلى ستوني غيتس؟

قالت الآنسة ماربل وهي تأخذ حقيبة تسوقها ومظلتها: إن طلبت مني كاري لويز ذلك.

روث: ستطلب منك. هل تذهبين؟ عديني يا جين.

ووعدتها جين ماربل.

* * *

الفصل الثالث

نزلت الآنسة ماربل من القطار في محطة ماركت كيندل. مسافرٌ لطيف خلفها أنزل حقيبتها وأعطاها لها. أمسكت بالحقيبة الشبكية وحقيبة يد من الجلد الذي بهت لونه وبعض اللفافات المختلفة الأخرى وتفوهت بتمتمات تقدير وشكر: إنه لطف كبير منك... الأمر صعب جداً هذه الأيام؛ فليس يوجد الكثير من الحمالين. إنني أصاب بارتباك كبير عندما أسافر.

ولكن هذه التمتمات ضاعت في الضجيج الهادر لصوت مذيع المحطة وهو يعلن بصوت غير مفهوم –رغم علوِّه– بأن قطار الثالثة والثلث يقف على الرصيف رقم واحد، وأنه جاهز للانطلاق إلى محطات عديدة غير مفهومة.

كانت ماركت كيندل محطة ضخمة فارغة تصفر فيها الرياح، ولا يكاد المرء يرى فيها المسافرين أو مستخدمي السكة الحديدية. أما تميزها فيكمن في وجود ستة أرصفة فيها، ورصيف صغير آخر يقف فيه قطار صغير ذو عربة واحدة ينفخ دخانه بثقة.

كانت الآنسة ماربل ترتدي ثياباً رثة تختلف عما اعتادت

أن تلبسه، وكان من حسن حظها أنها لم تتخلص من ثوبها المنقط القديم. كانت تنظر حولها بحيرة عندما تقدم منها شاب وقال: الآنسة ماربل؟

كان في صوته ميزة مسرحية غير متوقعة، كما لو أن تلفّظه باسمها كان الكلمات الأولى في دور يمثله في مسرح الهواة. أضاف الشاب قائلاً: جئت لاستقبالك... من ستوني غيتس.

نظرت إليه الآنسة ماربل باهتمام، كانت -لو أتيح له أن يلاحظ ذلك- عجوزاً رائعة تبدو عاجزة، بعينيها الزرقاوين الحادتين. لم تكن شخصية الشاب تتناسب تماماً مع صوته. كانت شخصيته أقل أهمية، بل يكاد الإنسان أن يقول: إنها أقل وزناً. وكان جفناه معتادين على الرفرفة بعصبية. قالت له: أوه، شكراً. ليس لدي إلاّ هذه الحقيبة.

لاحظت بأن الشاب لم يأخذ حقيبتها بنفسه، بل نَقَفَ قطعة من النقد لحمال كان يدحرج بعض العلب على عربة أمتعة وقال له: "احملها لنا رجاءً"، ثم أضاف بثقة وأهمية: إلى ستوني غيتس.

هتف الحمال بابتهاج: حالاً... لن يستغرق ذلك شيئاً.

قال الشاب: "إن القطارات تصبح أسوأ فأسوأ في كل يوم!"، ثم أضاف وهو يقود الآنسة ماربل باتجاه المخرج: أنا إدغار لاوسن، وقد طلبت مني السيدة سيروكولد أن أستقبلك. إنني أعمل مساعداً للسيد سيروكولد في عمله.

مرة أخرى كان في لهجته ذلك الإيحاء الخفي بأن رجلاً مشغولاً ذا أهمية قد أقدم بكل أريحية على تأجيل قضايا مهمة إكراماً لزوجةِ مستخدِمه من باب الشهامة... ومرة أخرى لم يكن الانطباع مقنعاً كلياً، إذ كانت له نكهة مسرحية.

وبدأت الآنسة ماربل تتساءل وتعجب من إدغار لاوسن.

خرجا من المحطة، وأرشد إدغار السيدة العجوز إلى حيث كانت تقف سيارة فورد قديمة بعض الشيء. قال لها: هل تركبين بجانبي في المقدمة، أم تفضلين المقعد الخلفي؟

وبينما كان يقول ذلك حدث تحولٌ في مجرى الأحداث. اقتربت هادرةً من ساحة المحطة سيارة رولز بينتلي جديدة لامعة ذات مقعدين، وأتت لتقف أمام سيارة الفورد حيث قفزت منها فتاة جميلة جذابة وجاءت إليهما. وبدا ارتداؤها بنطالاً قطنياً متسخاً وقميصاً بسيطاً مفتوحاً على الرقبة وكأنه يعزز -بشكل ما- من حقيقة أنها لم تكن جميلة فقط بل مترفة أيضاً. قالت الفتاة: ها أنت هنا يا إدغار.. ظننت أنني لن أستطيع اللحاق بكما في الوقت المحدد. أرى أنك استقبلت الآنسة ماربل... لقد جئتُ أنا لاستقبالها.

ثم ابتسمت للآنسة ماربل بتألُّق، مبدية صفاً من الأسنان الجميلة التي تزين وجهها الذي لوحته الشمس. قالت: أنا جينا، حفيدة كاري لويز، كيف كانت رحلتك؟ كريهة ببساطة؟ يا لهذه الحقيبة الشبكية الجميلة! إنني أحب الحقائب الشبكية. سآخذ

الحقيبة والمعاطف لتركبي السيارة بسهولة.

تورد وجه إدغار، وقال محتجاً: اسمعي يا جينا، لقد جئت لاستقبال الآنسة ماربل، وقد تم ترتيب ذلك كله...

لمعت أسنانها ثانية بتلك الابتسامة الواسعة الكسلى وقالت: آه، أعرف ذلك يا إدغار، ولكنني فكرت فجأة أنه سيكون جميلاً أن آتي أنا أيضاً. سآخذها معي، وبوسعك أن تحضر حقائبها.

ثم صفقت باب السيارة على الآنسة ماربل، وركضت حولها إلى الجانب الآخر حيث قفزت إلى مقعد القيادة، وهدرت السيارة بسرعة خارج المحطة.

نظرت الآنسة ماربل إلى الخلف ولاحظت وجه إدغار لاوسن ثم قالت: لا أظن يا عزيزتي بأن السيد لاوسن مسرور جداً الآن.

ضحكت جينا وقالت: إن إدغار أبله فظيع... متجهم دوماً في كل شيء، حتى لتكادين تظنين حقاً أنه يهم!

سألت الآنسة ماربل: وهو لا يهم؟

جينا: إدغار؟!

كان في ضحكة جينا الازدرائية نبرة غير شعورية من القسوة. أضافت قائلة: أوه، إنه أبله على أية حال.

الآنسة ماربل: أبله؟

جينا: كلهم بُلْهٌ في ستوني غيتس. أنا لا أقصد لويس وجدتي والصبيين، وليس الآنسة بيليفر بالطبع. بل الآخرين. أحياناً أشعر أنني أنا أيضاً أغدو بلهاء قليلاً من سُكناي هناك. حتى خالتي ميلدريد تخرج لتتمشى وتدمدم مع نفسها طوال الوقت!

خرجا من الطريق المفضي إلى المحطة، وزادت سرعة السيارة على الطريق المنبسط الفارغ. ألقت جينا نظرة جانبية عجلى على رفيقتها وقالت: لقد كنت في المدرسة مع جدتي، أليس كذلك؟ يبدو ذلك غريباً جداً.

عرفت الآنسة ماربل تماماً ما الذي عنته جينا؛ فبالنسبة للشباب يبدو من الغريب جداً أن المعمرين كانوا ذات يوم شباباً، وأن النساء العجائز كن في شبابهن يجدلن شعورهن ويكافحن في دراسة الكسور العشرية والأدب الإنكليزي.

قالت جينا بصوت فيه شيء من الرهبة، دون أن تقصد الإساءة بالتأكيد: لابد أن ذلك كان قبل وقت طويل جداً.

الآنسة ماربل: نعم، في الواقع. وأظنك تشعرين بذلك معي أكثر مما تشعرين به مع جدتك، أليس كذلك؟

هزت جينا رأسها موافقة وقالت: إنه لذكاء منك أن تقولي ذلك. إن جدتي -كما تعلمين- تعطي المرء انطباعاً غريباً فلا تجعله يحس بعمرها.

الآنسة ماربل: لقد مضى وقت طويل منذ أن رأيتها آخر

مرة، ولا أدري إن كنت سأجدها متغيرة كثيراً.

جينا: شعرها أشيب بالطبع، وهي تتكئ على عصا حين تمشي بسبب التهاب مفاصلها، وقد ساءت حالتها كثيراً مؤخراً. أعتقد أنه...

توقفت فجأة، ثم سألت: هل زرت ستوني غيتس من قبل؟

الآنسة ماربل: لا، أبداً. ولكني سمعت كثيراً عنه بالطبع.

قالت جينا بابتهاج: إنه في الواقع فظيع جداً... بناء ضخم بشع مبني على الطراز القوطي كأنه من بيوت الأشباح! ولكنه ممتع أيضاً في بعض جوانبه، إلاّ أن كل شيء فيه جادّ إلى حد الجنون، وتتعثر رجلاك بالأطباء النفسيين أينما ذهبت، وهم مستمتعون بعملهم بشكل مجنون، كأنهم قادة كشافة، إلاّ أنهم أسوأ من ذلك. أما المجرمون الصغار فبعضهم لطيف محبب. أحدهم عرض علي كيفية فتح الأقفال بوصلة سلك، وصبي آخر ذو وجه ملائكي علمني كثيراً من الطرق في ضرب الناس.

فكرت الآنسة ماربل بإمعان في هذه المعلومة.

جينا: إن السفاحين هم الذين أحبهم أكثر من غيرهم، فيما لا أحب غريبي الأطوار كثيراً. لويس والدكتور مافيريك يعتقدان بأن الجميع غريبو الأطوار، أي أنهما يعتقدان بأنها رغبات مكبوتة وحياة منزلية غير مستقرة، مثل هروب الأمهات، وغير ذلك من الأمور. وأنا لا أؤمن بذلك حقاً لأن بعض الناس عاشوا حياة منزلية

فظيعة ومع ذلك تمكنوا من أن ينشؤوا على أحسن حال.

قالت الآنسة ماربل: أنا واثقة أنها مشكلة عويصة جداً.

ضحكت جينا -مبدية مرة أخرى أسنانها الرائعة- وقالت: إن ذلك لا يقلقني كثيراً. أعتقد أن بعض الناس لديهم مثل هذه الدوافع التي يريدون بها أن يجعلوا العالم مكاناً أفضل. إن لويس مهووس تماماً بكل هذا الأمر وهو سيسافر إلى أبردين في الأسبوع القادم لأن قضية ستعرض على محكمة الشرطة هناك... قضية صبي ذي خمس سوابق.

- بالنسبة للشاب الذي استقبلني في المحطة، السيد لاوسن... إنه يساعد السيد سيروكولد كما أخبرني، فهل هو سكرتيره؟

- آه، ليس لدى إدغار من العقل ما يكفي ليكون سكرتيراً. إنه أحد القضايا التي يستضيفها ستوني غيتس بالفعل. كان معتاداً على الإقامة في الفنادق والادعاء بأنه شخص مهم، أو طيار مقاتل، وكان يقترض الأموال ثم يهرب إلى مكان آخر. أعتقد أنه مجرد شخص بغيض، ولكن لويس يتبع معهم جميعاً تقليداً معيناً؛ إذ يجعلهم يشعرون بأنهم جزء من العائلة ويكلفهم بمهمات يقومون بها، بغية تشجيعهم على الشعور بالمسؤولية. ولربما قتلنا أحدُ هؤلاء في يومٍ ما!

ثم ضحكت بسعادة.

ولكن الآنسة ماربل لم تضحك.

التفت السيارة وعبرت بوابات مهيبة حيث كان يقف مفوض للحراسة بطريقة عسكرية. ثم مضت السيارة في ممر يفضي إلى باب المنزل محاط من جانبيه بشجيرات. كان حال الممر سيئاً، وبدت الحديقة مهملة.

قالت جينا وقد فهمت نظرة رفيقتها: لم يكن في المكان خلال الحرب بستانيون، وبعد أن انتهت لم نكلف أنفسنا عناء استئجار أحد. ولكن المنظر يبدو فظيعاً بعض الشيء بالفعل.

دخلت السيارة في منعطف، وظهر ستوني غيتس بكامل أبهته. كان -كما قالت جينا- صرحاً ضخماً من الطراز القوطي الفيكتوري. وكانت أعمال الخير الإنسانية التي كُرس لها قد أضافت له ملامح جديدة في عدة أجنحة وملاحق أسهمت -رغم عدم اختلافها كثيراً في الطراز- في حرمان البناء إجمالاً من أي انسجام أو معنى.

قالت جينا بشغف: إنه شنيع، أليس كذلك؟ تلك هي جدتي على المصطبة الأمامية. سأبقى هنا، وتستطيعين أنت أن تذهبي وتقابليها.

تقدمت الآنسة ماربل عبر المصطبة الأمامية باتجاه صديقتها القديمة. بدا الجسم الصغير النحيل -عن بعد- فتياً على نحو غريب رغم العصا التي كانت تتكئ عليها ورغم تقدمها البطيء والمؤلم بعضَ الشيء. كانت في هيئتها تلك كفتاة تقوم بتقليد مبالَغ فيه للعجائز.

السيدة سيروكولد: جين!

الآنسة ماربل: عزيزتي كاري لويز!

نعم، كانت كاري لويز التي لا يمكن أن تخطئها العين. الغريب أنها لم تتغير، والغريب أنها ما زالت شابة رغم أنها -وعلى العكس من أختها- لم تكن تستعمل المساحيق أو غيرها من الوسائل الاصطناعية التي يُستجدى بها الشباب. كان شعرها أشيب، ولكنه كان دوماً ذا لون أشقر فضي، وهكذا لم يتغير لونه إلاّ قليلاً. وكان جلدها محافظاً على هيئته حيث يتناوب فيه الأحمر الوردي مع البياض، رغم ما أصاب ذلك التورد من تغضن. وكان جسمها النحيل كجسم فتاة، ورأسها قد حافظ على ميلانه المتلهف كرأس طير.

قالت كاري لويز بصوتها العذب: إنني ألوم نفسي على ما مرَّ من وقت طويل لم أرَكِ فيه. سنواتٌ طويلة مرت دون أن أراك يا جين. يا عزيزتي... كم هو جميل منك أن تأتي أخيراً لزيارتنا هنا!

صاحت جينا من آخر المصطبة: عليك أن تدخلي يا جدتي؛ فالجو آخذ في البرودة، وستكون جولي غاضبة.

أطلقت كاري لويز ضحكتها الصغيرة وقالت: كلهم قلقون عليَّ بهذا الشكل، مردّدين بأنني امرأة عجوز!

الآنسة ماربل: وأنت لا تشعرين أنك عجوز؟

كاري لويز: كلا، لا أشعر بذلك يا جين، رغم كل أوجاعي وآلامي التي أملك منها الكثير. ما زلت أشعر من الداخل وكأنني فتاة مثل جينا. وربما كان الجميع كذلك، تُريهم المرآة مقدار شيخوختهم فلا يصدقونها. يبدو لي وكأنه لم تمضِ إلا بضعة أشهر على وجودنا معاً في فلورنسا. هل تذكرين فراولين شويك وحذاءها العجيب؟

ضحكت العجوزتان معاً من أحداثٍ وقعت منذ ما يقرب من نصف قرن. سارتا معاً حتى بابٍ جانبي، وعند الباب قابلتهما سيدة نحيلة في أواسط عمرها. كانت ذات أنف يدل على العجرفة وشعر قصير، وقد ارتدت ثوباً صوفياً حسن التفصيل. قالت بحدة: هذا جنون مطلق منك يا كاري... أن تتأخري إلى هذا الحد في الخارج. إنك عاجزة تماماً عن الاعتناء بنفسك. ما الذي سيقوله السيد سيروكولد؟

قالت كاري بضراعة: لا تُعنِّفيني يا جولي.

ثم عرّفت الآنسة ماربل بالآنسة جولي بيليفر قائلة: أعرّفك إلى الآنسة بيليفر التي هي –ببساطة– كل شيء بالنسبة لي... الممرضة، والجلاد، وكلب الحراسة، والسكرتيرة، ومدبرة المنزل، والصديقة المخلصة جداً.

نشقت جولي بيليفر بأنفها الضخم الذي صار طرفه وردياً علامةَ الانفعال والعاطفة، ثم قالت: إنني أفعل ما بوسعي فعله. هذا بيت من المجانين، فليس بوسعك أن ترتبي أي نوعٍ من

العادات المنظّمة.

كاري لويز: طبعاً ليس بوسعك ذلك يا غاليتي جولي. إنني لأعجب لماذا تحاولين أصلاً ترتيب ذلك! أين ستضعين الآنسة ماربل؟

جولي: في الغرفة الزرقاء. هل أرشدها إليها؟

كاري لويز: نعم، أرشديها من فضلك. ثم اصحبيها بعد ذلك لتناول الشاي، سنتناول الشاي في المكتبة اليوم كما أظن.

كانت للغرفة الزرقاء ستائر ثقيلة من القماش الثمين المطرز ذات لون سماوي. وفكرت الآنسة ماربل بأن عمر هذه الستائر لا بد أن يكون خمسين سنة. كان الأثاث ضخماً ثقيلاً من خشب الماهوغاني الأحمر، وكان السرير ضخماً من الخشب ذاته.

فتحت الآنسة بيليفر باباً يفضي إلى حمام ملحق بالغرفة، وكان الحمام حديثاً على غير المتوقع ذا لون أرجواني فاتح وفيه الكثير من الكروم المُبهِرْ. قالت الآنسة بيليفر بتجهم: لقد ركّب جون ريستاريك في البيت عشرة حمامات عندما تزوج كاري. وأنابيب المياه هي الشيء الوحيد تقريباً الذي تم تحديثه، ولم يكن ليصغي لأي مقترح بإجراء تغييرات على الأمور الأخرى. قال بأن البيت كله يعتبر مثالاً كاملاً لقطعة فنية تدل على عصر معين. هل سبق لك أن تعرفتِ إليه؟

الآنسة ماربل: كلا، لم أقابله أبداً؛ فأنا والسيدة سيروكولد

لم نلتقِ إلاّ نادراً جداً، رغم أننا كنا دائماً نتراسل.

قالت الآنسة بيليفر: "لقد كان شخصاً مقبولاً... لم يكن جيداً بالطبع، ولكن وجوده في البيت ذو تأثير مفرح؛ فله سحر عجيب، والنساء يُحببْنه أكثر من غيرهن، وقد كان ذلك سبب دماره في النهاية. لم يكن –حقاً– من نوعية كاري". ثم أضافت وهي تستعيد أسلوب حديثها العملي: ستتولى الخادمة فك وإفراغ حقيبتك. هل تريدين أن تغسلي يديك قبل تناول الشاي؟

وعندما جاءها الجواب بالإيجاب أخبرت الآنسة ماربل بأنها ستكون بانتظارها في أعلى الدرج.

دخلت الآنسة ماربل الحمام فغسلت يديها وجففتها بقليل من العصبية بالمنشفة الجميلة ذات اللون الأرجواني، ثم نزعت قبعتها وعدلت من شعرها الأشيب الناعم. بعد ذلك فتحت الباب ووجدت الآنسة بيليفر بانتظارها لتقودها عبر الدرج الضخم المظلم ثم عبر الصالة الضخمة المعتمة حتى غرفةٍ وصلت رفوف الكتب فيها إلى السقف وفيها نافذة ضخمة تطل على بحيرة اصطناعية.

كانت كاري لويز تقف قرب النافذة، فانضمت إليها الآنسة ماربل وقالت: يا لهذا المنزل المهيب! شعرت أنني سأضيع فيه.

كاري لويز: نعم، أعرف ذلك؛ إنه من طراز سخيف حقاً. لقد بنى هذا البيت واحدٌ من أقطاب صناعة الحديد الأثرياء، وسرعان ما أفلس بعد ذلك. ولا أعجب لذلك؛ فقد كان في هذا البيت ما يقرب من أربع عشرة غرفة معيشة، وكلها ضخمة جداً.

لم أستطع أن أفهم أبداً لماذا يطلب الناس أكثر من غرفة جلوس واحدة. بالإضافة إلى كل غرف النوم الضخمة تلك، حيث يتوفر حيز هائل لا ضرورة له. إن غرفة نومي فظيعة في اتساعها حتى إن عليّ أن أقطع طريقاً طويلاً من سريري لأصل إلى طاولة الزينة. وفي البيت ستائر ضخمة ثقيلة ذات لون قرمزي غامق.

سألت الآنسة ماربل: ألم تعملي على تحديثه وتغيير ديكوراته؟

بدت كاري لويز مندهشة قليلاً على نحو غامض ثم قالت: لا، إنه –إجمالاً– كما كان عندما سكنته لأول مرة مع إيريك. أُعيد طلاؤه بالطبع، ولكنهم يطلونه دوماً بنفس اللون. هذه الأمور لا تهم كثيراً، أليس كذلك؟ ما أعنيه هو أنني لم أكن لأجد مبرراً لنفسي في صرف كثير من المال على مثل هذه الأمور في وقتٍ توجد فيه كثير من الأمور الأكثر أهمية.

– ألم تجرِ تغييرات أبداً في هذا المنزل؟

– أوه، بلى، كثير من التغييرات. نحن لم نترك إلاّ المبنى الذي يشكل وسط البيت كما هو، أي الصالة الكبرى والغرف التي حولها وفوقها، فقد كانت تلك أفضل الغرف وكان جوني (زوجي الثاني) متحمساً كثيراً لها وقال بأن ذلك الجزء من المبنى ينبغي عدم المساس به أو تغييره، وقد كان فناناً ومصمماً يعرف هذه المسائل. أما الجناحان الشرقي والغربي فقد أُعيد تشكيلهما بالكامل، حيث قُسِّمت كل الغرف بقواطع، فتوفرت لدينا مكاتب وغرف نوم لهيئة التدريس وغير ذلك. الفتيان جميعهم في مبنى

«الكليَّة»، بوسعك أن تريه من هنا.

أطلّت الآنسة ماربل نحو مبانٍ ضخمة مبنية بالآجر الأحمر تظهر من خلف حزام من الأشجار. ثم وقعت عيناها على موضوعٍ أقرب إليها فابتسمت قليلاً وقالت: كم هي جميلة جينا!

تهلل وجه كاري لويز وقالت برقة: نعم، أليست رائعة الجمال؟ من الرائع أنها عادت ثانيةً إلى هنا. لقد أرسلتها إلى أمريكا في بداية الحرب، إلى روث. هل حدثتك روث عنها؟

– لا، بل اكتفت بذكرها لي.

تنهدت كاري لويز وقالت: المسكينة روث! كانت قلقة جداً من زواج جينا، ولكنني قلت لها مراراً وتكراراً بأنني لا ألوم جينا أبداً. إن روث لا تدرك –كما أدرك أنا– بأن الاعتبارات القديمة وخرافات الفوارق الطبقية قد زالت، أو أنها –في أحسن الأحوال– تسير نحو الزوال. كانت جينا تؤدي بعض واجباتها أثناء الحرب والتقت بهذا الشاب الذي كان في سلك البحرية وله سجل حربي جيد جداً. وبعد أسبوع تزوج الاثنان، وجاء الأمر كله بشكل سريع بحيث لم يُتح وقتٌ نبحث في كونهما حقاً مناسبين لبعضهما البعض. ولكن هكذا تجري الأمور هذه الأيام؛ فالشباب ينتمون لجيلهم، وقد نرى نحن بأنهم طائشون في كثير من أفعالهم، ولكن علينا أن نتقبل قراراتهم. ومع ذلك فإن روث كانت قلقة كثيراً.

– ألم تعتبر الشاب مناسباً؟

– ظلت تردد بأن المرء لا يعرف شيئاً عنه. كان الشاب من منطقة الغرب الأوسط في أمريكا، ولم يكن يملك شيئاً من المال، ولم تكن له مهنة بالطبع. في كل مكان مئات من الشباب من أمثاله، فلم تجد فيه روث شاباً مناسباً لجينا. ولكن الزواج تم على أية حال. ولقد سعدت كثيراً عندما قبلت جينا دعوتي لتأتي لزيارتنا هنا مع زوجها؛ فالكثير يحدث هنا، وتوجد وظائف من مختلف الأنواع، فإن كان وولتر يريد التخصص في الطب أو نيل أية شهادة أو غيرها فبوسعه أن يقوم بذلك في هذا البلد، فهذا في النهاية بيت جينا. من المفرح أنها عادت، وأن يكون معنا هنا شخص بكل هذا الدفء والمرح والحيوية.

هزت الآنسة ماربل رأسها بالموافقة ونظرت ثانية من خلال النافذة إلى الشابين الواقفين، ثم قالت: وهما زوجان رائعان جداً أيضاً، ولا يدهشني وقوع جينا في غرامه!

كاري لويز: أوه، ولكن ذاك... ذاك ليس وولي!

سادت فجأة نبرة حرج أو تحفظ في صوت كاري لويز، ثم أضافت: ذلك هو ستيف، الابن الأصغر لجوني ريستاريك. فعندما مات جوني لم يبقَ للصبيين مكان يقضيان فيه إجازاتهما، ولذلك فأنا أستقبلهما دوماً هنا. إنهما يعتبران هذا البيت بيتهما، وستيف مقيم هنا بشكل دائم الآن. إنه يدير فرع الدراما لدينا، إذ أن لدينا مسرحاً ومسرحيات تمثل، ونحن نشجع كل المواهب الفنية. يقول لويس إن كثيراً من جرائم الأحداث تلك سببه النزعة

الاستعراضية، فمعظم هؤلاء الصبية قد عاشوا حياة بيتية تعيسة محبطة، وأعمال السطو والسرقة هذه تجعلهم يشعرون بـأنهم أبطال. إننا نشجعهم على كتابة مسرحياتهم الخاصة والتمثيل فيها، وعلى تصميم ورسم مشاهدهم وديكوراتهم الخاصة. وستيف مسؤول عن المسرح، وهو بالغ الحماسة والتوقد. ومن العجب أن تري ما أدخله من حياة على هذه الممارسة كلها.

قالت الآنسة ماربل ببطء: فهمت.

كان نظرها عن بُعد جيداً (كما كان يعرف كثيرٌ من جيرانها في قرية سينت ميري ميد)، وقد رأت بكل وضوح الوجه الوسيم الأسمر لستيف ريستاريك وهو يقف مواجهاً لجينا ومتحدثاً بلهفة. أما وجه جينا فلم تستطع رؤيته، إذ أن الفتاة كانت تعطي ظهرها لها، ولكنها لم تكن لتخطئ فهم التعبير الظاهر على وجه ستيفن ريستاريك.

الآنسة ماربل: إنه أمر لا يعنيني، ولكنني أفترض أنك تدركين يا كاري بأنه يحب جينا.

بدت كاري لويز منزعجة وقالت: أوه، كلا، كلا... إنني آمل أن لا يكون كذلك!

الآنسة ماربل: لقد كنتِ خيالية بعيدة عن الواقع على الـدوام يا كاري لويز. ليس في ذلك أدنى شك!

* * *

الفصل الرابع

قبل أن تستطيع كاري لويز أن تجيب بشيء جاء زوجها من الصالة وفي يديه بعض الرسائل المفتوحة.

كان لويس سيروكولد رجلاً قصيراً، ليس في مظهره ما يلفت النظر بشكل خاص، ولكن كانت له شخصية تميزه على الفور. كانت روث قد قالت عنه مرة بأنه أشبه بمولّد كهرباء منه بإنسان، وقد كان من عادته أن يركز بشكل كامل على ما يشغل انتباهه، ولا يلقي بالاً للأشياء أو الأشخاص المحيطين به.

قال: إنها صفعة سيئة يا عزيزتي. فذلك الفتى، جاكي فلينت، عاد ثانية لألاعيبه. وكنتُ ظننتُ حقاً أنه جادّ في الاستقامة هذه المرة لو أتيحت له فرصة مناسبة، فقد بدا جاداً كثيراً في ذلك. تعلمين أننا عرفنا أنه كان دوماً متعلقاً بالقطارات والسكك الحديدية، واعتقدنا كلانا -أنا ومافيريك- بأنه لو حصل على عمل في هذا المجال فإنه سيكرس نفسه له ويُفلح. ولكن القصة تكررت... سرقات بسيطة من مكتب الطرود... ولم تكن المسروقات حتى مما يمكن أن يحتاجه أو يبيعه. وهذا يظهر أن

الأمر –لا بدّ– سيكولوجي. لم نصل حقاً إلى جذر المشكلة... ولكنني لن أستسلم.

كاري لويز: لويس، أعرّفك إلى صديقتي القديمة... جين ماربل.

قال السيد سيروكولد وهو شارد الذهن: تشرّفنا بمعرفتك. إنني سعيد جداً... سيقاضونه بالطبع. إنه فتى لطيف، ليس ذا ذكاء متميز ولكنه لطيف حقاً. بيته الذي انحدر منه لا يوصف. أنا...

توقف عن الحديث فجأة، ثم انتبه ليولي اهتمامه للضيفة: آنسة ماربل... إنني سعيدة جداً بقدومك للإقامة معنا لفترة. سيشكل ذلك تغييراً كبيراً بالنسبة لكاري؛ أن تستضيف صديقة قديمة من الأيام الخوالي تستطيع معها تبادل الذكريات. إنها تُمضي وقتاً كئيباً هنا من عدة أوجه؛ ففي قصص هؤلاء الأطفال المساكين كثير مما يحزن. إننا نأمل حقاً أن تبقي معنا لوقت طويل.

شعرت الآنسة ماربل بمغنطيسية الرجل، وأدركت مدى الجاذبية التي لا بد أن صديقتها شعرت بها تجاهه. لم تشك لحظةً أن لويس سيروكولد كان من الرجال الذين يولون القضايا اهتماماً أكثر مما يولونه للناس. وكان ذلك سيثير ويزعج بعض النساء، إلاّ كاري لويز.

تناول لويس سيروكولد رسالة أخرى وقال: على أية حال فلدينا بعض الأخبار الجيدة. هذه الرسالة من بنك ويلتشير حيث

الشاب موريس يعمل بشكل رائع جداً، وهم مقتنعون به تماماً، بل إنهم في الواقع سوف يمنحونه ترقية في الشهر القادم. كنت أعرف دوماً أن كل ما يحتاجه ذلك الشاب هو تحمل المسؤولية، بالإضافة إلى فهمٍ عميق لقضية التعامل مع المال وما تعنيه.

ثم التفت إلى الآنسة ماربل وقال: إن نصف هؤلاء الصبية لا يعرفون ما هي النقود، فهي تمثّل عندهم الذهاب إلى السينما أو إلى سباق الكلاب، وهم أذكياء وماهرون في الأرقام، ويجدون متعة في التلاعب بها. حسناً، إنني أؤمن... كيف أعبّر عن ذلك؟ أؤمن بإشغالهم دوماً بهذا الموضوع الذي يحرجهم (بتدريبهم على المحاسبة بالأرقام) بأن أظهر لهم كل السحر الداخلي للمال إذا صح التعبير. أعطيهم الخبرة والمهارة، ثم المسؤولية بعد ذلك، حيث أدعهم يتعاملون مع المال بشكل رسمي. لقد تحققت نجاحاتنا الكبرى بتلك الطريقة، ولم يخذلنا إلاّ اثنان من أصل ثمانية وثلاثين فتى. كان أحدهما رئيس المحاسبين في شركة أدوية، وهو مركز ذو مسؤولية...

ثم توقف ليقول لزوجته: الشاي في الداخل يا عزيزتي.

كاري لويز: ظننت أننا سنشربه هنا، هكذا قلت لجولي.

لويس: بل إنه في الصالة، والآخرون كلهم هناك.

كاري لويز: ظننتهم سيخرجون جميعاً.

شبكت كاري لويز ذراعها بذراع الآنسة ماربل ومضتا معاً

في الفندق الصغير، بدا تقديم الشاي طقساً غير منسجم مع هذا التصحيح. كانت أواني الشاي مكومة كيفما اتفق على إحدى الصواني، وقد اختلطت فيها تلك الأكواب البيضاء العملية مع بقايا أطقم شاي من طراز روكينغهام الفاخر، وكانت معها بعض قطع الكعك الرخيص الذي لا يدل منظره على أنه صحي.

كانت امرأة ممتلئة الجسم في أواسط عمرها ذات شعر أشيب تجلس خلف طاولة الشاي. قالت كاري لويز: هذه ميلدريد يا جينا، ابنتي ميلدريد. أنت لم تريها منذ كانت طفلة صغيرة.

كانت ميلدريد ستريت أكثر شخص انسجاماً مع المنزل ممن رأتهم الآنسة ماربل حتى الآن. بدت متفتحة جليلة المعتقد. وكانت قد تزوجت وهي في أواخر الثلاثينيات من عمرها وهي الآن أرملة. وبدت تماماً مثل أرملة: محترمة، وبليدة قليلاً. كانت امرأة قبيحة ذات وجه ضخم يخلو من التعبير وعينين بليدتين. وفكرت الآنسة ماربل بأن ميلدريد طفلة قبيحة حتماً.

قالت كاري لويز: وهذا وولي هَدْ، زوج جينا.

كان وولي شاباً ضخم الجثة ذا شعر ينتصب على رأسه مثل فرشاة، وتعلو وجهه تعابير متجهمة. أحنى رأسه للآنسة ماربل بشكل أخرق ومضى يحشو فمه بالكعك، وسرعان ما دخلت جينا مع ستيفن ريستاريك، وكانا كلاهما مبتهجين.

قال ستيفن: جينا لديها فكرة رائعة تختص بخلفية المسرح. أتدرين يا جينا؟ إن لديك إحساساً مرهفاً بالتصميم المسرحي!

ضحكت جينا وبدت مسرورة فَرِحة. دخل إدغار لاوسن وجلس قرب لويس، وعندما تحدثت إليه جينا تظاهر بعدم الاستجابة.

وجدت الآنسة ماربل أن الجو كله مربك، وأسعدها أن تعود إلى غرفتها وتضطجع بعد تناول الشاي.

على مائدة العشاء كان أُناس إضافيون أيضاً، منهم الطبيب الشاب مافيريك الذي كان طبيباً نفسياً أو عالماً نفسياً... فلم تكن الآنسة ماربل متأكدة تماماً من الفرق بين الاثنين، وكان حديثه- الذي انصبّ كلياً على الجعجعة بمصطلحات مهنية- غير مفهوم بالنسبة للآنسة ماربل. وأيضاً كان يوجد شابان يضع كلاهما نظارة ولهما مراكز في الجانب التعليمي؛ ورجل يدعى باومغارتن وهو المشرف على العلاج بواسطة العمل والإشغال، بالإضافة إلى ثلاثة شباب شديدي الحياء كانوا يمضون فترة «أسبوع الاستضافة» الخاص بهم. وقد همست جينا في أُذن الآنسة ماربل بأن أحدهم (وهو ذو الشعر الأشقر والعينين شديدتي الزرقة) هو «خبير ضرب الناس».

لم تكن وجبة العشاء وجبة شهية بشكل خاص، فقد طُبخت دون اهتمام، وقُدِّمت دون اهتمام. وكان الحضور يرتدون تشكيلة متنوعة من الملابس، فقد ارتدت الآنسة بيليفر ثوباً أسود ذا ياقة عالية، وارتدت ميلدريد ثوب سهرة وفوقه سترة صوفية، وارتدت كاري لويز ثوباً من الصوف الرمادي، فيما تألقت جينا بطراز

ثياب فلاّحية. أما وولي فلم يغير ملابسه، ومثله ستيفن ريستاريك. وارتدى إدغار بذلة أنيقة زرقاء غامقة. وكان لويس سيروكولد يرتدي سترة العشاء التقليدية، وقد اكتفى بالقليل جداً من الطعام، بل بدا عليه أنه لا يكاد يلاحظ ما في صحنه.

بعد العشاء مضى لويس والدكتور مافيريك إلى مكتب الأخير، ومضى المشرف على العلاج بواسطة العمل والإشغال مع المتعلّمَيْن إلى مأوى خاص بهما، وعاد نشبان «الحالات» الثلاثة إلى الكلية، ومضت جينا وستيفن إلى المسرح ليناقشا فكرة جينا حول خلفية خشبة المسرح. كانت ميلدريد تنسج رداءً لا يُعرف نوعه، فيما كانت الآنسة بيليفر ترتق بعض الجوارب، وقد جلس وولي في كرسي مائل قليلاً إلى الخلف وهو يحدق في الفراغ. تحدثت كاري لويز والآنسة ماربل عن الأيام الخوالي، وبدا حديثهما خيالياً على نحو غريب.

وحده إدغار لاوسن بدا عاجزاً عن إيجاد حيِّز خاص به. كان يجلس ثم ينهض قلقاً، ثم قال بصوت عالٍ بعض الشيء: أتساءل إن كان عليّ أن أذهب إلى السيد سيروكولد؛ فربما احتاجني.

قالت له كاري لويز بلطف: أوه، أنا لا أظن ذلك... كان يريد التحدث في بعض الأمور مع الدكتور مافيريك هذا المساء.

قال إدغار: إذن فلن أتدخل بالتأكيد! لم أكن لأذهب إلى مكان لا يريدني فيه أحد، فقد أضعت اليوم من الوقت ما فيه الكفاية بذهابي إلى المحطة.

كاري لويز: كان عليها أن تخبرك... ولكنني أعتقد أنها قررت الذهاب في آخر لحظة.

إدغار لاوسن: أنت تدركين -يا سيدة سيروكولد- بأنها جعلتني أبدو أحمق تماماً! أحمق تماماً!

قالت كاري لويز مبتسمة: لا، لا ينبغي أن تفكر هكذا.

- أنا أعرف بأنني غير مطلوب ولا مرغوب. إنني أعي ذلك تماماً، ولو أن الأمور كانت مختلفة، ولو كان لدي مكاني المناسب في الحياة...

- هيّا يا إدغار، لا تستهلك نفسك دون داعٍ. إن جين ترى أن استقبالك لها كان أمراً في غاية اللطف من جانبك. جينا تنتابها دوماً تلك الأفكار المفاجئة، وهي لم تكن تقصد إزعاجك.

- لا، بل كانت تقصد ذلك. لقد فعلت ذلك عن قصد... بغيةَ إذلالي.

- أوه يا إدغار...

- أنت لا تعرفين نصف الأشياء التي تجري هنا يا سيدة سيروكولد. حسناً، لن أقول المزيد الآن إلاّ "طابت ليلتكم".

خرج إدغار وصفق الباب خلفه، فيما زفرت الآنسة بيليفر بقوة وقالت: أخلاق سيئة!

قالت كاري لويز بشكل مبهم: إنه حساس جداً!

قعقعت ميلدريد بإبرتي النسيج اللتين تمسك بهما في يدها وقالت: إنه حقاً شاب كريه جداً، ليس عليك أن تتحملي سلوكاً كهذا يا أمي.

قالت أمها: لويس يقول إن الأمر خارج عن سيطرة الشاب.

أجابت ميلدريد بحدة: بوسع كل الناس أن يتصرفوا بوقاحة. أنا ألوم جينا كثيراً بالطبع... إنها طائشة تماماً في كل أمر تتولاه وليس لها عمل إلاّ إثارة المتاعب. يوماً تشجع الشاب، وفي اليوم التالي توبخه وتزدريه. فما الذي تتوقعينه من هذا السلوك؟

تكلم وولي هَدْ لأول مرة تلك الليلة قائلاً: ذلك الشاب أبله. هذا كل ما في الأمر... أبله!

* * *

حاولت الآنسة ماربل في غرفة نومها -في تلك الليلة- أن تراجع في عقلها نمط الحياة والأمور في ستوني غيتس، ولكن ذلك لم يزل مختلطاً مشوشاً؛ ففي هذا المنزل تيارات وتيارات مقابلة متعاكسة، ولكن كان من المستحيل الجزم إن كان وجود تلك التيارات قادراً على تفسير قلق روث فان ريدوك. لم يبدُ للآنسة ماربل بأن كاري لويز كانت متأثرة -بأي شكل- بما يجري حولها. كان ستيفن يحب جينا، وقد تكون جينا بادلته الحب أو لا تكون، وكان واضحاً أن وولي هَدْ لم يكن يتمتع

بالإقامة في المنزل. ولكن كل هذه المسائل قد تحدث (وهي تحدث بالفعل) في كل الأماكن وفي أغلب الأوقات. لم يكن فيها -لسوء الحظ- أي شيء استثنائي، فمثل هذه المسائل تنتهي في المحاكم بالطلاق على أمل أن يبدأ الجميع حياة جديدة. ومن الواضح أن ميلدريد تغار من جينا وتكرهها. وفكرت الآنسة ماربل بأن ذلك كان طبيعياً تماماً.

واسترجعت الآنسة ماربل ما قالته لها روث فان ريدوك عن خيبة أمل كاري لويز نتيجة عُقمها، ثم تبنيها للصغيرة بيبا وإدراكها -في النهاية- أنها كانت حاملاً بطفل سيأتي. كان طبيب الآنسة ماربل قال لها: "تحدث الأمور على هذا النحو في بعض الأحيان، وربما كان السبب في ذلك أن التوتر يخفّ بعد التبني". وقد أضاف الطبيب بأن ذلك يكون عادة من سوء حظ الطفل المتبنّى.

ولكن الأمر لم يجرِ على هذا النحو في هذه الحالة؛ فالسيد غولبراندسن وزوجته أُغرما بالطفلة الصغيرة، بيبا، التي كانت قد احتلت في قلبهما مكانة ثابتة يصعب معها أن تُزاح جانباً بسهولة. كان غولبراندسن أباً منذ زمن، ولم تكن الأبوة لتعني له شيئاً جديداً. وكانت بيبا قد هدّأت وأشبعت من توق كاري لويز وحنينها للأمومة. وكان حملها بابنتها صعباً ومزعجاً، وكانت ولادتها عسيرة ومطوّلة. ربما لا تكون كاري لويز (التي لا تأبه أبداً بالواقع) قد أحبت أول مواجهة لها مع هذا الواقع.

وهكذا وُجدت فتاتان صغيرتان تكبران، إحداهما جميلة

محببة والأخرى قبيحة وبليدة، الأمر الذي كان أيضاً طبيعياً تماماً كما فكّرت الآنسة ماربل؛ ذلك أن الناس حين يتبنّون طفلة فإنهم يختارونها جميلة. ومع أنه كان بالإمكان أن تكون ميلدريد محظوظة وتأتي شبيهة بعائلة مارتن التي أنجبت الجميلة روث والناعمة الرقيقة كاري لويز، إلاّ أن الوراثة قضت أن تشابه عائلة أبيها غولبراندسن، العائلة التي تميزت بالضخامة والبلادة والقبح الشديد. وبالإضافة إلى ذلك، فإن كاري لويز كانت مصممة على أن لا تشعر الطفلة المتبناة أبداً بالفرق في موقعها، وفي غمرة حرصها على ذلك كانت تبالغ في دلال بيبا إلى حدٍ يبلغ أحياناً عدم إنصاف ميلدريد.

وقد تزوجت بيبا وذهبت إلى إيطاليا، وظلت ميلدريد الابنة الوحيدة في البيت لبعض الوقت. ولكن بيبا توفيت بعد ذلك، فجاءت كاري بابنتها إلى ستوني غيتس؛ وغادرته ميلدريد مرة أخرى. ثم كان زواج كاري لويز الجديد واحتفاظها بولدَيْ ريستاريك. وفي عام ١٩٣٤ تزوجت ميلدريد السيد ستريت، عالم الحضارات القديمة الذي يكبرها بنحو خمسة عشر عاماً، وسافرت لتعيش في جنوب إنكلترا. ويقال إنها كانت سعيدة، ولكن المرء لا يعرف إن كانت كذلك بالفعل. لم ترزق بأطفال، وها هي الآن هنا، عادت إلى نفس المنزل الذي نشأت فيه. ومرة أخرى لم تكن سعيدة فيه تماماً (كما فكرت الآنسة ماربل).

وولي وجينا وستيفن وميلدريد والآنسة بيليفر كانوا جميعاً ممَّن يحبون سيادة نظام مفروض، ولكنهم عاجزون عن فرضه.

وكان لويس سيروكولد -كما هو واضح- سعيداً بكل جوارحه، كان مثالياً قادراً على ترجمة مُثُله إلى إجراءات عملية. ولم تجد الآنسة ماربل في أيٍ من هذه الشخصيات ما اعتقدت أنها ستجده مما أوحت به كلمات روث. بدت كاري لويز آمنة، بعيدة، منخرطة في قلب الدوامة، كما كان شأنها طوال حياتها. فما الذي شعرت به روث -إذن- في هذا الجو ورأته شاذاً خاطئاً؟ وهل تشعر به هي، حين ماربل، أيضاً؟

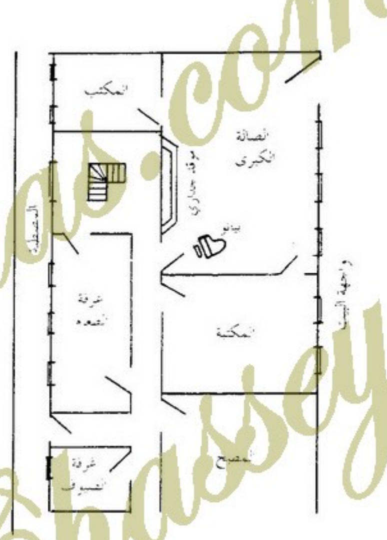
ماذا عن باقي الشخصيات الخارجية التي تقف على هامش الدوامة؟ المشرف على العلاج بالإشغال، والمعلمَيْن، والطبيب الواثق الشاب مافيريك، والأحداث الثلاثة ذوي الوجوه الوردية والعيون البريئة... وإدغار لاوسن؟

وهنا، وقبل أن يغلبها النوم، توقفت أفكار الآنسة ماربل لتتأمل وتقلب الفكر في شخصية إدغار لاوسن. لقد ذكّرها إدغار بأحدٍ ما أو بشيء ما. كان فيه شيء شاذ قليلاً بالفعل، بل ربما أكثر من «قليل». كان إدغار يفتقر إلى التوافق والانسجام، نعم، تلك هي العبارة، أليس كذلك؟ ولكن المؤكد أن ذلك لم يكن ليؤثر في كاري لويز، ولا ينبغي له أن يؤثر فيها.

استبعدت الآنسة ماربل ذلك في عقلها.

إن ما يقلقها كان أبعد من ذلك.

* * *



مخطط لمنزل «ستوني غيتس»

الفصل الخامس

صباحَ اليوم التالي خرجت الآنسة ماربل إلى حدائق المبنى في تملص لطيف من مضيفتها. وقد شعرت بالأسى لحال تلك الحدائق التي كانت ذات يوم مشروعاً طموحاً يتضمن مجاميع من شجيرات الورود، ومنحدرات عشبية مستوية، وحواجز كثيفة من النباتات العشبية، وأسيجة شجرية متراصة تحيط بحديقة ورود رسمية. أما الآن فقد كان كل شيء مهمَلاً إلى حد بعيد؛ فالمروج العشبية تم جَزُّها بشكل سيء أخرق، والحواجز مليئة بالأعشاب الضارة التي تجاهد أزهار متشابكة في الحياة معها، والممرات مهمَلة تعلوها الطحالب. أما حدائق المطبخ المسورة بحاجز من الآجر الأحمر فقد كانت -بالمقابل- مزدهرة ومعتنىً بها بشكل جيد، وأغلب الظن أن ذلك كان بسبب المنفعة المرجوة منها. وهكذا أيضاً كان جزء كبير مما كان ذات يوم مرجاً عشبياً وحديقة زهور قد سُيِّج وعُزل كساحات للتنس ولألعاب البولينغ.

أدارت الآنسة ماربل نظرها على الحواجز العشبية وقرقرت بلسانها غيظاً، ثم اقتلعت إحدى النباتات الضارة المزدهرة. وبينما كانت تقف والنبتة في يدها ظهر إدغار لاوسن، وعندما رأى

الآنسة ماربل توقف متردداً. ولم يكن في نية الآنسة ماربل أن تد
يفلت، فنادته بسرعة، وعندما أتى سألته إن كان يعرف مكا
أدوات البستنة.

قال إدغار بشكل غامض بأنّ بستانياً في مكان ما يعرف
الإجابة عن ذلك، فقالت الآنسة ماربل: من المؤسف جداً رؤي
هذا الحاجز مهملاً إلى هذا الحد. أنا مغرمة كثيراً بالحدائق.

وبما أنه لم يكن في نيتها أن تدع إدغار يذهب بحثاً عن
أية أدوات ضرورية، فإنها تابعت حديثها بسرعة: هذا هو كل
ما تستطيع امرأة عجوز لا فائدة منها أن تفعله. لا أعتقد أنك
قد شغلت نفسك بمسألة كالحدائق يا سيد لاوسن؛ فلديك كثير
من العمل الحقيقي والمهم لتفعله، ما دمت في موقع مسؤولية هنا
مع السيد سيروكولد. لاشك أنك تجد الأمر كله في غاية المتعة.

أجاب بسرعة تصل حدّ اللهفة: نعم، نعم... إنه ممتع.

قالت الآنسة ماربل: ولا شك أنك تقدم عوناً عظيماً للسيد
سيروكولد.

تجهم وجهه وقال: "لا أدري... لا يمكنني الجزم، فالعبرة
في ما خلفَ ذلك كلّه...". ثم توقف. راقبته الآنسة ماربل بإمعان.
كان شاباً ضئيلاً مثيراً للشفقة في بذلة غامقة أنيقة؛ شاباً ليس من
شأن كثير من الناس أن ينظروا إليه مرتين أو أن يتذكروا إن كانوا
قد نظروا إليه أصلاً...

كان بالقرب منهما مقعد من مقاعد الحديقة فانحازت
الآنسة ماربل إليه وجلست، ووقف إدغار أمامها متجهماً. قالت
ببهجة: أنا واثقة أن السيد سيروكولد يعتمد عليك كثيراً.

قال: "لا أدري. إنني -حقاً- لا أدري". ثم تجهم وجلس
بقربها دون تفكير تقريباً، وأضاف قائلاً: أنا في وضع صعب جداً.

- بالطبع.

جلس الشاب محدقاً أمامه ثم قال فجأة: هذا سريٌّ جداً.

- بالطبع.

- لو كانت لي حقوقي...

- نعم؟

- يمكنني أن أخبرك على كل حال.. أنت لن تشيعي هذا
الأمر. أنا واثق من ذلك، أليس كذلك؟

- أوه، بالطبع لن أفعل ذلك.

ولاحظت أنه لم ينتظر تأكيدها بل مضى قائلاً: إن أبي...
في الواقع إن أبي رجل مهم جداً.

هذه المرة لم تكن بحاجة لقول أي شيء، لم يكن عليها
إلاّ الإصغاء.

قال: "لا أحد يعرف بالأمر سوى السيد سيروكولد، فذلك

-كما تعلمين- قد يضرّ بمركز والدي إذا انتشرت القصة. ز
التفت نحوها، وابتسم ابتسامة حزينة جليلة وقال: أتدرين، إنني
ابن ونستون تشرتشل.

- آه... فهمت!

وقد فهمتُ بالفعل. تذكرت قصة حزينة بعض الشيء في
قريتها سينت ميري ميد، والطريقة التي انتشرت بها.

ومضى إدغار لاوس في حديثه، وكان حديثه مألوفاً مثل
مشهد مسرحي: كانت توجد أسباب، فأمي لم تكن حرة طليقة.
زوجها كان في مصح عقلي، ولم يكن طلاقها منه ممكناً، ولم
تكن مسألة الزواج واردة أبداً. أنا حقاً لا ألومهما، أو أنني أعتقد
-على الأقل- أنني لا ألومهما... فقد فعل دوماً كل ما بوسعه أن
يفعله، بالسرّ طبعاً. ومن هنا نشأت المشكلة. إن له أعداء، وهم
يقفون ضدي أيضاً. وقد تمكنوا من الفصل بيننا. إنهم يراقبونني
ويتجسسون عليّ أينما ذهبت ويجعلون الأمور تنقلب عليّ.

هزت الآنسة ماربل رأسها أسفاً وقالت: أوه، يا عزيزي..
يا عزيزي.

- في لندن كنت أدرس الطب، فتلاعبوا بامتحاناتي وبأجو
إجاباتي. أرادوا أن أرسب... لاحقوني في الشوارع.. قالوا عني
أشياء لصاحبة المنزل الذي أسكنه. إنهم يتعقبونني أينما ذهبت!

قالت الآنسة ماربل مهدّئة: ولكن لا يمكنك الجزم بذلك.

- أقول لك إنني أعرف! إنهم ماكرون جداً. أنا لم ألمح
أحداً منهم أو أعثر على هوياتهم، ولكنني سأعرف ذلك. أخذني
السيد سيروكولد من لندن وأتى بي إلى هنا. كان لطيفاً، لطيفاً
جداً. ولكن حتى هنا أنا لست آمناً، فهم هنا أيضاً... يعملون
ضدي، ويجعلون الآخرين يكرهونني. يقول السيد سيروكولد
إن ذلك ليس صحيحاً، ولكنه لا يدري. أو أنه... إنني أتساءل!
فكرت أحياناً أنه...

ثم توقف فجأة ونهض قائلاً: هذا كله سري. إنك تقدّرين
الأمر، أليس كذلك؟ ولكن إن لاحظتِ أحداً يتعقبني (أعني أحداً
متجسّساً) فربما أخبرتِني من هو!

ثم مضى بعيداً، أنيقاً، ضئيل القيمة، يرثى لحاله. راقبته
الآنسة ماربل وتعجبت...

وأتاها صوت يقول: هراء، مجرد هراء.

كان وولتر هَدْ يقف بجانبها. كانت يداه تغوصان عميقاً
في جيبه، وكان مقطباً وهو يحدق بجسم إدغار المبتعد. قال:
أي نوع من الرفقة هذا؟ كلهم مجانين، كلهم على الإطلاق!

لم تقل الآنسة ماربل شيئاً، ومضى وولتر قائلاً: ذلك الشاب
إدغار... ما الذي فهمتِه منه؟ يقول إن أباه هو اللورد مونتغمري.
لا يبدو لي ذلك محتملاً. ليس مونتغري بالتأكيد... فذلك لا
ينسجم مع كل ما سمعته عنه.

- كلا، لا يبدو ذلك محتملاً كثيراً.

- لقد قال لجينا شيئاً مختلفاً تماماً... بعض السخافات حول كونه حقاً وريث عرش روسيا! قال إنه ابن دوق كبير. يا إلهي! ألا يعرف من يكون أباه.

- أحسبه لا يدري، وربما كانت تلك هي المشكلة.

جلس وولتر بجانبها رامياً جسمه على المقعد، ثم أعاد عبارته الأولى: "كلهم هنا مجانين"!

سألته الآنسة ماربل: ألا تحب الإقامة في ستوني غيتس؟

تجهم وجه الشاب وقال: إنني -ببساطة- لا أفهم شيئاً، هذا كل ما الأمر! لا أفهم. انظري إلى هذا المكان... التركيبة كلها... إنهم أغنياء لا يحتاجون مالاً، فلديهم منه الكثير. ولكن انظري إلى الطريقة التي يعيشون بها... أوانٍ صينية متصدعة أثرية تختلط بأوانٍ رخيصة بشعة. لا يوجد هنا خدم مناسبون كخدم الطبقات العليا، مجرد استئجار بعض الخدمات المؤقتة بين الحين والآخر. المفروشات والستائر وأغطية الكراسي كلها من الساتان وغيره من الأقمشة الرديئة، وهي تتمزق كل مُمزَّق! أباريق شاي فضية ضخمة صفراء صدئة من قلة التنظيف والعناية. والسيدة سيروكولد لا تهتم بشيء! انظري إلى الثوب الذي ارتدته ليلة أمس... مفتوق تحت ذراعيها، ويكاد يكون مهترئاً، ومع ذلك فبوسعها أن تذهب إلى محل وتطلب ما تشاء، في شارع بوند أو أي مكان آخر. أهو المال؟ إنهم يملكون منه الكثير.

صمت قليلاً وجلس يدرس أفكاره، ثم قال: أنا أفهم أن يكون المرء فقيراً. ليس من عيبٍ كبير في ذلك إن كان المرء شاباً وقوياً ومستعداً للعمل. أنا لم أمتلك أبداً مالاً كثيراً، ولكنني كنت مستعداً تماماً للعمل للوصول إلى ما أريد. كنت أريد فتح ورشة لإصلاح السيارات. جمعت بعض المال، وتحدثت مع جينا في الأمر، وقد أصغت إليّ وبدا أنها تفهمني. لم أكن أعرف كثيراً عنها. كل أولئك الفتيات في الملابس العسكرية متشابهات، أعني أنك لا تستطيعين أن تعرفي -من النظر إليهن- مَن منهن لديها مال ومَن منهن بدون مال. كنت قد ظننت أنها أعلى مني درجة، ربما نتيجة التعليم... ولكن لم يبدُ ذلك أمراً مهماً. وقعنا في الحب كلانا، ثم تزوجنا. كان لديّ مبلغ من المال وفرته، وكان لدى جينا بعض المال أيضاً كما أخبرتْني. كنا نريد أن نؤسس محطة وقود عند عودتنا إلى الوطن، وبدت جينا راغبة في ذلك. كنا مجرد طفلين أبلهين جُنّ أحدهما حباً بالآخر. بعد ذلك بدأت خالةُ جينا المتعجرفةُ تلك بإثارة المشاكل... وأرادت جينا أن تأتي إلى هنا، إلى إنكلترا، لرؤية جدتها. حسناً، بدا ذلك أمراً طبيعياً ومشروعاً تماماً؛ فقد كان هذا هو وطنها، وكنت أنا تواقاً لرؤية إنكلترا على أية حال. لقد سمعت الكثير عنها، وهكذا جئنا. مجرد زيارة، هذا ما ظننته.

ازدادت تقطيبة وجهه لتصبح عبوساً، ومضى قائلاً: ولكن الأمور لم تجرِ على هذا النحو، فقد عَلِقنا في هذا الجو المجنون. ويقولون لنا: لماذا لا تبقون هنا، وتجعلون هذا وطنكم؟ يوجد

الكثير من الوظائف لي... وظائف! إنني لا أريد وظيفة أطعِم فيها فتيان العصابات الحلوى وأساعدهم في لعب الأطفال.. ما معنى هذا كله؟ إن هذا المكان يمكن أن يكون رائعاً، رائعاً بالفعل. ألا يقدّر الناس الذين يملكون المال مقدارَ حظهم؟ ألا يدركون بأن معظم الناس لا يستطيعون امتلاك مكان رائع كهذا فيما هم يمتلكون هذا المنزل؟ أليس من الجنون المطبق أن ترفس حظك عندما يأتيك؟ أنا لا أرى بأساً في العمل إن كان المرء مضطراً. ولكنني سأعمل بالطريقة التي أريدها وبالعمل الذي أريده. وسأعمل للوصول إلى هدف محدد. إن هذا المكان يشعرني وكأنني قد علقت بشبكة عنكبوت. وجينا... لا أستطيع فهم جينا. إنها ليست الفتاة التي تزوجتها هناك في أمريكا. إنني لا أستطيع. لا أستطيع فهم أي شيء! بل لا أستطيع التكلم معها الآن. تباً!

قالت الآنسة ماربل بلطف: أنا أفهم تماماً وجهة نظرك.

رماها وولتر بنظرة سريعة ثم قال: أنت الشخص الوحيد الذي فتحت فمي أمامه وتكلمت معه حتى الآن. إنني أصمُت معظم الوقت كالأخرس. لا أدري ما هو الشيء الذي فيكِ والذي جعلني أتكلم! أنت إنكليزية تماماً. بكل ما في الكلمة، ولكنك تذكّرينني - بطريقة ما- بعمتي بيسي هناك في أمريكا.

الآنسة ماربل: ذلك رائع جداً.

استمر وولتر يقول متأملاً: إن لديها عقلاً راجحاً. تبدو من الضعف بحيث يخيلُ إليك أن بوسعك كسرها إلى نصفين، ولكنها

كانت قوية عملياً. نعم... أشهد أنها كانت قوية.

ثم نهض قائلاً: أنا آسف على الحديث معك بهذه الطريقة.

لأول مرة رأته الآنسة ماربل يبتسم. كانت ابتسامة جذابة جداً، وتحول وولتر هَدْ فجأة من شاب متجهم فظيع إلى شاب وسيم يتمتع بالجاذبية. أضاف قائلاً: أعتقد أنني اضطررت للتنفيس عما في صدري، ولكن الأمر السيء هو أنني اخترتك أنت لذلك.

قالت الآنسة ماربل: لا تقل هذا يا فتاي العزيز. إن لي ابنَ أخت أنا أيضاً، إلاّ أنه بالطبع أكبر منك بكثير.

وذهب ذهنها -للحظاتٍ- للتفكير في الكاتب العصري المتطور ريموند ويست، ابن أختها، ولم يكن من مجال لتخيل تناقض أكبر من تناقضه مع شخصية وولتر هَدْ.

قال وولتر: ها قد أتتك رفقة أخرى. تلك السيدة لا تحبني، ولذلك سأنصرف. إلى اللقاء يا سيدتي، وشكراً على الحديث.

ومشى بعيداً بينما راقبت الآنسة ماربل ميلدريد وهي تتقدم عبر المرج الأخضر للانضمام إليها.

* * *

قالت ميلدريد بعدما جلست على المقعد وهي تلهث بعض الشيء: أرى أنك ابتليت بذلك الشاب الفظيع. أية مأساة تلك!

- زواج جينا، كان كل ذلك نتيجة إرسالها إلى أمريكا. لقد قلت لوالدتي -في ذلك الحين- إن هذا القرار كان أبعد ما يكون عن الحكمة، فهذه مقاطعة هادئة تماماً، حتى إننا لم نكن نتعرض لأية غارات هنا. إنني أكره كثيراً الطريقة التي يستسلم بها الكثير من الناس للذعر والخوف على عائلاتهم، وعلى أنفسهم أيضاً في أغلب الأحيان.

قالت الآنسة ماربل وهي تتأمل: لا بد أن من الصعب على المرء أن يقرر ما هو التصرف الصحيح، أعني عندما يتعلق الأمر بالأطفال. فمع وجود احتمالات غزو ممكن، كان يوجد احتمال تربيتهم في ظل نظام ألماني، بالإضافة إلى خطر القنابل.

ميلدريد: كل ذلك كان هراء. لم يراودني أبداً أدنى شك بأننا سننتصر، ولكن أمي كانت دوماً غير عقلانية إذا تعلق الأمر بجينا. كانت الطفلة تُدلل وتفسد بكل طريقة. لم يكن من داع أبداً لأخذها من إيطاليا في المقام الأول.

- إن أباها لم يُبدِ أي اعتراض كما فهمت، أليس كذلك؟

- أوه، سان سيفيريانو! أنت تعرفين طبيعة الإيطاليين؛ لا يهمهم شيء غير المال. وهو كان قد تزوج بيبا من أجل مالها بالطبع.

- يا إلهي! وأنا التي كنت أعتقد دوماً أنه كان متعلقاً بها كثيراً وأنه جزع تماماً لموتها أشد الجزع.

- لقد تظاهر بالجزع دون شك. لا أستطيع أن أفهم كيف شجعت أمي زواجها بأجنبي. أحسب أن ذلك نابع من الهوس الأمريكي المعتاد بالألقاب.

قالت الآنسة ماربل بهدوء: لقد اعتقدت دوماً بأن العزيزة كاري لويز كانت أبعد ما تكون عن زخارف الدنيا في موقفها من الحياة.

ميلدريد: أوه، إنني أعرف ذلك، ولا أطيق عليه صبراً. أنت لا تستطيعين -يا عمة جين- أن تتصوري بِدَع أمي ونزواتها ومشاريعها المثالية وما الذي كان يعنيه كل ذلك. إنني أتكلم عن معرفة طبعاً؛ فقد نشأت في وسط كل ذلك.

وقع تعبير «العمة جين» على أذن الآنسة ماربل مسبباً شيئاً من الصدمة الخفيفة لها، لكن ذلك كان هو التقليد في تلك الأيام، فهدايا الأعياد التي كانت ترسلها لأطفال كاري لويز كانت تكتب عليها دوماً "مع حب العمة جين"، وقد كانوا يفكرون فيها باعتبارها «العمة جين»، هذا عندما كانوا يفكرون فيها أساساً، وهو الأمر الذي افترضت الآنسة ماربل أنه لم يكن كثير الحدوث.

نظرت بتأمل إلى المرأة الكهلة الجالسة إلى جانبها، إلى الفم المزموم بشدة، والخطوط العميقة من قبل الأنف نزولاً، وإلى الكفين المطبقين بإحكام على بعضهما البعض، ثم قالت بلطف: لابد أنك عشت... طفولة صعبة.

توجهت ميلدريد بعينيها المتلهفتين الممتنتين وقالت: أوه، إنني سعيدة جداً إذ وجدت أحداً يقدّر ذلك. الناس لا يدرون حقاً ما يتعرض له الأطفال. لقد كانت بيبا -كما تعلمين- هي الطفلة الجميلة. كانت أكبر مني أيضاً، وكانت دوماً محط الانتباه والعناية. والدي ووالدتي كلاهما شجعاها على أن تفرض نفسها وتتباهى رغم أنها لم تكن بحاجة إلى أي تشجيع في هذا الصدد. وكنت أنا دوماً الطفلة الهادئة. كنت خجولة، فيما لم تكن بيبا تعرف ما هو الخجل. يمكن لطفل أن يعاني كثيراً يا عمة جين.

- نعم، أعرف ذلك.

- "ميلدريد غبية جداً"... هذا ما كانت بيبا تقوله دوماً. ولكنني كنت أصغر منها، ومن الطبيعي أن لا يُتوقع مني أن أجاريها في الدروس. إن من الظلم الفادح لطفلة أن توضع أختها دوماً أمامها.. كان الناس يقولون لأمي: "يا لهذه الطفلة الرائعة!" ولكنهم لم ينتبهوا لي أبداً. وكانت بيبا هي التي اعتاد أبي أن يمزح ويلعب معها. كان ينبغي على شخص ما أن يدرك قسوة ذلك علي. كل الانتباه والعناية كانت تنصرف إليها، ولم أكن كبيرة بما فيه الكفاية لأدرك بأن العبرة تكمن في الشخصية.

ارتجفت شفتاها، ثم تصلبت ثانية، ومضت قائلة: وقد كان ذلك ظلماً، ظلماً حقيقياً. كنت ابنتهما الحقيقية، ولم تكن بيبا سوى ابنة بالتبني. كنت أنا طفلة البيت، فيما كانت هي ... لاشيء.

- ربما كانوا يبالغون في دلالها لهذا السبب بالذات.

- بل لقد أحباها أكثر مني، وهي الطفلة التي لم يردها أبواها الحقيقيان، أو التي كانت -على الأغلب- غير شرعية.

وصمتت قليلاً ثم تابعت: وقد برزت تلك الخصال في جينا، أليس يُقال إن «العرق دساس» ؟ وهنا عرق سيء. يستطيع لويس أن يتبنى ما يشاء من النظريات حول البيئة وتأثيراتها، ولكن العرق دساس. انظري إلى جينا مثلاً.

- جينا فتاة لطيفة جداً.

- ولكن ليس بسلوكها. الجميع -ما عدا أمي- يلاحظون كيف تتغازل مع ستيفن ريستاريك. أمر مقرف تماماً... هكذا أسميه. صحيح أنها أقدمت على زواج مؤسف جداً، ولكن الزواج زواج، وعلى المرء أن يكون مستعداً للالتزام به. وهي التي اختارت -في نهاية المطاف- أن تتزوج ذلك الشاب الفظيع.

- أهو فظيع إلى هذا الحد؟

- أوه أيتها العمة العزيزة جين. إنه يبدو لي -بالفعل- وكأنه رجل عصابات حقيقي، وهو في غاية النكد والوقاحة. إنه لا يكاد يفتح فمه، ويبدو دوماً أحرق غراً.

قالت الآنسة ماربل بلطف: أعتقد أنه تعيس.

- لا أعرف حقاً سبباً يدعو لتعاسته، أعني ما عدا سلوك

جينا. لقد هُيئ كل شيء له هنا. وقد اقترح لويس عدة طرق يمكنه بها أن يؤدي عملاً مفيداً، ولكنه يفضل أن يتسكع دون عمل.

ثم انفجرت قائلة: آه، إن هذا البيت لا يُحتمل.. لا يحتمل أبداً. لويس لا يفكر إلاّ بهؤلاء المجرمين الشباب المخيفين، وأمي لا تفكر إلاّ فيه. كل ما يفعله لويس صحيح. انظري إلى حال الحديقة، والأعشاب الضارة، وهذا النمو الزائد. والبيت، ليس فيه شيء يُنجز بشكل صحيح. أوه، أنا أعرف أن الحصول على طاقم خدم مسألة صعبة هذه الأيام، ولكن يمكن الحصول على طاقم. وليس ذلك كله بسبب أي نقص في الأموال، بل لمجرد أن أحداً لا يهتم. لو كان هذا بيتي أنا...

ثم توقفت، فقالت الآنسة ماربل: أخشى أن علينا -جميعاً- أن نواجه حقيقة أن الظروف قد تغيرت. هذه المباني الضخمة تشكل مشكلة كبرى. لابد أنه كان مُحزناً لك -نوعاً ما- أن تعودي لتجدي كل شيء مختلفاً. هل تفضلين العيش هنا على العيش في بيت خاص بك؟

توردت وجنتا ميلدريد وقالت: إن هذا هو بيتي في نهاية المطاف. كان بيت والدي، وما من شيء يستطيع تغيير ذلك. إن لي حقاً في العيش هنا إن اخترت ذلك، وقد اخترت ذلك بالفعل. فقط لو أن أمي لم تكن صعبة الطباع إلى هذا الحد! إنها لا تقبل حتى شراء ملابس مناسبة لنفسها. إن ذلك يقلق جولي كثيراً.

الآنسة ماربل: كنت بصدد سؤالك عن الآنسة جولي.

- يا للارتياح الذي يحققه وجودها هنا! إنها تحب أمي كثيراً، وقد رافقتها منذ أمد بعيد، فقد جاءت في زمن جون ريستاريك. وأعتقد أنها كانت رائعة خلال تلك المشكلة المحزنة كلها. أظنك قد سمعت بأنه هرب مع امرأة يوغسلافية فظيعة، مخلوقة مشردة إلى أبعد الحدود، وقد تصرفت والدتي بكل هدوء وجلال عبر تلك المحنة كلها. انفصلت عنه بأهدأ شكل ممكن، بل بلغ بها الأمر أن استقبلت أولاده خلال عطلاتهم، ولم يكن هذا أمراً ضرورياً على الإطلاق، إذ كان بالإمكان القيام بترتيبات أخرى. لم يكن وارداً -بالطبع- أن يُترك الأولاد ليذهبوا إلى أبيهم وإلى تلك المرأة. على كل حال، استضافتهم أمي هنا. وقد وقفت الآنسة بيليفر إلى جانب والدتي خلال كل تلك المحن، وكانت طوداً شامخاً صلباً. إنني أعتقد -أحياناً- أنها جعلت أمي تغدو أكثر ضبابية وبعداً عن الواقع، وذلك نتيجة لقيامها بكل الأمور العملية بنفسها، ولكن لا أدري ماذا كانت أمي ستفعل بدونها!

توقفت، ثم قالت بنبرة فيها بعض الدهشة: ها هو لويس.. يا للغرابة! إنه نادراً ما يخرج إلى الحديقة.

تقدم السيد سيروكولد نحوهما بنفس أسلوبه الذي يعتمده في كل شيء والمتميز بالتركيز على أمرٍ واحد فقط لا يرى غيره. بدا أنه لا يلاحظ وجود ميلدريد لأن الآنسة ماربل كانت الوحيدة في ذهنه. قال يخاطبها: إنني آسف جداً. لقد أردت أن آخذك في جولة في مؤسستنا لتري كل شيء. كاري طلبتْ مني ذلك، ولكنني -لسوء الحظ- مضطر للسّفر إلى ليفربول بسبب قضية

ذلك الصبي ومكتب طرود السكك الحديدية. سيصحبك مافيريك في تلك الجولة، وسيكون هنا بعد دقائق، أما أنا فلن أعود حتى بعد غد... سيكون أمراً رائعاً إن استطعنا إقناعهم بعدم تقديمه للمحكمة.

نهضت ميلدريد وذهبت، ولم يلاحظ لويس سيروكولد ذهابها. كانت عيناه الحادتان تحدقان بالآنسة ماربل من خلال نظّارته السميكة، ومضى قائلاً: تعلمين أن القضاة يتبنون دوماً تقريباً وجهة نظر خاطئة. يكونون أحياناً بالغي القسوة، ولكنهم يكونون أحياناً بالغي الرأفة أيضاً. وإن حُكم على هؤلاء الصبية بأحكام لا تتجاوز بضعة أشهر فإنها لا تكون رادعة لهم، بل ربما يشعرون بنوع من الإثارة ويتباهون بذلك أمام صديقاتهم. ولكن حكماً قاسياً غالباً ما يجعلهم أكثر رزانة ورصانة، إذ يدركون بأن اللعبة لا تساوي تعبها. أو أن من الأفضل عدم قضائهم فترة سجن على الإطلاق، والاستعاضة عن ذلك بالتدريب الإصلاحي أو التدريب البنّاء كما نفعل هنا...

قاطعته الآنسة ماربل قائلة: سيد سيروكولد، أأنت مقتنع تماماً بحالة السيد لاوسن؟ أهو... أهو طبيعي تماماً؟

ظهر تعبير امتعاض على وجه لويس سيروكولد وقال: آمل أن لا يكون قد انتكس. ما الذي كان يقوله؟

الآنسة ماربل: قال لي إنه ابن ونستون تشرتشل!

السير سيروكولد: طبعاً، طبعاً.. تصريحاته المعتادة. لقد

كان طفلاً غير شرعي، وربما تكونين قد خمنت ذلك. إنه ولد مسكين، وذو جذور متواضعة جداً. ولقد جاءني بتزكية من إحدى الجمعيات في لندن، حيث كان قد اعتدى على رجل في الشارع بحجة أنه كان يتجسس عليه، وهو تصرف نموذجي في مثل حالته (كما سيخبرك الدكتور مافيريك). درستُ سيرته المرَضية... كانت والدته من طبقة فقيرة في بلايموث، وكان أبوه بحاراً التقى صدفة بأمه، حتى أنها لا تعرف اسمه! طفل رُبي في ظروف صعبة، ثم بدأ يلفق القصص حول أبيه ثم حول نفسه لاحقاً.

كان يرتدي بذلات عسكرية ويضع نياشين لا يحق له وضعها، وكان كل ذلك من الأعراض النموذجية لحالة كحالته. ولكن مافيريك يقدّر أن تطور حالته تبشر بخير، ذلك إن استطعنا أن نمنحه ثقة بنفسه. لقد أعطيته مسؤولية هنا؛ حاولت أن أجعله يدرك بأن العبرة ليست في أصل الرجل ومنبته بل في شخصه وما هو عليه. حاولت أن أمنحه الثقة بقدراته الخاصة، وقد كان التحسن ملحوظاً، وكنت سعيداً جداً به. والآن تخبرينني بأنه...

توقف وهز رأسه أسفاً. وسألت الآنسة ماربل: ألا يُحتمل أن يكون خطيراً يا سيد سيروكولد؟

- «خطيراً»؟ لا أعتقد أنه أبدى أية ميول انتحارية.

- ليس الانتحار ما أعنيه... لقد حدثني عن أعداء وعن اضطهاد يتعرض له. اعذرني، ولكن أليس هذا مؤشراً خطيراً؟

قال: لا أعتقد -حقاً- بأن الأمر وصل إلى هذا المستوى،

ولكنني سأكلم مافيريك. لقد كانت حالته -حتى الآن- تبشر بخير... تبشر بكل خير.

نظر إلى ساعته ثم قال: عليَّ أن أذهب. آه، ها هي عزيزتنا جولي. ستتولى هي مسؤوليتك.

قالت الآنسة بيليفر وهي تقترب برشاقة وخفة: السيارة واقفة بالباب يا سيد سيروكولد. وقد اتصل الدكتور مافيريك من المعهد، وقلت له إنني سآخذ الآنسة ماربل إليه هناك، سينتظرنا عند البوابة.

السيد سيروكولد: شكراً لك. عليّ أن أذهب، أين حقيبتي؟

الآنسة بيليفر: إنها في السيارة يا سيد سيروكولد.

أسرع السيد سيروكولد مبتعداً، وقالت الآنسة بيليفر وهي تشيعه بنظراتها: في يومٍ ما سيقع هذا الرجل ميتاً في مكانه. إنه لمما ينافي الطبيعة البشرية أن لا يرتاح المرء؛ وإنه لا ينام إلاّ أربع ساعات في الليلة.

- إنه يكرس نفسه بشغف لقضيته.

- إنه لا يفكر أبداً في أي شيء آخر، ولا يحس بضرورة رعاية زوجته أو العناية بها بأي شكل. إنها مخلوقة رقيقة -كما تعلمين يا آنسة ماربل- وينبغي أن تلقى حباً وعناية. ولكن شيئاً في هذا البيت لا يلقى اهتماماً أو رعاية إلاّ هذا الجمع من الصبية المتذمرين النائحين الذين يريدون العيش برفاهية وبشكل غير

شريف ولا يلقون بالاً لفكرة القيام بشيء من الجهد والعمل. لماذا لا نفكر في الصبية الشرفاء المتحدرين من بيوت شريفة متواضعة؟ لماذا لا يقوم أحد بشيء من أجلهم؟ أكلُّ ما في الأمر أن النزاهة ليست مما يثير اهتمام مهووسين من طراز السيد سيروكولد والدكتور مافيريك وكل العصبة الآخرين من أنصاف المتحمسين العاطفيين ممن يقيمون هنا. لقد نشأت أنا وإخوتي نشأة صعبة يا آنسة ماربل، ومع ذلك لم يكن يُسمح لنا بالتذمر والنوح. عالم هش رخو... هذا هو شأن العالم في هذه الأيام!

كانتا قد اجتازتا الحديقة وعبرتا من بوابة السياج، واقتربتا من البوابة المقوَّسة التي رقَّمها أيريك غولبراندسن من قبلُ لتصبح مدخلاً للكلّية التي أنشأها، وهي مبنى شنيع من الآجر الأحمر.

خرج الدكتور مافيريك لاستقبالهما، وقد بدا هو نفسه (كما اقتنعت الآنسة ماربل) شاذاً بشكل واضح. قال: شكراً لك يا آنسة بيليفر. والآن يا آنسة... آه! نعم، الآنسة ماربل، أنا واثق أنك ستجدين عملنا هنا مثيراً وأنك ستعجبين بطريقتنا الرائعة. إن السيد سيروكولد رجل ذو بصيرة ورؤية عظيمة. ويقف وراءنا في ذلك السير جون ستيلويل، رئيسي السابق. كان يعمل في وزارة الداخلية حتى أحيل إلى التقاعد، وقد كان نفوذه عاملاً حاسماً في الشروع بهذا العمل. إنها مشكلة طبية، وهذا ما نسعى إلى حمل السلطات القانونية على فهمه. لقد تكرس الاعتراف بالطب النفسي أثناء الحرب، وهو الأمر الإيجابي الوحيد الذي نتج عن الحرب. والآن أريدك أن تري بداية تناولنا للمشكلة.

انظري إلى الأعلى.

نظرت الآنسة ماربل إلى الأعلى لترى الكلمات التي حُفرت على القوس فوق المدخل الضخم: "استعيدوا الأمل... أنتم يا مَن تدخلون هنا".

قال الدكتور مافيريك: أليس هذا رائعاً؟ أليست هذه حقاً الملاحظة الصحيحة التي تنبغي إثارتها؟ ليس المطلوب توبيخ هؤلاء الصبية أو معاقبتهم لأن ذلك هو ما يسعون إليه بلهفة أغلب وقتهم، أعني العقاب. نريد أن نجعلهم يحسون بمدى قيمتهم.

الآنسة ماربل: مثل إدغار لاوسن؟

الدكتور مافيريك: إنه قضية ممتعة. هل تحدثت إليه؟

- بل هو الذي تحدث إلي. ألا ترى أنه ربما كان مجنوناً بعض الشيء؟

ضحك الدكتور مافيريك بابتهاج وقال وهو يدعوها للدخول: كلنا مجانين يا سيدتي العزيزة، وهذا هو سر الوجود... كلنا مجانين بعض الشيء.

* * *

الفصل السادس

كان يوماً متعباً بشكل عام. وفكرت الآنسة ماربل: "إن الحماسة بحد ذاتها يمكن أن تكون أمراً مرهقاً جداً".

انتابها شعور غامض بعدم الرضا عن نفسها وعن ردود أفعالها. كان في المنزل نمط تجري عليه الأمور، بل ربما عدة أنماط، ومع ذلك فإنها لم تستطع رؤية لمحة واضحة لهذا النمط أو تلك الأنماط. وقد تركز كل قلق غامض أحست به حول شخصية إدغار لاوسن المثيرة للشفقة رغم غموضها... لو أنها -فقط- تستطيع أن تعثر في ذاكرتها على النظير المناسب له.

رفضت -جاهدةً- فكرةَ مقارنةِ إدغار بذلك الساعي شارد الذهن الذي كان يعمل على شاحنة السيد سبلكيرك، أو بتلك القضية الغريبة جداً حول الرداء الخفيف الداخلي.

كان في إدغار لاوسن أمرٌ شاذ لم تستطع أن تضع إصبعها عليه، أمر أبعد من الحقائق الملاحَظة والمعترَف بها. ولكن الآنسة ماربل لم تفهم أبداً كيف يمكن لذلك الشذوذ أو الخطأ في إدغار لاوسن -كائناً ما كان- أن يؤثر في صديقتها كاري

لويز؛ ففي ظل الأنماط المضطربة للحياة في ستوني غيتس تؤثر متاعب ورغبات الناس في بعضها البعض. ولكن أياً منها لا يؤثر في كاري لويز (بحدود رؤية الآنسة ماربل).

كاري لويز... أدركت الآنسة ماربل -فجأةً- بأنها هي وحدَها التي تستعمل هذا الاسم، ما عدا روث الغائبة الآن. فقد كان زوجها يدعوها كارولين، وكانت الآنسة بيليفر تدعوها كارا، وكان ستيفن ريستاريك يدعوها -عادة- مادونا. وكان وولي يدعوها -رسمياً- السيدة سيروكولد، بينما اختارت جينا مناداتها غرانداما، وهي كلمة منحوتة من كلمتين تعنيان السيدة العظيمة والجدَّة الأم.

أيمكن أن تكون أهميةٌ أو مغزىً ما في الأسماء المختلفة التي تم إيجادها لكارولين لويز سيروكولد؟ هل كانت بالنسبة لهم جميعاً مجرد رمز وليست شخصاً حقيقياً؟

في صباح اليوم التالي، عندما جاءت كاري لويز -وهي تجر رجليها قليلاً- وجلست على مقعد الحديقة قرب صديقتها وسألتها عما تفكر به، أجابت الآنسة ماربل بسرعة: أفكر بك يا كاري لويز.

- في أي شيء مني تفكرين؟

- أخبريني بصدق... هل من شيء يقلقك هنا؟

- «يقلقني»؟

فتحت المرأة عينين زرقاوين صافيتين مندهشتين وأضافت: وما الذي عساه يقلقني يا جين؟

- أغلبنا يملك قلقه ومخاوفه. أنا لديّ مخاوفي وهمومي... اليرقات المضرة بالنباتات مثلاً، وصعوبة رتق الألبسة الكتانية بشكل جيد، وعدم قدرتي على الحصول على سكر النبات لصنع حلويات الفاكهة... كثير من الأمور الصغيرة. يبدو من غير الطبيعي ألاّ تكون لديك هموم ومخاوف على الإطلاق.

- أحسب أن لديّ منها دون شك.. لويس يعملُ بلا كلل ولا ملل، وستيفن ينسى وجبات طعامه وهو يكدح في المسرح، وجينا نزقة متقلبة، ولكنني لم أكن -قط- قادرة على تغيير الناس، ولست أرى كيف بوسعك أن تغيريهم. ولذلك فليس من حكمة في القلق، أليس كذلك؟

- ميلدريد ليست سعيدة جداً أيضاً، أليس كذلك؟

- أوه، كلا، ميلدريد لا تسعدُ أبداً. وهي لم تكن سعيدة عندما كانت طفلة. على العكس تماماً من بيبا التي كانت متألقة دوماً.

- ربما كان لدى ميلدريد أسباب لعدم سعادتها؟

أجابت كاري لويز بهدوء: بسبب الغيرة؟ نعم، ربما... ولكن الناس لا يحتاجون فعلاً لسبب حتى يشعروا بما يشعرون به. بل إنهم -ببساطة- خلقوا هكذا. ألا تظنين ذلك يا جين؟

وخطرت في ذهن الآنسة ماربل -بسرعة- صورة الآنسة مونكريف التي كانت تستعبدها أمٌ مستبدة عاجزة، وكانت الابنة المسكينة تتوق للسفر ورؤية العالم. واستعادت في ذهنها كيف فرحت قرية سينت ميري ميد عندما دفنت السيدة مونكريف في ساحة الكنيسة وغدت ابنتها حرة أخيراً ومعها دخلٌ لا بأس به. وكيف أن الآنسة مونكريف -وقد بدأت رحلاتها- لم تذهب أبعد من بلدة هيريس حيث مرت لزيارة واحدة «من أقدم صديقات أمها»... وهناك تأثرت كثيراً لبلوى عجوز موسوسة بالمرض إلى الحد الذي جعلها تلغي كل حجوزات سفرها وتتولى السكنى في دارة العجوز لكي تُضطهد من جديد وتنوء بالأعمال وتتشوق بحزن -مرة أخرى- إلى مباهج الدنيا. وفكرت الآنسة ماربل بأن قصة مونكريف تثبت رأي كاري لويز، فأجابتها: أظن أنك على حق يا كاري لويز.

- إن كوني خالية من الهموم يعود -في جزء منه- إلى جولي بالطبع. جولي العزيزة.. جاءت للعمل عندي عندما كنت أنا وجوني قد تزوجنا لتوِّنا، وكانت رائعة منذ البداية. إنها تعتني بي كما لو كنت طفلة أو عاجزة تماماً. إنها مستعدة لتعمل أي شيء من أجلي. أشعر أحياناً بالخجل التام. أعتقد حقاً بأن جولي مستعدة حتى لقتل شخص من أجلي يا جين. أليس قول ذلك أمراً فظيعاً؟

- إنها مخلصة كثيراً بالتأكيد.

ضحكت كاري لويز وقالت: إنها تغدو -أحياناً- ساخطة

جداً. تردني أن أشتري ملابس رائعة وأحيط نفسي بمظاهر الترف، وهي تعتقد أن على الجميع أن يضعوني في مقدمة اهتماماتهم ويقفوا لخدمتي طائعين. وهي الشخص الوحيد الذي لم يتأثر أبداً بحماسة لويس لمشروعه، فصبياننا المساكين كلهم -في نظرها- من الشباب المجرمين المدللين، ولا يستحقون أن ينصرف إليهم أي عناء. وهي تعتقد أن هذا البيت رطب وسيِّء بالنسبة لمرض الروماتيزم عندي، وأن عليَّ أن أذهب إلى مصر أو أي مكان آخر دافئ وجاف.

- هل تعانين كثيراً من الروماتيزم؟

- لقد تفاقم المرض مؤخراً لدي، وأجد صعوبة في المشي. تصيبُ ساقيَّ تشنجاتٌ رهيبة. آه، على كل، إن للعمر تبعاته!

وارتسمت ثانية على وجهها تلك الابتسامة الفاتنة الساحرة.

خرجت الآنسة بيليفر من الباب الزجاجي المفضي إلى الحديقة وأسرعت باتجاههما. ثم قالت: وصلتنا تواً برقية يا كارا.. أبلغونا إياها بالهاتف، تقول: "يصل بعد ظهر اليوم كريستيان غولبراندسن".

بدت كاري لويز مندهشة تماماً وقالت: كريستيان؟ لم أكن أعرف أنه في إنكلترا.

قالت الآنسة بيليفر: أظن أن علي أن أُعِدَّ جناح الغرف المبطنة بخشب البلوط؟

– نعم، رجاء يا جولي، وبذلك لن يضطر لاستعمال الدرج.

هزت الآنسة بيليفر رأسها موافقة وقفلت عائدة إلى المنزل.

كاري لويز: كريستيان غولبراندسن هو ابن زوجي السابق. إنه الابن الأكبر لإيريك، وهو أكبر مني بسنتين. إنه أحد القيِّمين على المعهد، بل هو القيِّم الرئيس عليه. كم هو مزعج أي يكون لويس غائباً، إذ أن كريستيان لا يكاد يبقى أكثر من ليلة و حدة هنا، فهو رجل غارق حتى أذنيه بالمشاغل والأعمال، ومن المؤكد أنه توجد أمور يريد الرجلان أن يناقشاها معاً.

وصل كريستيان غولبراندسن عصر ذلك اليوم في وقت تناول الشاي. كان رجلاً ضخماً ذا تقاسيم عريضة ثقيلة وطريقة في الكلام بطيئة ومنهجية، وقد حيّا كاري لويز بكل الحب والودّ قائلاً: وكيف هي حال عزيزتنا كاري لويز؟ لا يبدو عليك أنك كبرت يوماً واحداً، مجرد يوم.

ثم وقف ينظر إليها متبسّماً ويداه على كتفيها. وفجأة شدته يدٌ من كُمِّهِ: كريستيان!

التفت وقال: آه، ميلدريد، كيف حالك يا ميلدريد؟

– لم أكن أبداً على ما يرام مؤخراً.

– مع الأسف، هذا خبر سيء.

كان بين كريستيان غولبراندسن وأخته لأبيه ميلدريد شَبَه

كبير. كان بينهما فارق ثلاثين سنة تقريباً، وكان يمكن –بسهولة– أن يُنظر إليهما كوالد وابنته. وقد بدت ميلدريد نفسها مسرورة بشكل خاص بوصوله، فقد طغت عليها البهجة والحماسة وغلبت عليها الثرثرة، فمضت تتحدث بشكل متكرر –طوال النهار– عن «أخي» و «أخي كريستيان» و «أخي السيد غولبراندسن».

التفت غولبراندسن إلى جينا وقال: وكيف هي جينا الصغيرة؟ أما زلت هنا –إذن– أنت وزوجك؟

جينا: نعم، لقد استقررنا تماماً هنا، أليس كذلك يا وولي؟

وولي: هكذا يبدو.

بدت عينا كريستيان غولبراندسن الصغيرتان الحادتان وكأنهما تَزِنان وولي بسرعة، وقد بدا وولي كعادته كئيباً نكِداً غير ودود.

كريستيان: ها أنا ذا مع العائلة كلها مرة أخرى.

كان صوته يُظهر بشاشة وأريحية مقصودة، ولكن الآنسة ماربل فكرت بأنه –في الحقيقة– لم يكن يشعر بالبشاشة والأريحية بشكل خاص. كان في شفتيه شيء من التجهم، وفي أسلوبه وطريقةِ تصرفه ما ينم عن شاغل معين يشغله. وعندما تم تعريفه بالآنسة ماربل رماها بنظرة حادة نافذة وكأنه يزن ويقوّم هذه القادمة الجديدة.

كاري لويز: لم نكن نعرف أنك في إنكلترا يا كريستيان.

كريستيان: نعم، لقد جئت بشكل مفاجئ بعض الشيء.

- من المؤسف جداً أن لويس مسافر. كم ستبقى معنا هنا؟

- كنت أنوي المغادرة غداً. متى سيعود لويس؟

- غداً عصراً، أو في المساء.

- يبدو أن عليّ -إذن- أن أبقى لليلةٍ أخرى.

- لو أنك أخبرتنا فقط...

- يا عزيزتي كاري لويز، لقد تمت ترتيبات قدومي بشكل مفاجئ تماماً.

- هل تبقى لرؤية لويس؟

- نعم، من الضروري أن أراه.

كانت الآنسة بيليفر قد قالت للآنسة ماربل بأن كريستيان غولبراندسن والسيد سيروكولد كليهما من الأوصياء على «معهد غولبراندسن»، وأن الوصيين الآخرين هما أسقف كرومر والسيد غيلفروي. فالمفترض -إذن- أن حضور كريستيان كان لعمل يخص معهد غولبراندسن. وبدا أن الآنسة بيليفر تفترض ذلك شأنها شأن الباقين، ولكن الآنسة ماربل لم تطمئن لذلك.

لمرة أو مرتين وجه كريستيان العجوز نظرة تفكير حائرة إلى كاري لويز في وقت لم تكن فيه منتبهة له... نظرةً حيّرتْ صديقة كاري لويز التي كانت تراقب كل شيء. وقد حول نظرته

المتمعنة منها إلى الآخرين واحداً واحداً، يتفحصهم بنوع من التقويم الخفي الذي بدا غريباً بشكل خاص.

بعد تناول الشاي انسحبت الآنسة ماربل بحذق وكياسة من بين المجموعة وذهبت إلى المكتبة، ولكن ما فاجأها بعضَ الشيء -بعدما جلست وأخرجت الحياكة التي كانت تعمل بها- هو دخول كريستيان غولبراندسن وجلوسه بجانبها.

كريستيان: أعتقد أنك صديقة قديمة جداً لعزيزتنا كاري لويز، أليس كذلك؟

- كنا في مدرسة واحدة في إيطاليا يا سيد غولبراندسن، منذ أمد بعيد بعيد.

- آه! نعم. أأنت مغرمة بها؟

أجابته الآنسة ماربل بحرارة: نعم، بالفعل.

- وهذا شأن الجميع كما أعتقد. نعم، إنني أعتقد -حقاً- بأن الجميع يحبونها. ولا غرابة في ذلك؛ فهي امرأة فاتنة وعزيزة جداً. لقد كنا نحبها دوماً أنا وإخوتي منذ تزوجها والدي. كانت عندنا أختاً عزيزة غالية، وكانت زوجة مخلصة لوالدي ووفية لكل أفكاره. لم تكن تفكر أبداً في نفسها، بل كانت تضع مصلحة الآخرين في المقدمة.

الآنسة ماربل: لقد كانت دوماً مثالية.

- مثالية؟ نعم، نعم، هذا صحيح. ولذلك فربما لم تكن

تقدّر حقاً الشر الموجود في هذا العالم.

نظرت إليه الآنسة ماربل مندهشة. كان وجهه شديد الصرامة والعبوس. سأل: أخبريني، كيف هي صحتها؟

شعرت الآنسة ماربل بالدهشة مرة أخرى. قالت: تبدو لي في أحسن حال لولا التهاب المفاصل أو الروماتيزم.

– الروماتيزم؟ نعم. وقلبها؟ هل قلبها سليم؟

ازدادت دهشة الآنسة ماربل وقالت: نعم، حسب معلوماتي. ولكنني –حتى يوم أمس– لم أكن قد رأيتها منذ سنوات طويلة. إن أردت أن تعرف حالتها الصحية فعليك أن تسأل واحداً من سكان هذا المنزل، كالآنسة بيليفر مثلاً.

كريستيان: الآنسة بيليفر. نعم، الآنسة بيليفر، أو ميلدريد؟

الآنسة ماربل: «أو ميلدريد»... كما تقول.

شعرت الآنسة ماربل بعارض خفيف من الحرج، وكان كريستيان غولبراندسن يدقق في نظراته بإمعان شديد، ثم قال: ليست بين الأم والابنة عواطف كبرى، ما رأيك بذلك؟

– نعم، لا أعتقد بوجود مثل هذه العواطف.

– نعم، إنه لأمر مؤسف. ابنتها الوحيدة. ولكن هذا هو الوضع. حسناً، بالنسبة لهذه الآنسة بيليفر، أتعتقدين أنها متعلقة بكاري لويز بالفعل؟

الآنسة ماربل: نعم، جداً.

– وهل تعتمد كاري لويز على هذه الآنسة، بيليفر؟

– أعتقد ذلك.

كان كريستيان متجهماً، وقال كمن يحدث نفسه: عندنا الصغيرة جينا، ولكنها صغيرة جداً... أمر صعب!

ثم توقف وعاد ليقول بهدوء: من الصعب أحياناً أن يعرف المرء ما هو الخيار الأفضل الذي ينبغي القيام به. إنني حريص تماماً على ألاّ يصيب تلك السيدة العزيزة أي أذى أو تعاسة. ولكن الأمر ليس سهلاً، ليس سهلاً على الإطلاق.

في تلك اللحظة دخلت ميلدريد إلى الغرفة وقالت: آه، أنت هنا يا كريستيان... كنا نتساءل عن مكانك. يريد الدكتور مافيريك أن يعرف إن كنت تريد أن تراجع أي أمر معه.

كريستيان: أتعنين ذلك الدكتور الشاب الجديد؟ لا، لا... سأنتظر إلى أن يأتي لويس.

ميلدريد: إنه ينتظر في مكتب السيد لويس. هل أخبره؟

كريستيان: بل سأتبادل معه كلمتين شخصياً.

وأسرع كريستيان بالخروج. نظرت ميلدريد خلفه، ثم حدقت بالآنسة ماربل وقالت: إنني لأتساءل إن كانت توجد مشكلة ما. ليس أبداً كعهده... هل قال شيئاً؟

الآنسة ماربل: لقد سألني فقط عن صحة والدتك.

ميلدريد: صحتها؟ ولماذا يسألك عن ذلك؟

كانت ميلدريد تتحدث بحدة ووجهها الضخم المربع يتورد بشكل غير لائق.

الآنسة ماربل: إنني حقاً لا أدري.

قالت ميلدريد: "إن صحة أمي جيدة تماماً... بل جيدة إلى حد مدهش بالنسبة لامرأة في مثل عمرها، بل إنها أحسن من صحتي إذا لم أبالغ". ثم توقفت لحظة قبل أن تضيف: أرجو أن تكوني قد أخبرتِه بذلك؟

- إنني لا أعلم أي شيء عن الأمر. لقد سألني عن قلبها.

- قلبها؟

- نعم.

- ليس في قلب أمي مرض، لا شيء فيه مطلقاً!

- إنني سعيدة بأن أسمع منك ذلك يا عزيزتي.

- يا إلهي! من هو الذي أدخل مثل هذه الأفكار الغريبة في رأس كريستيان؟

الآنسة ماربل: لا أدري.

* * *

الفصل السابع

مضى اليوم التالي دون أية حوادث تذكر، ومع ذلك فقد بدت للآنسة ماربل علامات توتر داخلي. أمضى كريستيان غولبراندسن صباحه مع الدكتور مافيريك في التجول في المعهد وفي مناقشة النتائج العامة للسياسة المتبعة فيه. وفي وقت مبكر من عصر ذلك اليوم اصطحبته جينا في جولة بالسيارة، ولاحظت الآنسة ماربل بعد ذلك بأنه أقنع الآنسة بيليفر أن تريه شيئاً ما في حدائق المنزل. وبدا لها أن ذلك لم يكن إلاّ حجة لتأمين حديث خاص وجهاً لوجه مع تلك المرأة العبوس. وهنا أيضاً، إن كانت زيارة كريستيان المفاجئة لا علاقة لها إلاّ بالعمل فلماذا هذه الرغبة في صحبة الآنسة بيليفر، طالما أن الأخيرة لا تتدخل إلاّ في الجانب الخدمي المنزلي من ستوني غيتس؟

ولكن، في كل ذلك، كان بوسع الآنسة ماربل أن تقنع نفسها بأنها خيالاتها لا أساس لها. ولكن الحدث الوحيد المُقلق الذي حدث في ذلك اليوم كان في حوالي الساعة الرابعة عصراً. كانت قد لفّت عُدّة حياكتها وخرجت إلى الحديقة في جولة مشي قصيرة قبل موعد تناول الشاي. وإذ كانت تدور حول

شجرة وردٍ نمت وانتشرت دون اتساق وجدت أمامها إدغار لاوسن يمشي وهو يدمدم مع نفسه وقد أوشك أن يصطدم بها.

قال بسرعة: عفواً، أنا آسف.

ولكن الآنسة ماربل أحفلها التعبير الغريب الظاهر في عينيه المحدقتين، وسألته: هل تشعر بسوء يا سيد لاوسن؟

إدغار: حسناً؟ كيف لا أشعر بسوء؟ لقد تعرضت لصدمة.. صدمةٍ رهيبة!

الآنسة ماربل: صدمةٍ من أي نوع؟

نظر الشاب خلفها نظرة خاطفة، ثم أرسل نظرة قلق حادة إلى كل جانب، وقد أدى تصرفه هذا بالآنسة ماربل إلى أن تشعر بشيء من العصبية والقلق. وأخيراً نظر إليها بارتياب وقال: هل يستحسن أن أخبرك؟ لا أدري... إنني حقاً لا أدري. لقد كنتُ موضع مراقبة مشددة.

حزمت الآنسة ماربل أمرها، فأمسكت بذراعه بقوة وقالت: لماذا لا نمشي قليلاً في هذا الممشى؟ ليس فيه أشجار أو أغصان قريبة، فلا يمكن لأحد أن يسترق السمع علينا.

إدغار: نعم، نعم. أنت محقة.

سحب نَفَساً عميقاً، وأحنى رأسه وقال كلماته التالية بما يشبه الهمس: لقد كشفت شيئاً، كشفاً رهيباً.

وبدأ إدغار لاوسن يرتجف من رأسه حتى أخمص قدميه.

كان كلامه أقرب إلى النحيب: أن أثق بشخص ما! أن أصدقه... وكان الأمر كذباً، كذباً كله... كذباً يهدف إلى إبعادي عن كشف الحقيقة. لا أستطيع تحمل ذلك؛ إنه تصرف شرير جداً... لقد كان الشخص الوحيد الذي وثقت به، لأكتشف الآن أنه كان يقف خلف الأمر كله طوال الوقت. هو الذي كان عدوي، وهو الذي يقف خلف ملاحقتي والتجسس علي! ولكنه لن يستطيع أن يفلت بفعلته بعد الآن. لسوف أتكلم، وسأقول له بأنني أعرف ما كان يفعله.

الآنسة ماربل: ومن «هو» هذا؟

نهض إدغار منتصباً بكامل قامته. كان من شأنه أن يبدو مهيباً يدعو إلى التعاطف والشفقة، ولكنه لم يبدُ -عملياً- إلاّ سخيفاً. قال: إنني أتحدث عن والدي.

- الفيسكونت مونتغمري... أم تعني ونستن تشرتشل؟

رماها إدغار بنظرة ازدراء وقال: لقد جعلوني أظن ذلك، لمجرد إبعادي عن تخمين الحقيقة. ولكنني أعرف الآن... لقد حصلت على صديق، صديق حقيقي. صديق يخبرني بالحقيقة ويجعلني أدرك تماماً كيف تم خداعي. حسناً، إن على والدي أن يصفي حسابه معي... سأقذف أكاذيبه في وجهه! سأتحداه بالحقيقة. وسنرى ماذا سيكون جوابه على ذلك.

ثم توقف فجأة ومضى راكضاً ليختفي في الحديقة.

عادت الآنسة ماربل إلى المنزل متجهمة الوجه. تذكرت قول الدكتور ماقيريك: "كلنا مجانين بعض الشيء يا سيدتي العزيزة"... ولكن بدا لها أن الأمر في حالة إدغار قد مضى أبعد قليلاً من ذلك.

* * *

عاد لويس سيروكولد من سفره في السادسة والنصف مساءً. أوقف السيارة عند البوابة، ومشى عبر الحديقة إلى البيت. ورأت الآنسة ماربل -وهي تنظر من نافذتها- كريستيان يخرج لاستقباله، وبعد أن تبادل الرجلان التحيات دارا وبدآ يذرعان المصطبة الأمامية جيئة وذهاباً.

كانت الآنسة ماربل قد حرصت على أن تحضر معها منظارها الخاص بمراقبة الطيور، وقد وجدت له عملاً في هذه اللحظة. ترى هل كان سرب من الحَسَاسين يطير في أجمة الأشجار البعيدة تلك أم لم يكن؟

وعندما نزلت بالمنظار قليلاً، لاحظت بأن كلا الرجلين كانا يبدوان قلقين بشكل جدي. مدت الآنسة ماربل جسمها إلى الخارج قليلاً، ووصلتها بين الحين والآخر نتف من الحديث. ولو قدر لأي واحد منهما أن ينظر إلى الأعلى لبدا له واضحاً أن امرأة شديدة الولع بمراقبة الطيور تركز انتباهها على نقطة أبعد ما تكون عن حديثهما.

كان كريستيان يقول: كيف نوفر على كاري لويز معرفة...؟

وفي المرة التالية حين كانا يمران تحتها كان لويس هو الذي يتحدث: لو أمكن إخفاء الأمر عنها. أوافقك على أنها هي الشخص الذي ينبغي التفكير فيه...

ووصلت نتف باهتة أخرى للآنسة ماربل المصغية: «خطير بالفعل»... «غير مبرّر»... «مسؤولية كبيرة يصعب تحملها»... «ربما كان علينا أن نستعين بمشورة خارجية»...

وأخيراً سمعت الآنسة ماربل كريستيان غولبراندسن يقول: أح، لقد أصبح الجو بارداً... ينبغي أن ندخل.

أدخلت الآنسة ماربل رأسها من النافذة والحيرة ترتسم على محياها. كان ما سمعته أكثر تَشظّياً من أن يعاد جمعه وترتيبه بسهولة، ولكنه أفاد في تأكيد الخشية المبهمة التي كانت تتزايد تدريجياً في داخلها من وجود مشكلة ما، والتي كانت روث فان ريدوك واثقة تماماً من وجودها. كائناً ما كان الأمر الشاذ في منزل ستوني غيتس فإنه يؤثر -بالتأكيد- في كاري لويز.

* * *

كان العشاء في تلك الليلة وجبة متكلفة بعض الشيء كأمر لا بدّ منه. بدا كلٌّ من لويس وكريستيان شاردين غارقين في أفكارهما الخاصة، وقد حملق وولتر هَذْ أكثر من عادته، ولم يبدُ لدى جينا وستيفن -هذه المرة- كثير مما يقولانه. وكان

أكثر مَن حافظ على سير الحديث الدكتور مافيريك الذي دخل في نقاش طويل متخصص مع السيد بومغارتن، أحد مسؤولي العلاج عن طريق العمل.

وعندما انتقل الجميع إلى الصالة بعد العشاء اعتذر كريستيان مباشرة عن البقاء معهم قائلاً إن لديه رسالة هامة عليه أن يكتبها، وأضاف: ولذلك -إن كنت تسمحين لي يا عزيزتي كاري لويز- سأذهب الآن إلى غرفتي.

كاري لويز: ألديك هناك كل ما تحتاجه؟ جولي؟

كريستيان: نعم، نعم. كل شيء موجود. لقد طلبت آلة طابعة، وقد وُضعت واحدة في غرفتي. لقد كانت الآنسة بيليفر في منتهى اللطف واليقظة.

ثم غادر الصالة الكبرى من الباب الأيسر الذي يفضي بالخارج منه إلى مقدمة الدرج ثم إلى ممرّ ينتهي بجناح يضم غرفة نوم وحماماً. وعندما خرج قالت كاري لويز: ألن تنزلي إلى قاعة المسرح الليلة يا جينا؟

هزت الفتاة رأسها بالنفي، ثم مضت وجلست قرب النافذة المطلة على باحة المنزل والممشى الأمامي المفضي إليه. ألقى ستيفن نظرةً عليها ثم مشى إلى حيث البيانو الضخم فجلس إليه ثم داعب مفاتيحه برقة بالغة مصدراً لحناً صغيراً غريباً حزيناً. أما خبيرا العلاج عن طريق العمل (وهما السيدان بومغارتن وليسي) والدكتور مافيريك فقد تمنوا للحاضرين ليلة سعيدة وغادروا.

نقر وولي زرَّ مصباح القراءة فأضاء، وفي اللحظة ذاتها انطفأت نصف أضواء الصالة مع صوت طقطقة، فزمجر مغضباً وقال: هذا المفتاح السخيف عاطل دائماً... سأذهب وأضع فيوزاً جديداً.

غادر القاعة، وتمتمت كاري لويز قائلة: إن وولي بارع جداً بالأدوات الكهربائية والأمور المشابهة. هل تذكرين كيف أصلح آلة تحميص الخبز تلك؟

ميلدريد: يبدو أن ذلك هو كل ما يفعله هنا. أمي، هل تناولت شرابك المقوّي؟

بدت الآنسة بيليفر منزعجة، ثم قفزت قائلة: "أعترف أنني نسيت شرابها تماماً الليلة". ثم مضت إلى غرفة الطعام، وسرعان ما عادت حاملة كأساً صغيراً فيه سائل يميل لونه للحمرة قليلاً.

ابتسمت كاري لويز قليلاً، ومدت يداً طائعة، ثم قبضت وجهها اشمئزازاً وقالت: يا له من شراب فظيع، ومع ذلك لا يدعني أحد أنساه!

بعدها قال لويس فجأة على غير توقع: لا أظن أن عليك تناوله يا عزيزتي. لست واثقاً أنه يوافقك حقاً.

ثم أخذ الكأس من الآنسة بيليفر بهدوء، ولكن بتلك الطاقة المنضبطة التي كانت تبدو دوماً واضحة فيه، ووضعها على مائدة السنديان الضخمة.

قالت الآنسة بيليفر بحدة: "أنا لا أستطيع أن أتفق معك

في ذلك أبداً يا سيد سيروكولد، فلقد تحسنت صحة السيدة سيروكولد كثيراً من..."، ثم سكتت فجأة ودارت بحدة.

انفتح الباب الأمامي بدفعة قوية جعلته يرتطم ويتأرجح، ودخل إدغار لاوسن إلى الصالة الواسعة ضعيفة الإنارة بأسلوبِ ممثلٍ شهير يظهر على خشبة المسرح معلناً نجاحه. وقف في وسط الصالة، وأخذ في وقفته وضعاً معيناً مثيراً.

أوشك موقفه أن يكون سخيفاً، ولكنه لم يكن سخيفاً تماماً. قال بأسلوب مسرحي: وهكذا وجدتك، آه يا عدوّي!

قال ذلك للسيد لويس سيروكولد، الذي بدا مندهشاً قليلاً وقال: لماذا يا إدغار؟ ما هي القضية؟

إدغار: أنت من يقول لي ذلك... أنت؟! أنت تعرف ما هي القضية. لقد كنت تخدعني، وتتجسس عليّ، وتعمل مع أعدائي ضدي.

أمسك لويس بذراعه وقال: الآن هيا، هيا يا طفلي العزيز، لا تنفعل... أخبرني عن كل شيء بهدوء... تعال إلى مكتبي.

قاده عبْرَ الصالة، ثم عبَرَ باباً إلى اليمين أغلقه خلفه. بعد ذلك سُمع صوت آخر، صوت حاد لمفتاح أُدير في القفل. نظرت الآنسة بيليفر إلى الآنسة ماربل وقد خطرت في عقلهما الفكرة نفسها؛ وهي أن لويس سيروكولد لم يكن هو الذي أدار المفتاح.

قالت الآنسة بيليفر بحدة: ذلك الشاب يوشك أن يفقد

عقله باعتقادي... إنه أمر لا يُؤمَن له.

ميلدريد: إنه شاب مختل كلياً وجاحد تماماً لكل ما تم عمله من أجله، ينبغي عليك يا أمي أن تعترضي بقوة.

تمتمت كاري لويز مع زفرة خفيفة: ليس منه أذىً في الواقع. إنه مغرم بلويس، مغرم جداً به.

نظرت إليها الآنسة ماربل باستغراب، إذ لم يظهر أيُّ «غرام» في الطريقة التي واجه بها إدغار زوجَها لويس قبل دقائق، بل كانت تلك الطريقة أبعد ما تكون عن الغرام. وتساءلت -كما تساءلت من قبل- هل كانت كاري لويز تدير ظهرها للواقع بشكل متعمد؟

قالت جينا بحدة: كان في جيبه شيء ... أعني في جيب إدغار. كان يعبث به.

تمتم ستيفن وهو يرفع يديه عن مفاتيح البيانو: لو كنا في فيلم سينمائي لكان ذلك الشيء مسدساً بالتأكيد.

سعلت الآنسة ماربل وقالت كالمعتذرة: ظننتك تعرف... لقد كان ذلك مسدساً بالفعل.

من خلف الباب الموصد لمكتب لويس، كان يمكن تمييز أصوات الاثنين بوضوح. أما الآن فقد أصبحت تلك الأصوات فجأة مسموعة بشكل واضح. كان إدغار لاوسن يصرخ بينما حافظ صوت لويس سيروكولد على نبرته المعقولة الهادئة. كان

إدغار يصيح: كذب، كذب، كذب، كل شيء كاذب... أنت هو والدي، وأنا ابنك. لقد حرمتني من حقوقي. كان يفترض أن أملك أنا هذا المنزل. أنت تكرهني وتريد التخلص مني!

سُمعت همهمات تهدئة من لويس، ثم ارتفع الصوت الهستيري أعلى من السابق مطلقاً نعوتاً بذيئة. بدا أن إدغار يفقد بسرعة سيطرته على نفسه، وتناهت كلمات متفرقة بين الحين والآخر من لويس: "اهدأ... على رسلك... أنت تعرف أن كل ذلك غير صحيح".

ولكن تلك العبارات بدت غير قادرة على تهدئة إدغار، بل -على العكس- زادته هيجاناً. كان الجميع في الصالة صامتين جامدين، يصغون بانتباه إلى ما يجري خلف الباب الموصد لمكتب لويس.

صاح إدغار: سأجعلك تصغي إلي. سأنتزع ذلك التعبير المترفع عن وجهك. وأنا أقول لك إنني سأنتقم... سأنتقم لكل ما جعلتني أعاني منه.

تناهى الصوت الآخر جافاً مقتضباً، يختلف عن نبرات لويس العاطفية المعتادة: ضع ذلك المسدس جانباً!

صاحت جينا بحدة: سيقتله إدغار... إنه مجنون... ألا نستدعي الشرطة أو نفعلُ شيئاً؟

قالت كاري لويز بلطف وهي لم تزل على هدوئها: لا داعي

للقلق يا جينا. إن إدغار يحب لويس. إنه -فقط- يستعرض نفسه مسرحياً، هذا هو كل ما في الأمر.

انطلق صوت إدغار من خلف الباب في ضحكة لم تملك الآنسة ماربل إلاّ أن ترى فيها ضحكة جنون مؤكد.

- نعم... إن لديّ مسدساً، وهو محشو أيضاً. كلا... لا تتكلم، لا تتحرك، عليك أن تسمعني. أنت من بدأ هذه المؤامرة ضدي... والآن ستدفع ثمناً لها.

سُمع صوتٌ كأنه طلق ناري جعل الجميع يجفلون، ولكن كاري لويز قالت: لا شيء من هنا، إنه في الخارج... من مكان ما في الحديقة.

ومن خلف الباب الموصد كان إدغار يرغي بصوت صارخ عالٍ: إنك تجلس هناك ناظراً إليّ... تنظر إليّ متظاهراً بعدم الاهتمام. لماذا لا تركع على ركبتيك وتطلب الرأفة؟ سأطلق النار... إنني أحذرك. سأطلق النار وأقتلك! أنا ابنك... ابنك المحتقَر الذي لا تعترف به... أردت أن تخفيني بعيداً، بل ربما بعيداً عن هذا العالم كله، وضعت جواسيسك ليلاحقوني، ليقتفوا أثري كالكلاب، حكت ضدي الدسائس. أنت، والدي! إنني مجرد لقيط، أليس كذلك؟ مجرد لقيط. ما برحت تملأ رأسي بالأكاذيب متظاهراً باللطف معي. لن أدعك تعيش.

وتناهت مرة أخرى سلسلة من الكلمات البذيئة الفاحشة.

في وقت ما خلال هذا المشهد سمعت الآنسة ماربل الآنسة بيليفر تقول: "يجب أن نفعل شيئاً"، ثم غادرت الصالة.

بدا أن إدغار سكت قليلاً لاسترداد أنفاسه، ثم صرخ بعدها: إنك ستموت، ستموت الآن. خذ هذه أيها الشيطان... وهذه!

ودوّت طلقتان حادتان، ليس في الحديقة هذه المرة، بل خلف الباب الموصد بالتأكيد. صاح أحدهم (ظنته الآنسة ماربل ميلدريد): آه، يا إلهي! ماذا نفعل؟

سمع صوت خبطة ثقيلة من داخل الغرفة، ثم تناهى صوت يكاد يكون أشد فظاعة من الأصوات السابقة: كان صوت نشيج ثقيل بطيء. تقدم أحدهم متجاوز الآنسة ماربل وبدأ يهز الباب ويقرعه. كان ذلك ستيفن ريستاريك الذي صرخ: افتح الباب.. افتح الباب.

عادت الآنسة بيليفر إلى الصالة وفي يدها مجموعة مفاتيح وقالت بأنفاس متقطعة: جرب بعضاً من هذه المفاتيح.

في تلك اللحظة أضاءت المصابيح التي أطفأها التماس الكهربائي، وعادت الصالة ثانية إلى الحياة بعد ظلمتها المخيفة.

بدأ ستيفن ريستاريك بتجربة المفاتيح، وسمعوا رنين المفتاح الداخلي يقع على الأرض داخل الغرفة بينما كان ستيفن يجرب المفاتيح. وفي الداخل استمر ذلك النشيج العنيف اليائس. أما وولتر هَدْ العائد –بتكاسل– إلى الصالة فقد وقف باهتاً وسأل:

ما الذي يحدث هنا؟

أجابته ميلدريد والدموع في عينيها: ذلك الشاب المجنون الفظيع أطلق النار على السيد سيروكولد.

– رجاءً.

كانت المتكلمة كاري لويز، التي نهضت واقتربت من باب المكتب، ثم نحّت ستيفن جانباً بكل لطف قائلةً: دعني أكلمه. نادت برقّة بالغة: إدغار... إدغار. دعني أدخل، رجاء يا إدغار.

سمعوا صوت المفتاح يدخل في القفل، ثم دار فيه وانفتح الباب ببطء. ولكن من فتحه لم يكن إدغار، بل لويس سيروكولد. كان يتنفس بصعوبة كما لو أنه كان يركض، ولكنه –ما عدا ذلك– لم يكن متأثراً. قال: الأمر على ما يرام يا عزيزتي. الأمر تماماً على ما يرام.

قالت الآنسة بيليفر بجفاء: ظننا أن النار قد أطلقت عليك.

قطب لويس جبينه، ثم قال بشيء من الحدة والخشونة: بالطبع لم تُطلق عليَّ النار.

كانوا قادرين الآن على رؤية ما في المكتب. كان إدغار منهاراً قرب المكتب ينشج ويشهق، والمسدس ملقى على الأرض حيث سقط من يده.

ميلدريد: ولكننا سمعنا الطلقات.

السيد سيروكولد: آه! نعم، لقد أطلق طلقتين.

ميلدريد: وأخطأك؟

لويس سيروكولد: بالطبع أخطأني.

لم تعتبر الآنسة ماربل وجود أي داعٍ لاستعمال كلمة «بالطبع»؛ فما من شيء طبيعي في ذلك. لا بد أن الطلقات قد أطلقت من مدى قصير جداً.

قال لويس بعصبية: أين مافيريك؟ إنه الشخص الذي نحتاجه.

الآنسة بيليفر: سأناديه. هل أتصل بالشرطة أيضاً؟

لويس: الشرطة؟ كلا بالتأكيد.

ميلدريد: علينا بالطبع أن نتصل بالشرطة؛ إنه شاب خطير.

لويس: هراء... إنه فتى مسكين. هل يبدو خطيراً؟

في تلك اللحظة لم يكن إدغار يبدو خطيراً، بل بدا يافعاً مثيراً للشفقة وللاشمئزاز بعض الشيء. كان صوته قد فقد نبرته التي حرص على اكتسابها. ناح قائلاً: لم أقصد القيام بذلك. لا أدري ماذا أصابني لأقول كل ذلك الهراء... لا بد أنني جننت.

زفرت ميلدريد ازدراءً.

إدغار: لا بد أنني كنت حقاً مجنوناً. لم أقصد ذلك. رجاءً يا سيد سيروكولد... إنني حقاً لم أقصد ذلك.

ربت لويس سيروكولد على كتفه وقال: لا بأس يا ولدي. لم تقع أضرار.

إدغار: كان من الممكن أن أقتلك يا سيد سيروكولد.

مشى وولتر هَدْ عبر الغرفة وحدق في الجدار خلف المكتب ثم قال: "لقد وقعت الرصاصات هنا". ثم نزل ببصره إلى المكتب والكرسي الذي خلفه وقال بجفاء: لا بد أنه كان خطأ في الإصابة من مكان قريب.

إدغار: لقد فقدت عقلي... لم أكد أدرك حقيقة ما أفعله. ظننت أنه جردني من حقوقي. ظننت...

طرحت الآنسة ماربل السؤال التي كانت تريد طرحه منذ فترة: من الذي أخبرك بأن السيد سيروكولد هو أبوك؟

للحظة فقط أطلَّ من وجه إدغار الذاهل تعبير ماكر ما لبث أن اختفى بومضة عين. قال: لا أحد... لقد خطرت الفكرة لي فحسب.

كان وولتر هَدْ يحدق في المسدس الملقى على الأرض، ثم سأل: من أين حصلت على هذا المسدس بالله عليك؟

إدغار: "المسدس؟"... وحدق بالمسدس بدوره.

قال وولتر: "يبدو تماماً كمسدسي". ثم انحنى والتقطه وهو يقول: والله إنه هو! لقد أخذته من غرفتي أيها الجرذ القذر.

تدخّل سيروكولد بين إدغار المنكمش تذللاً والأمريكي الغاضب المرعد.

لويس سيروكولد: كل هذا يمكن أن نتفاهم حوله لاحقاً. آه، ها هو مافيريك. هل لك أن تلقي نظرة عليه يا مافيريك؟

اقترب الدكتور مافيريك من إدغار بشيء من أسلوب المحترفين وقال: هذا ليس مقبولاً يا إدغار... هذا ليس مقبولاً.

قالت ميلدريد بحدة: إنه مجنون خطير. لقد كان يطلق النار ويرغي ويزبد، ولقد كاد يقتل زوج أمي لولا أن أخطأه.

أصدر إدغار صوتاً خافتاً أشبه بالعواء، وقال الدكتور مافيريك مؤنباً: انتبهي رجاءً يا سيدة ستريت.

ميلدريد: لقد قرفت من كل هذا. قرفت من كل تصرفاتكم هنا! أقول لكم إن هذا الرجل جنون.

تخلص إدغار من الدكتور مافيريك بانحناءة ورمى بنفسه على الأرض عند قدمي سيروكولد نائحاً: ساعدني، ساعدني، لا تدعهم يأخذونني ويسجنونني. لا تدعهم...

وفكرت الآنسة ماربل بأنه مشهد كريه.

قالت ميلدريد بغضب: لقد قلت لكم إنه...

قاطعتها أمها مهدِّئة: رجاء يا ميلدريد، ليس الآن. إنه يعاني.

تمتم وولتر معقباً: يعاني الجنون... كلهم هنا مجانين!

الدكتور مافيريك: سأتولّاه أنا. تعال معي يا إدغار، تناول مهدئاً واذهب إلى فراشك وسنتحدث في الأمر كله غداً. إنك تثق بي، أليس كذلك؟

نهض إدغار على قدميه وهو يرتجف قليلاً، ثم نظر بارتياب إلى الدكتور الشاب ثم إلى ميلدريد وقال: لقد قالت بأنني مجنون.

الدكتور مافيريك: لا، لا، أنت لست مجنوناً.

تعالت أصوات خطوات الآنسة بيليفر عن عمد عبر الصالة. دخلت بشفتين مزمومتين معاً ووجه متورد وقالت بجفاء: لقد اتصلت بالشرطة، وسيصلون إلى هنا خلال بضع دقائق.

صاحت كاري لويز بنبرة غضب: جولي!

أطلق إدغار صوت عويل. وتجهم وجه لويس سيروكولد غاضباً وقال: لقد أخبرتك -يا جولي- بأنني لا أريد استدعاء الشرطة. هذه مسألة طبية.

الآنسة بيليفر: هذه مسألة فيها نظر، ولي فيها رأي خاص. ولكن كان عليَّ أن أستدعي الشرطة؛ فالسيد غولبراندسن مقتول بطلق ناري.

* * *

الفصل الثامن

مرت دقيقة أو دقيقتان قبل أن يستوعب الجميع ما قالته.

قالت كاري لويز بشك واستهجان: كريستيان أُطلقت عليه النار؟ وقُتل؟ آه! ذلك مستحيل بالتأكيد.

زمّت الآنسة بيليفر شفتيها وقالت تخاطب المجموعة كلها أكثر من خطابها لكاري لويز: إن كنتم لا تصدقونني فاذهبوا وانظروا بأم أعينكم.

كانت غاضبة، وقد تجلى غضبها في الحدة الحازمة في صوتها. وببطء وشك تقدمت كاري لويز خطوة باتجاه الباب، فاستوقفها لويس سيروكولد واضعاً يده على كتفها قائلاً: دعيني يا عزيزتي... دعيني أذهب أنا.

وخرج من باب الصالة، وتبعه الدكتور مافيريك وهو يلقي نظرة شك على إدغار، ومضت الآنسة بيليفر معهما.

حثت الآنسة ماربل -بلطف- صديقتها كاري لويز على الجلوس على كرسي، فجلست وعيناها تشعّان الألم وتعكسان هول المفاجأة، ورددت ثانية: كريستيان... مقتول؟!

كان في صوتها نبرة طفل مذعورة جريحة.

بقي وولتر هَدْ قريباً من إدغار لاوسن يحملق فيه، وفي يده المسدس الذي التقطه عن الأرض. وأخيراً قالت كاري لويز بصوت خائر: ولكن، من عساه يريد أن يطلق النار على كريستيان؟

لم يكن سؤالها من الأسئلة التي تتطلب جواباً.

تمتم وولتر من بين أسنانه: مجانين! كلهم مجانين.

كان ستيفن قد اقترب من جينا بشكل يوحي بالحماية. كان وجهها الفتي المذعور أكثر شيء مفعم بالحيوية في الغرفة.

وفجأة انفتح الباب الأمامي ودخل رجل بمعطف ضخم، ودخلت معه هبة من الهواء البارد. بدا وُدُّ سلامِهِ فظيعاً بشكل لا يصدق، قال: طاب مساؤكم جميعاً، ما الذي يجري الليلة؟ الضباب يلف الطريق، وقد اضطررت للسير ببطء قاتل.

مرت لحظة ذعرٍ ظنت الآنسة ماربل فيها أنها ترى بشكل مزدوج. لم يكن ممكناً -بالتأكيد- أن يكون الرجلُ نفسهُ واقفاً قرب جينا وداخلاً من الباب في آنٍ معاً. وبعدها أدركت أن الأمر لم يكن سوى تشابه، بل إنه لم يكن تشابهاً قوياً جداً إن أمعنت النظر فيه. بدا واضحاً أن الاثنين كانا شقيقين يحملان شبهاً عائلياً قوياً ليس أكثر من ذلك، ففي حين كان ستيفن ريستاريك نحيلاً إلى درجة الهزال كان القادم الجديد باديَ الصحة، وقد جاء المعطف الضخم بياقته المصنوعة من الفرو ليناسب امتلاء

الجسم على نحو أنيق. كان شاباً وسيماً، تلوح في شخصيته الهيبة وروح الدعابة اللتان تميزان الناجحين.

ولكن الآنسة ماربل لاحظت فيه شيئاً واحداً. فعندما دخل الصالة نظرت عيناه مباشرة إلى جينا. قال بشيء من الريبة: كنتم تتوقعون قدومي دون شك؟ ألم تستلموا برقيتي؟

كان يتكلم الآن مع كاري لويز، وقد تقدم منها. وبشكل يكاد يكون آلياً مدت يدها إليه، فتناولها وقبّلها برقة. كان ذلك تصرفاً رقيقاً من علامات الولاء ولم يكن مجرد مجاملة مسرحية. تمتمت قائلة: بالطبع يا عزيزي أليكس، بالطبع. كل ما الأمر أن... أن أموراً كانت تحدث...

أليكس: تحدث؟

روت ميلدريد النبأ، روته بنوع من التلذذ المقيت الذي اعتبرته الآنسة ماربل كريهاً. قالت: كريستيان غولبراندسن.. أخي كريستيان، وجدوه مقتولاً رمياً بالرصاص.

أليكس: يا إلهي!

عبرت قسمات أليكس عن رعب هائل، وأضاف قائلاً: هل تقصدين انتحاراً؟

تدخلت كاري لويز بسرعة قائلة: أوه، كلا. لا يمكن أن يكون انتحاراً. ليس كريستيان من ينتحر. أوه! كلا.

قالت جينا: العم كريستيان لم يكن ليطلق النار على نفسه. أنا واثقة من ذلك.

نظر أليكس ريستاريك من شخص لآخر، وتلقى من أخيه ستيفن إيماءة توكيد من رأسه. بادله وولتر هَذْ التحديق وفي عينيه شيء من الغضب. استقرت عينا أليكس على الآنسة ماربل مع تجهم مفاجئ؛ بدا وكأنه قد وجد قطعة ديكور غير مطلوبة بين ديكورات خشبة المسرح. بدا وكأنه يرغب أن يشرح له أحدٌ سبب وجودها، ولكن أحداً لم يشرح. وبقيت الآنسة ماربل تلك العجوز الحلوة المرتبكة ذات الشعر الأبيض الناعم.

أليكس: متى؟ أعني متى حدث ذلك؟

جينا: قبل وصولك تماماً. قبل حوالي... ثلاث دقائق أو أربع كما أظن. لقد سمعنا الطلقات عملياً، إلاّ أننا لم نُلقِ لها بالاً... لم نهتم حقاً.

أليكس: لم تلقوا لها بالاً؟ لماذا؟

تكلمت جينا بشيء من التردد: حسناً، كانت أشياء أخرى تحدث...

قال وولتر مؤكداً: نعم، بالتأكيد.

دخلت بيليفر إلى الصالة قادمة من المكتبة وقالت: يقترح السيد سيروكولد أن ننتظر جميعاً في المكتبة، فسيكون ذلك مناسباً بالنسبة للشرطة، ما عدا السيدة سيروكولد. لقد أصيبت

بصدمة يا كاري، وقد أمرت بوضع بعض زجاجات الماء الحار في فراشك. سآخذك إلى غرفة النوم و...

وقفت كاري لويز على قدميها وهي تهز رأسها بالرفض وقالت: يجب أن أرى كريستيان أولاً.

جولي: أوه، كلا يا عزيزتي. لا تزعجي نفسك...

أزاحتها كاري لويز جانباً بكل لطف وهي تقول: "عزيزتي جولي... إنك لا تفهمين". ثم نظرت حولها وقالت: جين؟

كانت الآنسة ماربل قد تقدمت نحوها بالفعل. قالت لها كاري لويز: هل لك أن تأتي معي يا جين؟

وتقدمتا معاً باتجاه الباب، وكاد الدكتور مافيريك أن يرتطم بهما في دخوله.

هتفت به الآنسة بيليفر: أوقفها يا دكتور مافيريك... إنه تصرف أحمق.

نظرت كاري لويز بهدوء إلى الشاب، بل إنها أظهرت ابتسامة خفيفة.

الدكتور مافيريك: تريدين أن تذهبي و... وتريه؟

كاري لويز: ينبغي أن أراه.

تنحى جانباً وقال: فهمت. لك ذلك إن كنت تشعرين أنه ضروري يا سيدة سيروكولد، ولكن أرجوك أن تذهبي –بعدَها–

وتضطجعي وتَدّعي الآنسة بيليفر تهتم بك. إنك لا تشعرين الآن بالصدمة، ولكن أؤكد لك أنك ستُصدمين.

كاري لويز: نعم، أظنك مصيباً... سأكون رابطة الجأش تماماً. هيا يا جين.

خرجت المرأتان من الباب، وعبرتا العتبة أسفل الدرج ثم مشتا في الممر الطويل لتعبرا غرفة الطعام عن يمينهما والأبواب المزدوجة المفضية إلى جناح المطبخ عن يسارهما، ثم الباب الجانبي المفضي إلى المصطبة الأمامية، وصولاً –في النهاية– إلى الباب المفضي إلى «جناح خشب البلوط» الذي خُصص لكريستيان غولبراندسن. كانت الغرفة مفروشة كغرفة جلوس أكثر منها غرفة نوم، مع سرير وُضع في فجوة في أحد الجدران الجانبية، وباب يفضي إلى غرفة ملابس وحمام.

وقفت كاري لويز على العتبة. كان كريستيان جالساً إلى المكتب الضخم المصنوع من خشب الماهوغاني وأمامه آلة طباعة صغيرة مفتوحة. كان يجلس هناك الآن، ولكنه كان مرتخياً مترهلاً في كرسيه، وقد منعته ذراعا الكرسي العاليتان من الانزلاق إلى الأرض.

كان لويس سيروكولد واقفاً قرب النافذة. كان قد فتح الستارة قليلاً وراح يتأمل العتمة خارج المنزل. نظر حوله وقطّب جبينه وقال: يا عزيزتي، كان ينبغي أن لا تأتي.

وتقدم نحوها فمدت له يدها، وتراجعت الآنسة ماربل خطوة أو خطوتين. قالت: آه، نعم يا لويس. يجب أن... أراه. على المرء أن يعرف تماماً كيف هي الأمور.

ثم مشت ببطء نحو المكتب، فقال لويس محذراً: يجب ألاّ تلمسي أي شيء؛ فالشرطة يطلبون أن تبقى الأشياء كما وجدناها تماماً.

كاري لويز: طبعاً. إذن فقد أطلق أحدهم النار عليه عمداً؟

لويس: أوه، نعم.

بدا لويس مندهشاً قليلاً حتى لمجرد طرح هذا السؤال، وأضاف: حسبتك تعلمين ذلك.

كاري لويز: أعرف في الواقع. لم يكن كريستيان لينتحر، وقد كان من الكفاءة بحيث لا يمكن أن يكون الأمر حدثاً تم بالخطأ. وهذا لا يترك تفسيراً آخر غير...

ثم ترددت قليلاً قبل أن تكمل: القتل.

مشت إلى المكتب، ووقفت هناك تنظر إلى الرجل الميت. كان في وجهه حزن ومحبة. قالت: "عزيزي كريستيان... كان طيباً معي على الدوام". ثم لمست برقة بأصابعها أعلى رأسه وقالت: ليباركك الله، وشكراً لك يا كريستيان العزيز.

قال لويس سيروكولد بشيء هو أقرب إلى العاطفة من كل

ما سبق للآنسة ماربل أن رأته منه: يشهد الله أنني أتمنى لو استطعت أن أحجب عنك هذا الألم يا كارولين.

هزت زوجته رأسها بأسف وقالت: أنت لا تستطيع -حقاً- أن تحجب عن أحد مثل هذا الأمر؛ فلابد أن تتم مواجهة الأمور عاجلاً أو آجلاً، ولذلك فمن الأفضل أن تكون عاجلة. سأذهب وأضطجع الآن. أحسبك ستبقى هنا يا لويس حتى يأتي الشرطة، أليس كذلك؟

لويس: نعم.

دارت كاري لويز عائدة وقد لفّت الآنسة ماربل ذراعها حولها.

* * *

الفصل التاسع

عندما وصل المفتش كيري وطاقمه وجد الآنسة بيليفر في الصالة الكبرى. تقدمت من المفتش بكفاءة وقالت: أنا جولييت بيليفر، رفيقة وسكرتيرة السيدة سيروكولد.

المفتش كيري: أأنت التي وجدت الجثة وأخبرتنا؟

- نعم. أغلب ساكني البيت موجودون في المكتبة... من ذلك الباب هناك. وقد بقي السيد سيروكولد في غرفة السيد غولبراندسن للتأكد من عدم العبث بشيء. والدكتور مافيريك (الذي فحص الجثة في البداية) سيكون هنا بعد قليل. لقد اضطر إلى اصطحاب... شخص مريض إلى الجناح الآخر من البيت. هل أدلكم على الطريق؟

- إذا سمحت.

وفكر المفتش مع نفسه قائلاً: "امرأة ذات كفاءة. تبدو وكأنها قد سجّلت الأمر كله". ثم تبعها عبر الممر.

وطَوال الدقائق العشرين التالية أخذت إجراءات الشرطة

الروتينية مجراها. أخذ المصور الصور اللازمة، ووصل طبيب الشرطة وانضم إليه الدكتور مافيريك. وبعد نصف ساعة أخذت سيارة إسعاف جثة كريستيان غولبراندسن وشرع المفتش كيري في استجوابه الرسمي.

أخذه لويس سيروكولد إلى المكتبة، فاستعرض بنظراته الحادة الناس المجتمعين محتفظاً في عقله بملاحظات مقتضبة عنهم. عجوز ذات شعر أبيض، سيدة في أواسط عمرها، الفتاة الجميلة التي رآها تقود سيارتها في الريف المجاور، زوجها الأمريكي متجهم الهيئة، شابان كانت لهما علاقة بمجموعة ما في هذا المكان أو ذاك، ثم تلك المرأة المقتدرة، الآنسة بيليفر، التي اتصلت به واستقبلته لدى وصوله.

كان المفتش كيري قد أعدّ سلفاً خطبة قصيرة، وها هو يلقيها الآن كما هو مخطط: أظن أن هذا الأمر مزعج جداً لكم، وآمل ألاّ أؤخركم كثيراً هذه الليلة؛ فنستطيع مراجعة الأمر بطريقة أعمق غداً. لقد كانت الآنسة بيليفر هي التي عثرت على السيد غولبراندسن ميتاً، وسأطلب منها أن تعطيني ملخصاً للحالة العامة؛ فذلك سيوفر كثيراً من التكرار. سيد سيروكولد... إن كنت تريد الصعود إلى زوجتك فأرجوك أن تفعل، وحين أنتهي من الحديث إلى الآنسة بيليفر فإنني أرغب بالحديث معك. أهذا واضح تماماً؟ هل توجد غرفة صغيرة يمكنني فيها...

لويس سيروكولد: مكتبي يا جولي؟

هزت الآنسة بيليفر رأسها موافقة وقالت: "كنت على وشك أن أقترح ذلك". ثم قادت المفتش عبر الصالة الكبرى ومضى خلفهما مرافقه الرقيب.

رتبت الآنسة بيليفر الأمور لهما ولنفسها بشكل مناسب، حتى ليخيل للمرء أنها هي، وليس المفتش كيري، المسؤولة عن التحقيق.

وعلى أية حال، فقد حان الوقت لتنتقل المبادرة إلى المفتش. كان للمفتش كيري صوت عذب وأسلوب لطيف. بدا هادئاً وجاداً وفي أسلوبه لفتة اعتذار خفيفة. وقد ارتكب بعض الناس خطأ التقليل من إمكاناته، ولكنه كان -فعلياً- ذا كفاءة في اختصاصه بقدر كفاءة الآنسة بيليفر في اختصاصها، ولكنه كان يفضل عدم استعراض هذه الحقيقة.

تنحنح ليجلو حنجرته وقال: لقد حصلت على الحقائق الأولية من السيد سيروكولد. لقد كان كريستيان غولبراندسن الابن الأكبر للسيد الراحل إيريك غولبراندسن، مؤسس "صندوق وزمالات غولبراندسن" وغيره من المؤسسات الخيرية. كان أحد الأوصياء على هذا المكان، وقد وصل هنا أمس بشكل مفاجئ. هل هذا صحيح؟

الآنسة بيليفر: نعم.

شعر المفتش كيري بالسرور لإيجاز إجابتها، فمضى قائلاً: كان السيد سيروكولد مسافراً إلى ليفربول، وعاد هذا المساء

بقطار الساعة السادسة والنصف.

- نعم.

- بعد العشاء هذه الليلة أعلن السيد غولبراندسن عن رغبته بالعمل في غرفته الخاصة، وغادر بقية المجموعة هنا بعد أن تم تقديم القهوة. هل هذا صحيح؟

- نعم.

- والآن يا آنسة بيليفر، أرجو أن تخبريني -بكلماتك أنت- كيف حدث أن عثرت عليه ميتاً.

- لقد جرى حادث كريه بعض الشيء هذه الليلة، حيث غدا أحد الشباب (ممّن يشكون من اضطراب عقلي) مختلاً تماماً، وهدد السيد سيروكولد بمسدس. كان الباب قد أقفل عليهما في هذه الغرفة. وقد أطلق الشاب النار من المسدس في النهاية، وتستطيع أن ترى الثقوب التي خلفتها الرصاصات على الجدار هنا، ولم يُصَب السيد سيروكولد لحسن الحظ، وبعد إطلاق الرصاصات انهار ذلك الشاب تماماً. وقد أرسلني السيد سيروكولد للبحث عن الدكتور مافيريك، واتصلت به من هاتف المنزل، ولكنه لم يكن في غرفته. بعد ذلك وجدته مع أحد زملائه ونقلت له طلب السيد سيروكولد فجاء على الفور. وفي طريق عودتي ذهبت إلى غرفة السيد غولبراندسن لأسأله إن كان يريد أي شيء (حليباً حاراً، مثلاً، أو أي شيء آخر) قبل أن آوي إلى فراشي. قرعت الباب، فلم أتلقَّ جواباً، ففتحته. ورأيت أن

السيد غولبراندسن ميت، فاتصلت بكم.

- ما هي مداخل ومخارج البيت، وكيف يتم إغلاقها؟ وهل كان بوسع أحد أن يدخل من الخارج دون أن يُسمع أو يُرى؟

- كان بوسع أي كان أن يدخل من الباب الجانبي للمصطبة الأمامية، وهذا الباب لا يُقفل حتى نذهب جميعاً للنوم؛ فالناس يدخلون ويخرجون من هذا الطريق في مجيئهم وذهابهم إلى مباني الكلية.

- ولديكم هنا -كما أعتقد- ما بين مئتين ومئتين وخمسين من الأحداث الجانحين في الكلية؟

- نعم، ولكن مباني الكلية مؤمَّنة بشكل جيد، وأحسب أن من المستبعد تماماً أن يغادر أحدٌ الكليةَ دون رقيب.

- سنضطر إلى تقصي ذلك بالطبع. حسناً، هل بدر من السيد غولبراندسن ما يثير أية ضغينة؟ أية قرارات -مثلاً- تخص سياسة المعهد أو الكلية ولم تلاقِ قبولاً أو صدى إيجابياً؟

هزت الآنسة بيليفر رأسها بالنفي وقالت: أوه، لا. ليس للسيد غولبراندسن أية علاقة من أي نوع بإدارة الكلية أو بالقضايا الإدارية.

المفتش كيري: ماذا كان الهدف من زيارته؟

- لا أدري.

- ولكنه انزعج حين وجد السيد سيروكولد غائباً، وقرر فوراً البقاء حتى عودته، أليس كذلك؟

- نعم.

- إذن فإن عمله هنا كان مع السيد سيروكولد بالتأكيد؟

- نعم، ولكن ذلك طبيعي؛ لأن من المؤكد -تقريباً- أنه عمل يتعلق بالمعهد.

- نعم، يُفترض أن ذلك هو الموضوع. هل تداول على انفراد مع السيد سيروكولد؟

- لا، لم يتوفر وقت لتداولهما؛ فقد وصل السيد سيروكولد قبل العشاء تماماً هذه الليلة.

- ولكن السيد غولبراندسن قال -بعد العشاء- إن لديه رسائل مهمة يجب كتابتها، وذهب ليقوم بذلك، ولم يقترح عقد جلسة مع السيد سيروكولد، أليس كذلك؟

ترددت الآنسة بيليفر قليلاً ثم قالت: نعم، نعم. لم يطلب ذلك.

المفتش كيري: من المؤكد أن ذلك كان غريباً بعض الشيء، كونه اضطر إلى انتظار السيد سيروكولد رغم ما في ذلك من تعطيل لأعماله، أليس كذلك؟

- نعم، كان ذلك غريباً.

ولكن غرابة ذلك بدت وكأنها تخطر للآنسة بيليفر لأول مرة.

المفتش كيري: ألم يرافقه السيد سيروكولد إلى غرفته؟

الآنسة بيليفر: لا، فقد بقي السيد سيروكولد في الصالة.

- ألديك فكرة عن الوقت الذي قُتل فيه السيد غولبراندسن؟

- من الممكن -كما أعتقد- أن نكون قد سمعنا الطلقة. إن كان الأمر كذلك، يكون الوقت هو التاسعة وثلاث وعشرون دقيقة.

- سمعتم طلقة؟ ولم ينبهكم ذلك لأي خطر؟

قالت الآنسة بيليفر: "كانت الظروف والملابسات فريدة من نوعها". ثم شرحت -بتفاصيلَ أوفى- المشهد الذي جرى بين لويس سيروكولد وإدغار لاوسن.

المفتش كيري: إذن فلم يخطر ببال أحد بأن الطلقة ربما أتت فعلياً من داخل المنزل، أليس كذلك؟

ردّت الآنسة بيليفر: "لا، لا أعتقد أن ذلك خطر ببال أحدٍ بالتأكيد، حتى أننا شعرنا جميعاً بالارتياح لأن الطلقة لم تأت من هنا". ثم أضافت بشيء من التجهم: لا يمكنك أن تتوقع جريمة قتل ومحاولة قتل في نفس المنزل وفي نفس الليلة.

اعترف المفتش كيري بصحة ذلك، فقالت الآنسة بيليفر فجأة: ربما كان ذلك هو السبب الذي جعلني أذهب إلى غرفة السيد غولبراندسن في وقت لاحق. لقد أردت -بالفعل- أن أسأله إن كان يرغب بشيء، ولكن ذلك كان نوعاً من الحجة التي أردت أن أؤكد بها لنفسي بأن كل شيء كان على ما يرام.

حدق بها المفتش كيري لحظةً ثم قال: وما الذي جعلك تعتقدين بأن شيئاً ما قد لا يكون على ما يرام؟

الآنسة بيليفر: لا أدري. أظن أن السبب كان تلك الطلقة في الخارج. لم تكن تلك الطلقة تعني شيئاً في وقتها، ولكن الفكرة راودتني مرة أخرى فيما بعد، وقلت لنفسي إن تلك الطلقة لم تكن سوى عطسة من محرك سيارة السيد ريستاريك...

المفتش كيري: سيارة السيد ريستاريك؟!

الآنسة بيليفر: نعم. أليكس ريستاريك. وصل هذه الليلة قادماً بالسيارة... وصل -تماماً- عقب حدوث ذلك كله.

- آه! فهمت. وعندما اكتشفتْ جثة السيد غولبراندسن.. هل لمست أي شيء في الغرفة؟

- طبعاً لا.

بدت في نبرتها مسحة تأنيب وأضافت: إنني أعرف -طبعاً- بأنه لا ينبغي لمس شيء أو تحريكه. لقد أطلقت النار على رأس السيد غولبراندسن، ولكن لم يكن حوله أي سلاح ناري، ولذلك

عرفت بأنها كانت جريمة قتل.

- حسناً. وعندما أخذتِنا إلى الغرفة، قبل قليل فقط، هل كان كل شيء فيها كما وجدتِه تماماً عندما اكتشفت الجثة؟

فكَّرت الآنسة بيليفر. استندت إلى الخلف في جلستها وضاقت فتحة عينيها، وفكر المفتش كيري بأن لها ذاكرة فوتوغرافية.

الآنسة بيليفر: شيء واحد كان مختلفاً؛ فلم يكن يوجد شيءٌ على الآلة الطابعة.

المفتش كيري: هل تعنين بأنك لدى دخولك -لأول مرة- رأيت السيد غولبراندسن في وضع مَن يكتب رسالة على الآلة الطابعة، وأن تلك الرسالة قد أُخذت بعد ذلك؟

- نعم. أكاد أكون متأكدة بأنني رأيت الحافة البيضاء لورقةٍ تطلّ من بين أسطوانات الآلة.

المفتش كيري: شكراً يا آنسة بيليفر. مَن غيرك دخل إلى تلك الغرفة قبل وصولنا؟

- السيد سيروكولد، وقد بقي هناك عندما أتيت لاستقبالكم. كما أن السيدة سيروكولد والآنسة ماربل دخلتا إلى الغرفة أيضاً؛ فقد أصرت السيدة سيروكولد على الدخول.

المفتش كيري: السيدة سيروكولد والآنسة ماربل... أي

واحدة هي الآنسة ماربل؟

– السيدة العجوز ذات الشعر الأبيض. كـانت صديقة دراسة للسيدة سيروكولد، وقد جاءت في زيارة منذ حوالي أربعة أيام.

– حسناً، شكراً يا آنسة بيليفر. كل ما قلتِهِ لنا واضح تماماً. سأتداول في الأمور مع السيد سيروكولد الآن. آه... ولكن ربما... ربما كانت الآنسة ماربل سيدة عجوزاً، أليس كذلك؟ سأتبادل معها أولاً بضع كلمات فقط، بحيث تستطيع بعدهـا أن تأوي إلى فراشها. من القسوة أن تبقى عجوز كهذه ساهرة هكذا. لا بد أن ذلك قد شكل لها صدمة.

الآنسة بيليفر: هل أخبرها بذلك؟

المفتش كيري: إذا سمحت.

خرجت الآنسة بيليفر، ونظر المفتش كيري إلى السقف وقال: غولبراندسن؟ لماذا غولبراندسن؟ مئتان من الأحداث غريبي الأطوار غير متكيفين مع المجتمع يعيشون في هذا المبنى، ولا سببَ يمنع أياً منهم من ارتكاب هذه الجريمة. وربما فعلها أحدهم، ولكن لماذا غولبراندسن؟ وهو الغريب ضمن هذا البيت.

الرقيب ليك: نحن –طبعاً– لم نعرف كل شيء بعدُ.

المفتش كيري: لم نعرف شيئاً حتى الآن.

ثم نهض بود وأريحية عندما دخلت الآنسة ماربل. وقـد بدت مرتبكة بعض الشيء، فسارع إلى إشعارها بالارتياح. قال: لا تزعجي نفسك يا سيدتي.

وفكر المفتش كيري بأن العجائز من أمثال هذه السيدة يعتبرن أن ضباط الشرطة ينتمون إلى طبقة أدنى وأن عليهم أن يظهروا احتراماً لمن هم فوقهم. وتابع قائلاً: أعلم أن الأمر مؤلم جداً، ولكننا مطالَبون بالحصول على الحقائق كاملة لنفهم الأمر بوضوح..

الآنسة ماربل: آه .. نعم، أعرف ذلك. إنه أمر بالغ الصعوبة، أليس كذلك؟ أعني أخذَ صورة واضحة عن كل شيء؛ لأنك إن كنت تنظر إلى أمر ما، فليس بوسعك أن تنظر إلى أمر آخر. وغالباً ما ينظر المرء إلى الأمر الخطأ، مع أنّ من الصعب جداً أن يحدد المرء إن كان ذلك ناتجاً عن المصادفة وحدَها أم لأنه يراد له أن يضل في بحثه، وهذا ما يطلق عليه السحرة اسم فقدان الاتجاه. إنهم أذكياء جداً، أليس كذلك؟ لم أتمكن أبداً من معرفة الطريقة التي يمارسون بها سحرهم باستخدام قُوارة السمك الزجاجية، فهي شيء لا يمكن طيّه وتصغيره، أليس كذلك؟

رفّت عينا المفتش كيري قليلاً وقال بهدوء: هذا صحيـح. والآن يا سيدتي، لقد استمعت إلى شرح عن أحداث هذه الليلة من الآنسة بيليفر، وأنا واثق أنه كان وقتاً عصيباً لكم جميعاً.

الآنسة ماربل: نعم، بالفعل. كان الأمر كله مثيراً متسارعاً.

المفتش كيري: "كانت -في البداية- تلك المشكلة بين السيد سيروكولد..."، ثم نظر إلى ملاحظة دوّنها أمامه وتابع: وذلك المدعو إدغار لاوسن.

- شاب غريب جداً. لقد شعرت بأن في شخصيته خطأ منذ البداية.

- أنا واثق أنك لاحظت ذلك. وبعد ذلك... بعدما انتهت موجة الانفعال، جاءت قضية موت السيد غولبراندسن. لقد فهمت أنكِ ذهبت مع السيدة سيروكولد لرؤية... لرؤية الجثة.

- نعم، صحيح. طلبت مني أن أذهب معها. إننا صديقتان منذ زمن بعيد.

- بالتأكيد... وهكذا ذهبت إلى غرفة السيد غولبراندسن. هل لمس أي منكما أي شيء، وأنتما في الغرفة؟

- أوه! لا. لقد حذرنا السيد سيروكولد من ذلك.

- هل حدث ولاحظت -يا سيدتي- إن كان في الآلة الطابعة رسالة أو ورقة مثلاً.

- لا، لم يكن فيها شيء. وقد لاحظت ذلك على الفور لأن ذلك بدا لي غريباً؛ فقد كان السيد غولبراندسن يجلس هناك أمام الطابعة، فلا بد أنه كان يطبع شيئاً ما. نعم، لقد رأيت في ذلك أمراً غريباً جداً.

نظر إليها المفتش كيري بحدة وسأل: هل تبادلت كثيراً من الحديث مع القتيل عندما أتى إلى هنا؟

الآنسة ماربل: لا، لم نتبادل إلاّ القليل جداً من الحديث.

- ألا يوجد شيء خاص أو مهم تتذكرينه؟

فكرت الآنسة ماربل قليلاً ثم قالت: سألني عن صحة السيدة سيروكولد... وخاصة عن قلبها.

- قلبها؟ هل في قلبها مشكلة؟

- لا توجد أية مشكلة كما فهمت.

صمت المفتش كيري لدقيقة أو دقيقتين ثم قال: هل سمعت طلقة نارية هذه الليلة أثناء المشاجرة بين السيد سيروكولد وإدغار لاوسن؟

- أنا لم أسمعها شخصياً بالفعل؛ فأنا أكاد أكون صمّاء إلى حد ما. ولكن السيدة سيروكولد أشارت إليها باعتبارها جاءت من الخارج، من الحديقة.

- لقد غادر السيد غولبراندسن المجموعة بعد العشاء مباشرة كما فهمت، أليس كذلك؟

- نعم، قال إن لديه رسائل يكتبها.

- ألم يُبدِ أية رغبة في التشاور مع السيد سيروكولد بشأن العمل؟

قالت الآنسة ماربل: "لا". ثم أضافت: كانا قد تبادلا حديثاً قصيراً في وقت سابق.

المفتش كيري: حقاً؟ متى؟ ما فهمته هو أن السيد سيروكولد لم يعد إلى البيت إلاّ قبل العشاء مباشرة.

– هذا صحيح تماماً، ولكنه أتى ماشياً عبر الحديقة، وخرج السيد غولبراندسن لاستقباله، وتمشيا معاً جيئة وذهاباً على المصطبة الأمامية.

المفتش كيري: مَن غيرك يعرف ذلك؟

الآنسة ماربل: لا أعتقد أن أحداً غيري يعرف بذلك، إلاّ إن كان السيد سيروكولد قد أخبر زوجته بذلك طبعاً. صدف أنْ كنت أنظر من نافذة غرفتي إلى بعض الطيور...

– الطيور؟

قالت الآنسة ماربل: "نعم، الطيور"، ثم أضافت بعد لحظة صمت: ظننت أنها ربما كانت حَسّاسين.

لم يكن المفتش كيري من المهتمين بالحساسين، فقال بلطف: ألم يصدف أن.. أن.. تناهى إلى سمعك أي شيء مما كانا يقولانه؟

التقت عيناها البريئتان شديدتا الزرقة بعينيه، وقالت بهدوء: مجرد نُتَفٍ فقط.

المفتش كيري: وما هي تلك النتف؟

صمتت الآنسة ماربل لحظةً ثم قالت: لا أعرف الموضوع الفعلي لحديثهما، ولكن كان همّهما المباشر إخفاء الموضوع -كائناً ما كان ذلك الموضوع- عن السيدة سيروكولد "ليوفرا عليها العناء".. ذلك هو التعبير الذي استخدمه السيد غولبراندسن. وقد قال السيد سيروكولد: "أتفق معك بأنها هي التي ينبغي أن ينصبّ عليها الاهتمام". كما أشارا إلى "مسؤولية كبرى" وأنهما ربما احتاجا "البحث عن مشورة خارجية".

ثم توقفت قليلاً وقالت: ظننتك تعلم ذلك... من الأفضل أن تسأل السيد سيروكولد نفسه عن الأمر كله.

المفتش كيري: سنسأله يا سيدتي. والآن، ألم يسترعِ انتباهَك أيُّ شيء آخر هذه الليلة كشيء غير عادي؟

فكرت الآنسة ماربل ثم قالت: كانت الأمسية كلها غير عادية، إن كنت تفهم ما أعنيه...

– صحيح، صحيح.

قفز شيء ما إلى ذاكرة الآنسة ماربل وقالت: "وقع حدثٌ غير عادي بعض الشيء؛ فقد منع السيد سيروكولد زوجته من تناول دوائها، وقد انزعجت الآنسة بيليفر تماماً من ذلك". ثم ابتسمت بأسلوب مَن يُنتقص من قيمة شهادته وقالت: ولكن ذلك أمر بسيط جداً بالطبع...

المفتش كيري: نعم، طبعاً. حسناً، شكراً لك يا آنسة ماربل.

وعندما خرجت الآنسة ماربل من الغرفة قال الرقيب ليك:
إنها عجوز، ولكنها حاذقة...

* * *

الفصل العاشر

دخل لويس سيروكولد إلى المكتب، وانتقل على الفور مركز الاهتمام كله في الغرفة. التفت ليغلق باب الغرفة خلفه موجداً بذلك جواً من الخصوصية، ثم مشى وجلس. لم يجلس على الكرسي الذي أخلته الآنسة ماربل لتوها، بل في كرسيه هو خلف المكتب. كانت الآنسة بيليفر قد أجلست المفتش على كرسي تم سحبه إلى جانب المكتب، وكأنها احتفظت -لاشعورياً- للسيد سيروكولد بكرسيه في حال حضوره.

بعد جلوسه نظر السيد سيروكولد إلى رجلي الشرطة متأملاً. بدا وجهه مجهداً تعباً متألماً، وكان وجه رجل يمر في محنة قاسية. وقد أدهش ذلك المفتش كيري بعض الشيء لأن غولبراندسن -على الرغم من أن موته كان بدون شك صدمة للسيد سيروكولد- لم يكن صديقاً حميماً لسيروكولد أو قريباً له، ولم تكن تربطه به إلاّ قرابة بعيدة عن طريق الزواج.

بدا أن المواقع قد انقلبت بطريقة غريبة، فلم يبدُ أن لويس سيروكولد قد جاء إلى الغرفة ليجيب عن أسئلة الشرطة، بل بدا

الأمر وكأنه قد وصل ليرأس جلسة استجواب هو سيدها. وقد أثار ذلك المفتش كيري بعض الشيء، فقال بسرعة: والآن يا سيد سيروكولد..

بدا أن لويس سيروكولد ما زال غارقاً في أفكاره، ثم قال متنهداً: كم هو صعب أن يعرف المرء التصرف الصحيح الذي ينبغي عليه أن يفعله.

قال المفتش كيري: أظن أننا نحن من يحكم على ذلك يا سيد سيروكولد. والآن، بالنسبة للسيد غولبراندسن... لقد وصل إلى هذا المكان بشكل مفاجئ كما فهمت، أليس كذلك؟

السيد سيروكولد: مفاجئ تماماً.

– لم تكن تعرف أنه قادم؟

– لم تكن لديّ أدنى فكرة عن قدومه.

– وليست لديك فكرة عن سبب قدومه؟

قال لويس بهدوء: آه، نعم. أعرف لماذا جاء؛ فقد أخبرني.

– متى أخبرك؟

– مشيت إلى هنا من المحطة. وكان هو يراقب من المنزل، وقد نزل لاستقبالي. ووقتها شرح لي الأمر الذي أحضره إلى هنا.

– وأحسب أن ذلك كان عملاً يتعلق بمعهد غولبراندسن، أليس كذلك؟

– آه، لا. لم يكن لزيارته علاقة بمعهد غولبراندسن.

– الآنسة بيليفر تعتقد أن ذلك كان هو السبب في حضوره.

– أمر طبيعي؛ فذلك هو الافتراض الذي كان من شأنه أن يسود. ولم يفعل غولبراندسن أي شيء لتصحيح هذا الانطباع، كما لم أفعل أنا.

– لماذا يا سيد سيروكولد؟

أجاب لويس سيروكولد ببطء: لأنه بدا لكلينا أنه من المهم أن لا تثار أية ملاحظة بخصوص السبب الحقيقي لزيارته.

– وماذا كان السبب الحقيقي للزيارة؟

بقي لويس سيروكولد صامتاً قليلاً، ثم قال: يأتي غولبراندسن هنا بشكل منتظم مرتين كل عام لاجتماع مجلس الأوصياء. والاجتماع الأخير للمجلس كان قبل شهر فقط، ولذلك لم يكن منتظَراً منه أن يأتي إلاّ بعد خمسة أشهر. وهكذا فكرت بأن الجميع يمكن أن يدركوا بأن العمل الذي جعله يأتي إلى هنا لا بد أن يكون طارئاً بالتأكيد، ولكنني فكرت –مع ذلك– بأن الافتراض الطبيعي سيكون أن الزيارة كانت زيارة عمل بالفعل، وأن القضية –بغض النظر عن أهميتها وأولويتها– ستكون متعلقة بمسألة الوصاية على المعهد. وبقدر ما أعرف فإن غولبراندسن لم يفعل شيئاً لإبطال هذا الانطباع، أو أنه ظن أنه لم يفعل. نعم، ربما كان هذا أقرب إلى الحقيقة... ظن أنه لم يفعل.

المفتش: أخشى يا سيد سيروكولد أنني لم أفهمك تماماً.

لم يجب لويس سيروكولد على الفور، بل صمت لحظة وقال بتجهم: أدرك تماماً أنه بعد موت غولبراندسن (والذي كان قتلاً دون شك) فإنني مضطر لوضع كل الحقائق أمامك. ولكنني -بصراحة- قلق بشأن سعادة زوجتي وراحة بالها. وأنا ليس من شأني أن أملي عليك أيها المفتش ما ينبغي فعله، ولكن إن استطعت أن تتدبر طريقة تبعد من خلالها أموراً معينة عنها قدر الإمكان فإنني سأكون ممتناً لك. أيها المفتش كيري، لقد جاء كريستيان غولبراندسن إلى هنا على جناح السرعة ليخبرني بأنه يعتقد أن زوجتي يتم تسميمها بشكل بطيء وبكل برود أعصاب.

قال المفتش كيري وهو ينحني إلى الأمام بارتياب: ماذا؟!

سيروكولد: نعم. كان ذلك -كما يمكنك أن تتخيل- صدمة هائلة لي. لم يكن لدي -شخصياً- أي شك بأمر كهذا، ولكن حالما أخبرني كريستيان، أدركت أن بعض الأعراض المعينة التي شَكَت منها زوجتي مؤخراً كانت تنسجم تماماً مع ذلك الاعتقاد. لقد كان ما اعتبرته روماتيزماً وتشنجاً في الساقين وألماً ودواراً بين حين وآخر، كان ذلك كله يتناسب تماماً مع أعراض التسمم بالزرنيخ.

المفتش: لقد أخبرتنا الآنسة ماربل بأن السيد غولبراندسن سألها عن حال قلب السيدة سيروكولد.

سيروكولد: صحيح؟ إنه لأمر مثير. أظن أنه اعتقد بأن السم الموجه إلى القلب قد يتم استخدامه، باعتبار أن ذلك قد يمهد الطريق لموت مفاجئ دون إثارة شكوك لا داعي لها. ولكنني أحسب أن الزرنيخ احتمال أكثر رجحاناً.

- إذن تعتقد جازماً بأن شكوك كريستيان غولبراندسن كانت تستند إلى أسس متينة؟

- آه نعم، أعتقد ذلك. وأحد الأسباب التي تدفعني إلى التصديق هو أن غولبراندسن ما كان سيأتي إليّ بمثل هذا الرأي ما لم يكن متأكداً تماماً من حقائقه. لقد كان رجلاً حذراً وواقعياً يصعب إقناعه، ولكنه ذكي جداً.

- ماذا كان دليله؟

- لم يكن لدينا وقت لاستعراض ذلك. كانت مقابلتنا عاجلة، ولم تكد تخدم إلاّ في شرح أسباب زيارته وفي الاتفاق المشترك على أن أي شيء -مهما كان- ينبغي ألاّ يقال لزوجتي بخصوص القضية حتى تتأكد من الحقائق.

- وبمن كان يَشُكُّ في أنه يدس السم؟

- لم يقل ذلك، وعملياً لا أعتقد أنه كان يعرف. ربما كان قد شك بأحد. أعتقد الآن بأنه ربما كان يشك، وإلاّ فلماذا قُتل؟

- ولكنه لم يذكر لك أي اسم، أليس كذلك؟

– لم يذكر أي اسم. وقد اتفقنا على أن نحقق في الأمر بعمق، واقترح هو أن نستعين بنصيحة وعون الدكتور غالبرايث. والدكتور غالبرايث صديق قديم جداً لعائلة غولبراندسن، وهو أحد الأوصياء على المعهد. وهو رجل ذو حكمة وتجربة عظيمتين، وكان من شأنه أن يكون ذا عون وراحة أكيدين لزوجتي إن كان ضرورياً أن نخبرها بشكوكنا. وقد أردنا أن نعتمد على مشورته فيما إذا كان علينا أن نتشاور مع الشرطة أم لا.

المفتش: غريب جداً.

لويس: تركنا غولبراندسن بعد العشاء، ليكتب رسالة للدكتور غالبرايث، وقد كان -فعلياً- منخرطاً في كتابة رسالة له عندما قُتل.

– كيف عرفت؟

أجاب لويس بهدوء: "لأنني أخرجت الرسالة من الآلة الطابعة، وهي معي هنا". ثم أخرج من جيب عند صدره ورقة مطوية مطبوعة وسلمها للمفتش كيري.

قال المفتش بحدة: ما كان ينبغي عليك أن تأخذها أو أن تلمس شيئاً في الغرفة.

سيروكولد: لم ألمس شيئاً آخر. أعرف أنني ارتكبت ذنباً لا يغتفر في نظرك بأخذي لهذه الرسالة، ولكن لدي سبباً قوياً لذلك. لقد كنت متأكداً بأن زوجتي ستصر على الحضور إلى

الغرفة، وكنت أخشى أن تقرأ شيئاً مما كتب فيها. أعترف بأنني كنت على خطأ، ولكنني كنت سأعيد نفس تصرفي مرة أخرى لو عادت عقارب الساعة إلى الوراء. إنني مستعد لفعل أي شيء... أي شيء؛ لأجنب زوجتي التعاسة.

لم يقل المفتش كيري شيئاً في هذه الأثناء، بل راح يقرأ الورقة المطبوعة:

عزيزي الدكتور غالبرايث،

أتوسل إليك -إن كان ذلك ممكناً بأي سبيل- أن تأتي إلى ستوني غيتس حال استلامك هذه الرسالة؛ فقد برزت أزمة ذات خطورة هائلة، وأنا حائر في كيفية التعامل معها. إنني أعرف مدى عمق محبتك لعزيزتنا كاري لويز، وإلى أي مدى سيكون قلقك عميقاً تجاه أي شيء قد يؤثر عليها. إلى أي مدى ينبغي أن تكون كاري لويز على اطلاع؟ إلى أي مدى ينبغي أن نخفي عنها؟ تلك هي الأسئلة التي أجد صعوبة في الإجابة عليها.

ولكي لا أداور كثيراً في الموضوع، فإنني أقول إن لدي سبباً يدعوني للاعتقاد بأن تلك السيدة الرائعة البريئة يتم تسميمها ببطء. وقد شككت بذلك لأول مرة عندما...

وهنا قُطعت الرسالة بشكل مبستر.

المفتش كيري: وهل أُطلِقت النار على غولبراندسن عندما وصل إلى هذه النقطة؟

سيروكولد: نعم.

- ولكن لماذا كانت هذه الرسالة في الآلة الطابعة؟

- لا أستطيع أن أفكر إلاّ بسببين اثنين؛ الأول هو أن القاتل لم تكن لديه فكرة عن الشخص الذي يكتب غولبراندسن الرسالة له أو عن مضمون الرسالة، والثاني هو أنه ربما لم يكن لديه الوقت. ربما كان قد سمع شخصاً قادماً ولم يكن أمامه من الوقت إلاّ ما يسمح بنجاته دون أن يراه أحد.

المفتش: ألم يعطك غولبراندسن أية إشارة إلى الشخص الذي يشك فيه... إن كان يشك بأحد؟

ربما ظهر توقف بسيط جداً قبل أن يجيب لويس: "أبداً". ثم أضاف بشيء من الغموض: كان كريستيان رجلاً منصفاً جداً.

المفتش: كيف باعتقادك تم أو يتم دس هذا السم، سواء كان زرنيخاً أو أي سم آخر؟

- لقد فكرت مطولاً بذلك عندما كنت أبدل ملابسي استعداداً للعشاء، وبدا لي بأن الوسيلة الأكثر احتمالاً كانت دواء ما... دواء منشطاً كانت زوجتي تتناوله. أما بخصوص الطعام فكلنا نشترك في نفس الوجبات وليس لزوجتي أي طعام خاص يعد خصيصاً لها، ولكن بوسع أي امرئ أن يضيف الزرنيخ إلى زجاجة الدواء.

المفتش: ينبغي أن نأخذ الدواء ونحلله.

قال لويس بهدوء: "لقد احتفظت فعلاً بعيِّنة منه. أخذتها هذا المساء قبل العشاء". ثم أخرج من درج مكتبه زجاجة صغيرة مسدودة بفلينة وبها سائل أحمر.

قال المفتش كيري وهو يوجه نظرة فضولية: إنك تفكر بكل شيء يا سيد سيروكولد.

- إنني أؤمن بالعمل الفوري الحازم. الليلة منعت زوجتي من تناول جرعتها المعتادة، وهي لما تزل في كأس على المائدة في الصالة، وزجاجة المنشط نفسها موجودة في غرفة الطعام.

انحنى المفتش كيري إلى الأمام فوق المكتب، وخفض صوته وتكلم بلهجة توحي بالسرية: عليك أن تعذرني يا سيد سيروكولد، ولكن لماذا أنت حريص إلى هذه الدرجة على إخفاء هذا الأمر عن زوجتك؟ هل أنت خائف من أن تصاب بالذعر؟ من المؤكد أنه من الأفضل لها (من أجل سلامتها) أن يتم تحذيرها.

- نعم، نعم... ربما كان الأمر كذلك فعلاً. ولكنني لا أعتقد أنك فهمت الوضع تماماً، وسيكون من الصعوبة فهمه دون معرفة زوجتي كارولين. إن زوجتي -أيها المفتش كيري- مثالية، شخصية تثق كلياً بمن حولها. ويمكن فعلاً أن يقال عنها بأنها لا تعرف الشر ولا تسمع عن الشر ولا تتكلم بشر، وسيكون من غير المفهوم بالنسبة لها أن يكون أحدٌ ما راغباً في قتلها. ولكن علينا أن نمضي أبعد من ذلك، فالأمر ليس مجرد "أي أحد"، بل هي حالة شخص ربما كان مقرباً جداً وعزيزاً جداً عليها...

المفتش كيري: إذن فهذا هو ما تعتقده؟

سيروكولد: علينا أن نواجه الحقائق. إنّ لدينا، قريباً منا هنا، مثتي شخصية منحرفة مشوهة، كثيراً ما عبرت عن نفسها بممارسة العنف السافر الفج الذي لا معنى له. ولكن، بسبب طبيعة الأشياء نفسها، فإن أحداً منهم لا يمكن أن يُشتبه به في هذه القضية.

إن شخصاً يمارس التسميم البطيء لا بد أن يكون شخصاً يعيش ألفة الحياة العائلية. فكر في الأشخاص الذين يسكنون هنا في هذا البيت، فهم زوجها وابنتها وحفيدتها وزوج حفيدتها، وابن زوجها الذي تعتبره بمثابة ابنها هي، والآنسة بيليفر صديقتها ورفيقتها المخلصة لسنوات طويلة. كلهم مقربون جداً وعزيزون جداً عليها.. ومع ذلك ينبغي أن تثور الشكوك: هل المجرم واحد منهم؟

قال المفتش كيري ببطء: ولكن يوجد أناس خارجيون...

– نعم، بمعنىً ما. يوجد الدكتور مافيريك وشخص أو اثنان من مسؤولي المعهد غالباً ما يكونون معنا، ويوجد الخدم. ولكن –بصراحة– ما هو الدافع المحتمَل الذي يمكن أن يكون لديهم؟

المفتش: ولدينا الشاب... ماذا كان اسمه؟ إدغار لاوسن؟

سيروكولد: نعم.. ولكنه لم يأت إلى هنا إلاّ كزائر عرضي

غير منتظم، ومؤخراً فقط. بالإضافة إلى أنه متعلق جداً بكارولين؛ شأنه في ذلك شأن الآخرين.

– ولكنه مضطرب. ماذا عن هجومه عليك هذه الليلة؟

نحّى سيروكولد هذا السؤال جانباً بإشارة نزقة من يده وقال: مجرد طفولية بحتة... لم يكن ينوي إيذائي.

– لا يعقل ذلك مع وجود هاتين الحفرتين اللتين تركتهما الطلقتان في الجدار. لقد أطلق عليك النار، أليس كذلك؟

– لم يكن ينوي إصابتي. كان ذلك مجرد تمثيل، لا أكثر.

– إنه نوع خطير من أنواع التمثيل يا سيد سيروكولد.

– أنت لا تستوعب الحالة. عليك أن تتحدث مع طبيبنا النفسي الدكتور مافيريك... إن إدغار صبي غير شرعي، وقد عزّى نفسه عن فقدان الأب وعن الأصل المتواضع بالادعاء أمام نفسه بأنه ابن رجل مشهور، وهذه ظاهرة معروفة شائعة... أؤكد لك ذلك. وقد كانت حالته تتحسن، تتحسن كثيراً. ثم، لسبب ما، تعرض لنكسة؛ فجعلني «أباً» له، وقام بهجومه الاستعراضي المثير مُلوّحاً بمسدس ومطلقاً وابلاً من التهديدات. لم يُخِفْني ذلك على الإطلاق... وعندما أطلق النار فعلياً من المسدس انهار وأخذ ينتحب وينشج، فأخذه الدكتور مافيريك وأعطاه مهدئاً، وربما يكون طبيعياً تماماً صباح الغد.

– ألا ترغب بتوجيه اتهام له؟

– سيكون ذلك أسوأ إجراء ممكن... أعني بالنسبة له.

– بصراحة يا سيد سيروكولد، يبدو لي أنه ينبغي أن تُفرض عليه بعض القيود. أناس يطلقون نيران مسدساتهم هنا وهناك لإثبات وتعزيز «أناهم» المريضة! على المرء أن يفكر في المجتمع كما تعلم.

– تكلم مع الدكتور مافيريك في هذا الموضوع وهو سيعطيك وجهة النظر المختصة. وعلى أية حال فإن إدغار المسكين لم يطلق النار على غولبراندسن؛ فقد كان وقتها هنا يهدد بإطلاق النار عليّ أنا.

– هذه هي النقطة التي كنت على وشك إثارتها يا سيد سيروكولد. لقد بحثنا قضية الخارج، ويبدو أنه كان بمقدور أي شخص أن يدخل من الخارج ويطلق النار على السيد غولبراندسن ما دام الباب المفضي إلى المصطبة الخارجية غير مُقفل. ولكنّ في داخل المنزل مجالاً أضيق. ويبدو لي –على ضوء ما كنت تقوله لي– أنه ينبغي إيلاء انتباه دقيق جداً لذلك. ويبدو ممكناً أنه ما من أحدٍ كان يدرك بأنك قد تبادلت بالفعل حديثاً خاصاً على انفراد مع السيد غولبراندسن ما عدا الآنسة العجوز ماربل التي صادف أنها كانت تطل من نافذة غرفة نومها. وإن كان الأمر كذلك، فربما كان غولبراندسن قد قُتل لمنعه من الإفضاء بشكوكه إليك. من المبكر جداً –بالطبع– أن نحدد الآن ما هي الدوافع الأخرى التي قد تكون موجودة... أفترضُ أن السيد

غولبراندسن كان شخصاً ثرياً، أليس كذلك؟

– نعم، كان رجلاً غنياً جداً. وله أبناء وبنات وأحفاد، الأغلب أن يكونوا مستفيدين جميعاً من وفاته. ولكنني لا أعتقد أن أياً من أفراد عائلته موجود في هذا البلد، وهم أناس موثوقون ومحترمون جداً، وليس بينهم –على قدر معلوماتي– أحد شاذ.

– هل للسيد غولبراندسن أي أعداء؟

– أظن أن ذلك احتمال بعيد جداً، فهو لم يكن من ذلك النوع من الناس أبداً.

– إذن فإن خلاصة كلامنا تحصر الأمر في ساكني هذا البيت، أليس كذلك؟ فمَنْ مِنْ داخل المنزل يمكن أن يكون قد قتله؟

أجاب لويس سيروكولد ببطء: من الصعب عليَّ أن أجزم بذلك. لدينا الخدم، وأعضاء الأسرة، وضيوفنا. وهم يشكّلون جميعاً –من وجهة نظرك– احتمالات قائمة كما أظن. كل ما أستطيع أن أقوله لك هو أن الجميع –حسب علمي– كانوا في الصالة الكبرى عندما غادرها غولبراندسن (باستثناء الخدم)، وأثناء وجودي هناك لم يغادر الصالة أحد.

– لا أحد أبداً؟

قال سيروكولد: "أظن ذلك". وقطب جبينه في محاولة جاهدة للتذكر ثم قال: آه، نعم. بعض الأضواء أصابها تماس فانطفأت، وذهب السيد وولتر هَدْ لمعالجتها.

المفتش: ذلك هو السيد الأمريكي الشاب؟

– نعم. وأنا لا أعرف –طبعاً– ما جرى بعدما دخلتُ وإدغار إلى هنا.

– ألا تستطيع أن تعطينا صورة أقرب من ذلك؟

هز لويس سيروكولد رأسه بالنفي وقال: لا، لا أظن أن بوسعي مساعدتك؛ فالأمر... الأمر كله يصعب تماماً فهمه.

تنهد المفتش كيري ثم قال: لقد أطلقت على غولبراندسن رصاصة من مسدس آلي صغير. هل تعرف إن كان أحد في المنزل يمتلك مثل هذا السلاح؟

– ليست عندي فكرة عن ذلك، وأظنه مستبعداً تماماً.

تنهد المفتش كيري مرة أخرى وقال: بوسعك أن تخبر القوم أن بإمكانهم جميعاً الذهاب للنوم... سأتحدث معهم غداً.

وعندما غادر سيروكولد الغرفة قال المفتش كيري لمساعده ليك: حسناً... ما هو رأيك؟

ليك: إنه يعرف أو يظن أنه يعرف من ارتكب الجريمة.

المفتش: نعم، أتفق معك. ولا يعجبه الأمر إطلاقاً...

* * *

الفصل الحادي عشر

عندما نزلت الآنسة ماربل لتناول إفطارها صباحَ اليوم التالي حيّتها جينا باندفاعةٍ منها، ثم قالت: لقد جاء الشرطة ثانية إلى هنا، وهم في المكتبة هذه المرة. إن وولي مفتون بهم تماماً، وهو لا يستطيع أن يفهم سبب كونهم هادئين وحياديين إلى هذا الحد. أظن أن الأمر كله أرعبه تماماً بالفعل... أما أنا فلم يرعبني الأمر، ولكنني كرهت الجريمة وأعتقد أنها فظيعة. لماذا تظنين أنني منزعجة إلى هذا الحد؟ ألأنني نصف إيطالية؟

الآنسة ماربل: محتمل جداً... وربما يفسر ذلك –على الأقل– سبب عدم اكتراثك لإظهار مشاعرك.

ابتسمت الآنسة ماربل قليلاً وهي تقول ذلك، وعقبت جينا وهي تتعلق بذراعها وتدفعها باتجاه غرفة الطعام: "إن جولي بيليفر غاضبة جداً، وأعتقد أن غضبها –بلا ريب– سببه أن الشرطة يتولون المسؤولية الآن، وهي لا تستطيع أن «تدير» الشرطة كما تديرنا جميعاً هنا". ثم أضافت جينا وهي ترى أليكس وستيفن الأخوين يُنهيان إفطارهما في غرفة الطعام عند دخولها: أما أليكس وستيفن فهما مكتفيان بعدم الاهتمام.

سمع أليكس كلامها فقال: أيتها العزيزة جينا، لقد ظلمتِنا كثيراً. صباح الخير يا آنسة ماربل... إنني مهتم جداً بهذا الأمر، إلاّ أنني لا أكاد أعرف عمك كريستيان معرفة حقيقية. وإنني -إلى حدٍ بعيد- من أكثر المشتبه بهم... أظنك تدركين ذلك.

جينا: لماذا؟

أليكس: حسناً، لقد كنت أقود سيارتي إلى المنزل في نفس وقت الجريمة تقريباً كما يبدو. ولقد كانوا يدققون في هذه الأمور، ويبدو أنني قضيتُ وقتاً طويلاً بين البوابة الخارجية والمنزل... وقتاً يكفي -كما قد يفهم- لترك السيارة، والركض حول المنزل للدخول من الباب الجانبي، وإطلاق النار على كريستيان، والخروج بسرعة، والعودة ثانية إلى السيارة.

جينا: وما الذي كنت حقاً تفعله؟

أليكس: ظننت أن الفتيات الصغيرات يُعلّمن في وقت مبكر تماماً أن لا يسألن أسئلة فظة غير محتشمة. لقد وقفت كالأبله لعدة دقائق لكي أشاهد وأستوعب تأثير الضباب على المصابيح الأمامية للسيارة، وأفكر فيما يمكنني استخدامه لصنع ذلك التأثير في خشبة المسرح... وذلك لمسرحيتي الراقصة الجديدة «بيت الكلس».

جينا: ولكن بوسعك أن تخبرهم بذلك!

أليكس: طبيعي، ولكنك تعرفين طبيعة الشرطة. إنهم يقولون:

لك بكل أدب: "شكراً لك" ويدونون شهادتك، في حين لا تعرفين ما الذي يفكرون فيه، إلاّ أن المرء يشعر -فعلاً- أن لديهم عقولاً شكاكة.

قال ستيفن بابتسامته النحيلة القاسية بعض الشيء: سيكون من دواعي تسليتي أن أراك في ورطة يا أليكس! أما أنا فوضعي جيد تماماً؛ فأنا لم أغادر القاعة أبداً ليلة أمس.

صاحت جينا: ولكن لا ينبغي أن يظنوا المجرم واحداً منا!

كانت عيناها السوداوان مستديرتين فزعتين. وقال أليكس وهو يأخذ بسخاء من المربى الموجود على المائدة: لا تقولي -يا عزيزتي- بأن المجرم لا بد أن يكون متشرداً متسكعاً؛ فقد ابتُذلت العبارة من كثرة الاستعمال.

أطلت الآنسة بيليفر من الباب وقالت: الآنسة ماربل، هل لك -عندما تنهين إفطارك- أن تذهبي إلى المكتبة؟

جينا: أنتِ مرة أخرى... قبلنا جميعاً؟!

بدا وكأن ذلك جرح شعورها بعض الشيء.

أليكس: هيه، ما هذا الصوت؟

ستيفن: لم أسمع شيئاً.

أليكس: إنها طلقة مسدس.

جينا: لقد كانوا يطلقون النار في الغرفة التي قُتل فيها العم

كريستيان. لا أدري لماذا، وفي الخارج أيضاً.

انفتح الباب مرة أخرى ودخلت ميلدريد. كانت ترتدي السواد مع بعض عقود العقيق، وتمتمت بتحية الصباح دون أن تنظر إلى أحد وجلست، ثم قالت بصوت منخفض: أريد بعض الشاي -رجاءً- يا جينا. لا أريد طعاماً كثيراً... بعض الخبز المحمص فقط.

ثم مسحت أنفها وعينها برقة بالمنديل الذي كانت تمسكه في إحدى يديها، ورفعت بصرها ونظرت -بطريقة من لا يرى- إلى الأخوين الجالسين. شعر ستيفن وأليكس ببعض الضيق، وانخفض صوتهما إلى ما يقرب من الهمس، وسرعان ما نهضا وغادرا الغرفة.

قالت ميلدريد بصوت عال جعل الآنسة ماربل تشك أن المقصود منه أن يسمعه العالم كله: أما كان بوسعهما أن يلبسا ربطة عنق سوداء على الأقل؟

قالت الآنسة ماربل بلهجة اعتذار: لا أحسبهما كانا يعرفان مسبقاً بأن جريمة قتل ستحدث.

أطلقت جينا صوتاً مكبوتاً فنظرت إليها ميلدريد بحدة وسألتها: أين وولتر هذا الصباح؟

تورد وجه جينا وأجابت: "لا أدري، أنا لم أره". ثم جلست هناك بقلق كأنها طفل مذنب.

نهضت الآنسة ماربل قائلة: سأذهب إلى المكتبة الآن.

كان لويس سيروكولد يقف قرب النافذة في المكتبة، ولم يكن أحد غيره في الغرفة. دار لدى دخول الآنسة ماربل وتقدم لاستقبالها آخذاً يدها بيده وقال: آمل أن لا تكون مشاعركِ قد تأذت كثيراً من الصدمة. لا بد أن وجود المرء على مقربة من جريمة قتل يشكل ضغطاً هائلاً على أي شخص لم يجرب مثل هذه الحالة من قبل.

منع التواضع الآنسة ماربل أن تجيبه وتقول بأنها أصبحت الآن معتادة تماماً على جرائم القتل، واكتفت بالقول إن الحياة في قريتها، سينت ميري ميد، لم تكن آمنة تماماً إلى الحد الذي يظنه الناس في الخارج، ثم أضافت: أؤكد لك أنّ أموراً قذرة جداً تجري في القرى، وتتوفر للإنسان هناك فُرصةٌ لدراسة الأشياء لم تكن لتتوفر له في المدينة.

أصغى لويس سيروكولد لكلامها باهتمام، ولكن بنصف أذن فقط. قال ببساطة شديدة: أريد مساعدتك.

الآنسة ماربل: حاضرة بالطبع يا سيد سيروكولد.

- إنها قضية تؤثر في زوجتي، تؤثر في كارولين، وأعتقد أنك تحبينها تماماً، أليس كذلك؟

- بلى، الحقيقة أن الجميع يحبونها.

- هذا ما كنت أظنه، ولكن يبدو أنني مخطئ. بعد موافقة

المفتش كيري سوف أخبرك شيئاً لا يعرفه أحد غيرك بعد. أو ربما كان الأحرى أن أقول: إن شخصاً واحداً يعرفه.

ثم أخبرها -باختصار- بما كان قد قاله للمفتش كيري في الليلة السابقة. بدت الآنسة ماربل مرعوبة وقالت: لا يمكن تصديق ذلك يا سيد سيروكولد.. إنني حقاً لا أستطيع تصديقه.

- هذا ما شعرت به عندما أخبرني كريستيان غولبراندسن.

- كنت مستعدة للجزم بأن كاري لويز العزيزة ليس لها عدو في هذا العالم.

- إن وجود عدو لها مسألة تبدو عصية على التصديق. ولكن هل تدركين مضامين هذا الأمر؟ إن التسميم -وخاصة التسميم البطيء- هو مسألة عائلية داخلية صميمية. لا بد أن يكون الفاعل واحداً من أفراد أسرتنا الصغيرة شديدة التلاحم...

- هذا إن كان الأمر صحيحاً... أأنت واثق أن السيد غولبراندسن لم يكن مخطئاً؟

- لم يكن كريستيان مخطئاً. كان رجلاً أكثر حذراً ويقظة من أن يطلق حكماً كهذا دون أساس. وبالإضافة إلى ذلك فإن الشرطة أخذوا زجاجة دواء كارولين وعيّنة منفصلة من محتوياتها.. وقد كان زرنيخاً في كلتا الحالتين.

- إذن فإن الروماتيزم الذي تعاني منه، والصعوبة في مشيتها... كل ذلك...

- نعم، وتشنجات الساقين من الأعراض النموذجية في هذه الحالة كما فهمت... بالإضافة إلى أن كارولين قد تعرضت -قبل مجيئك- إلى نوبتين حادتين لهما علاقة بالمعدة. لم أحلم أبداً قبل مجيء كريستيان...

ثم توقف فجأة، وقالت الآنسة ماربل بهدوء: إذن فقد كانت روث على حق!

- روث؟

بدت على لويس سيروكولد الدهشة، فاحمرت وجنتا الآنسة ماربل وقالت: يوجد شيء لم أخبرك به. إن قدومي إلى هنا لم يكن عرضياً بالكامل. إن كنت تأذن لي أن أشرح لك الأمر... أخشى أن أكون سيئة جداً في سرد الوقائع. أرجوك أن تتحلى بالصبر.

وأصغى لويس سيروكولد فيما أخبرته الآنسة ماربل عن أحاسيس روث بالقلق وضرورة التصرف بسرعة. ثم علق قائلاً: غريب جداً... لم تكن لديّ فكرة عن ذلك.

- كان الأمر كله مبهماً غامضاً، كما أن روث نفسها لم تكن تعرف سبباً لشعورها هذا. لا بد أن يكون سبب، ولكل شيء دوماً سبب كما علمتني تجربتي، ولكن عبارة «أمر غير طبيعي» كانت أقرب ما استطاعت روث الوصول إليه تجاه الوضع.

قال لويس سيروكولد بتجهم: حسناً، يبدو أنها كانت محقة.

والآن يا آنسة ماربل، إنك ترين الوضع الذي أنا فيه، فهل عليَّ أن أخبر كاري لويز بذلك؟

قالت الآنسة ماربل بسرعة، وبصوت ملوَّع: أوه، لا.

ثم خجلت وحدقت بارتياب بالسيد سيروكولد الذي هزّ رأسه موافقاً لها وقال: إذن فأنت تشعرين كما أشعر وكما شعر كريستيان غولبراندسن؟ هل كان لنا أن نشعر بمثل هذا الشعور إزاء امرأة عادية؟

– كاري لويز ليست امرأة عادية. إنها تعيش على ثقتها وعلى إيمانها بالطبيعة البشرية... آه يا عزيزي، إنني أعبر عن نفسي بشكل سيء جداً، ولكنني أشعر –فعلاً– بأننا حتى الوقت الذي نعرف فيه من هو...

قاطعها سيروكولد قائلاً: نعم، هذه هي النقطة الحيوية. ولكنك ترين –بالتأكيد– يا آنسة ماربل بأن في عدم البوح بالأمر مخاطرة...

– وهكذا فإنك تريد مني أن... كيف أعبّر عن ذلك؟ أن أراقبها وأحميها؟

– أتعلمين؟ إنك الشخص الوحيد الذي أستطيع الوثوق به. الجميع هنا يبدون محبين لها، ولكن هل هم حقاً كذلك؟ بينما علاقتك بها تعود لسنوات طويلة خلت.

– بالإضافة إلى أنني لم أصل إلى هنا إلاّ منذ بضعة أيام فقط.

ابتسم لويس سيروكولد وقال: بالضبط.

قالت الآنسة ماربل بلهجة اعتذار: إنها مسألة طمع مادي جشع. ولكن من هم –بالضبط– الذين سيستفيدون لو قدر لكاري لويز أن تموت؟

قال لويس بمرارة: المال! إنه دائماً الأصل في كل شيء، أليس كذلك؟

الآنسة ماربل: حسناً، إنني أعتقد أن الأمر لا بد أن يكون كذلك في هذه الحالة؛ لأن كاري لويز امرأة رائعة عذبة جداً ذات سحر هائل، ولا يمكن للمرء –حقاً– أن يتخيل وجود أي شخص يكرهها. أعني أنه ليس بوسعها أن يكون لها عدو. إذن فإن الأصل في تفسير محاولة قتلها –كما عبَّرت أنت– هو مسألة المال. ولا حاجة بي لأن أذكِّرك –يا سيد سيروكولد– بأن الناس غالباً ما يقدمون على فعل أي شيء في سبيل المال.

– نعم، أعتقد ذلك. من الطبيعي أن المفتش كيري قد أخذ في اعتباره تلك النقطة. سيأتي السيد غيلفوي من لندن اليوم، وبوسعه أن يعطينا معلومات تفصيلية. إن مكتب جيمس وغيلفوي هو أحد مكاتب المحاماة البارزة، ووالد السيد غيلفوي هذا كان واحداً من الأوصياء الأصليين، وهم الذين صاغوا وصية كارولين والوصية الأصلية للسيد إيريك غولبراندسن. سوف أبسط لك هذه الأمور...

– شكراً لك. اعتقدت دوماً بأن القانون موضوع مبهم جداً.

- إن السيد إيريك غونبراندسن وهب -على سبيل الوقف- الكليَّة وبضعَ مؤسسات مختلفة للزمالات الدراسية، وجعل مؤسساتٍ أخرى خاضعة لوصايا أفراد، وغير ذلك مما خلّفه من المؤسسات الخيرية، ثم ترك مبلغاً متساوياً لكل من ابنته ميلدريد وابنته المتبناة بيبا والدة جينا. وبعد ذلك ترك ما تبقى من ثروته الطائلة تحت الوصاية، على أن يُدفع ما تدره هذه الثروة من أرباح إلى كارولين طوال فترة حياتها.

- وبعد وفاتها؟

- بعد وفاتها يفترض أن توزَّع الأموال بالتساوي بين ميلدريد وبيبا (أو أطفالهما إن كانتا قد توفيتا قبل وفاة كارولين).

- بحيث تذهب في الواقع إلى ميلدريد وإلى جينا.

- نعم. كما أن لدى كارولين ثروة كبيرة خاصة بها، مع أنها ليست بمستوى ثروة غونبراندسن. نصف هذه الثروة خصصتها لي قبل أربع سنوات، ومن المبلغ المتبقي تركَتْ عشرة آلاف جنيه لجوليت بيليفر، وتم توزيع الباقي بالتساوي بين أليكس وستيفن ريستاريك ابني زوجها.

- آه، المسكينة. هذا أمر سيء، سيء جداً.

- ماذا تعنين؟

- إن ذلك يعني أن جميع من في البيت لديهم دافع مالي.

- نعم. ومع ذلك لا أستطيع أن أصدق أن أياً من هؤلاء الناس لديه الاستعداد لارتكاب جريمة قتل. إن ميلدريد هي ابنتها، ويُنفق عليها -بالفعل- بشكل جيد تماماً. جينا متعلقة بجدتها، وهي سخية ومبذرة ولكنها لا تمتلك مشاعر التملك والجشع. جولي بيليفر متطرفة في تعلقها بكارولين. والشابان أليكس وستيفن ريستاريك يرعيان كارولين كما لو كانت حقاً والدتهما. ليس لديهما مال خاص بهما يمكن ذكره، ولكن كثيراً من دخل كارولين قد ذهب باتجاه تمويل مشاريعهما، وخاصة أليكس. إنني -ببساطة- لا أستطيع أن أصدق أن أياً من هذين الاثنين يمكن أن يقدم عامداً على تسميمها لأجل أن يرث مالاً بموتها. لا يمكنني أن أصدق شيئاً من هذه الأمور يا آنسة ماربل.

- وفي البيت أيضاً زوج جينا، أليس كذلك؟

أجاب سيروكولد بتجهم: نعم. يوجد زوج جينا.

الآنسة ماربل: إنك لا تعرف حقاً الكثير عنه، ولا يمكن للمرء إلاّ أن يلاحظ أنه شاب تعيس جداً.

تنهد لويس وقال: نعم، إنه لم ينسجم في هذا المكان، وليس عنده اهتمام أو تعاطف مع ما نحاول أن نفعله هنا. ولكن لماذا عساه يهتم أو يتعاطف في نهاية المطاف؟ إنه شاب غِرّ، وقد أتى من بلد يقاس فيه الرجل بمقدار ما يحققه من نجاح في حياته.

الآنسة ماربل: بينما نحن هنا مولعون جداً بالفاشلين!

نظر إليها لويس سيروكولد بحدة وارتياب، فتورد وجهها قليلاً وتمتمت بشكل يعوزه التماسك: أعتقد -أحياناً- أن بوسع

المرء أن يجهد نفسه في الاتجاه الآخر... أعني أن الشبان الصغار من أبناء العائلات السوية -والذين تمت تربيتهم بشكل جيد في بيئة منزلية جيدة وبقوة شخصية وعزم وقدرة على شق طريق الحياة- هم حقاً من النوع الذي تحتاجه البلد، عندما يمعن المرء النظر في الأمور.

قطب لويس بين حاجبيه مفكراً، فأردفت الآنسة ماربل قائلة: ما أعنيه حقاً هو أن كل شيء هنا بدا -لا بد- فريداً غريباً بالنسبة للشاب وولتر هدْ.

سيروكولد: نعم، فهمت قصدك. إن لوولتر -بالتأكيد- سجلاً حربياً رائعاً، ما من شكٍ في شجاعته.

- ولكن ذلك لا يفيدنا في شيء؛ لأن الحرب شيء والحياة اليومية شيء آخر مختلف تماماً. وحتى ترتكب جريمة قتل فعلية فإنك تحتاج الشجاعة كما أعتقد، أو ربما تحتاج -بالأحرى- غروراً فقط. نعم... مجرد غرور.

- ولكني لا أكاد أستطيع القول بأن لوولتر هَدْ دافعاً كافياً لذلك.

- حقاً؟ إنه يكره هذا المكان، وهو يريد الرحيل ويريد أن يأخذ جينا بعيداً عن هنا. وإن كان المال هو ما يريده فسيكون من المهم أن تحصل جينا على كل الأموال قبل أن... قبل أن تطور علاقة نهائية مع شخص آخر.

قال لويس بصوت تملؤه الدهشة: تطور علاقة مع شخص آخر!

تعجبت الآنسة ماربل من غفلة المصلحين الاجتماعيين المتحمسين وقالت: نعم، هذا ما قلته. إن ستيفن وأليكس ريستاريك -كليهما- يحبانها كما تعلم.

أجاب سيروكولد وهو شارد الذهن: أوه، لا أظن ذلك. إن ستيفن قيّم بالنسبة لنا، قيم جداً. لقد كانت له طريقة رائعة ليجعل هؤلاء الفتية يتحسنون ويتحمسون ويهتمون. لقد قدموا عرضاً رائعاً في الشهر الماضي، بديكوراته وأزيائه وكل شيء. وهذا يُظهر تماماً -كما كنت دوماً أقول لمافيريك- أن نقص الدراما في حياتهم هو الذي يقود هؤلاء الصبية إلى الجريمة. إن تقديم الذات درامياً غريزة طبيعية من غرائز الطفل. ويقول مافيريك: "نعم، صحيح".

ثم توقف لويس فجأة وقال: أريد من مافيريك أن يقابل المفتش كيري بشأن إدغار. الأمر كله سخيف جداً في الواقع.

الآنسة ماربل: ما الذي تعرفه حقاً عن إدغار لاوسن يا سيد سيروكولد؟

أجاب سيروكولد مؤكداً: كل شيء... أي أنني أعرف كل شيء يحتاج المرء لمعرفته؛ خلفيته الأسرية، نشأته، النقص المتجذر في ثقته بنفسه...

قاطعته الآنسة ماربل سائلة: أليس بوسع إدغار لاوسن أن يقوم بتسميم السيدة سيروكولد؟

سيروكولد: يصعب افتراض ذلك. إنه لم يأت إلى هنا إلاّ منذ بضعة أسابيع، والافتراض سخيف على أية حال! فلماذا يرغب إدغار في تسميم زوجتي؟ وماذا عساه يستفيد من فعل ذلك؟

– أعرف أنه ما من فائدة مادية، ولكن ربما كان لديه... سبب غريب ما؛ فهو نفسه غريب الأطوار كما تعلم.

– هل تعنين أنه غير متزن؟

– أظن ذلك. لا، لا، ليس ذلك بالضبط. ما أعنيه هو أنه خطأ كله.

لم يكن ذلك تعبيراً جلياً دقيقاً عما تشعر به، ولكن لويس سيروكولد قبل الكلمات بمعناها المباشر المجرد، وقال متنهداً: نعم، إنه خطأ كله... الفتى المسكين، مع أنه كان يبدي تحسناً ملحوظاً تماماً. لا أستطيع أن أفهم سبب تعرضه لهذه الانتكاسة المفاجئة.

انحنت الآنسة ماربل للأمام بلهفة وقالت: نعم، هذا ما كنت أعجب منه. إن كان...

وتوقفت عندما دخل المفتش كيري إلى الغرفة.

* * *

الفصل الثاني عشر

خرج لويس سيروكولد من الغرفة، وجلس المفتش كيري موجهاً ابتسامة غريبة بعض الشيء للآنسة ماربل، ثم قال: إذن فإن السيد سيروكولد كان يطلب منك أن تقومي بدور العين الساهرة...

أجابت الآنسة ماربل بلهجة اعتذار: نعم، إن كنت لا تمانع في ذلك...

المفتش: أنا -شخصياً- لا أمانع، وأظنها فكرة جيدة جداً. هل يعرف السيد سيروكولد تماماً مدى أهليتك لهذا الموقع.

الآنسة ماربل: لا أعرف تماماً ما تعنيه أيها المفتش.

– أنا أعرف. إنه يظن أنك مجرد سيدة لطيفة جداً كانت في المدرسة مع زوجته.

ثم هز رأسه بالنفي وأضاف: إننا نعرف أنك أكثر قليلاً من ذلك يا آنسة ماربل، أليس كذلك؟ إن الجريمة هي حقل اهتمامك المفضل. إن السيد سيروكولد لا يعرف إلاّ جانباً واحداً من جوانب

الجريمة، هو جانب المبتدئين الذين هم «مشاريع مجرمين»... ذلك يصيبني بالقرف أحياناً. ربما كنت مخطئاً وذا عقلية قديمة الطراز، ولكن حولنا كثيراً من الصبية الجيدين الشرفاء، صبية يمكن أن ينجحوا إذا ما وفرت لهم فرصة ليبدؤوا حياتهم. ولكن -مع ذلك- على الشرف أن يكافئ نفسه بنفسه؛ فأصحاب الملايين لا يتركون أموالهم لمساعدة ذوي القيمة. حسناً، حسناً... لا تلقي بالاً لكلامي؛ فأنا من الطراز القديم. لقد رأيت فتياناً وفتيات وقف كل شيء في وجههم: بيوت سيئة، وحظ عاثر، وكل ما يمكن تخيله من معوقات... ومع ذلك كانت لديهم الشجاعة ليشقوا طريقهم بنجاح. ذلك هو النوع الذي سأترك له ثروتي... إن كان لي أن أجمع أية ثروة، ولكن ذلك ما لن أستطيع فعله بالطبع؛ فلن يكون لديّ إلا راتبي التقاعدي وحديقة صغيرة جميلة!

ثم هز لها رأسه وقال: لقد حدثني عنك مديري السيد بلاكر ليلة أمس، وقال إن لديك خبرة واسعة في الجانب الأسوأ من الطبيعة البشرية. لنسمع وجهة نظرك. مَن -برأيك- السوسة التي تنخر هذا الخشب؟ الزوج العسكري الأمريكي؟

الآنسة ماربل: ذلك سيكون مناسباً جداً للجميع.

ابتسم المفتش كيري لنفسه بهدوء وقال: من الطبيعي أنني متحامل عليه؛ فأسلوبه وأخلاقه لا تساعد في استبعاده. دعينا ننظر للأمر كهواة: من الذي كان يَسُمُّ السيدة سيروكولد بشكل سري ومنتظم؟

الآنسة ماربل: حسناً، يميل المرء دائماً -وهو يضع في حسابه حقيقة الطبيعة البشرية- إلى التفكير بالزوج، وإن كان الوضع معكوساً فبالزوجة. ذلك هو الافتراض الأول في قضية تسميم من هذا النوع، ألا تعتقد ذلك؟

المفتش: أتفق معك تماماً.

- ولكن في هذه القضية فعلاً...

وهزت رأسها بالنفي، ومضت قائلة: لا، بصراحة لا أستطيع جدياً أن أفكر في السيد سيروكولد كاحتمال؛ لأنه -كما ترى أيها المفتش- متعلق حقاً بزوجته. من الطبيعي أنه يمكن أن يقدم عرضاً زائفاً بهذا الشأن، ولكن الأمر ليس عرضاً أو تمثيلاً. إنه هادئ جداً، ولكنه أصيل. إنه يحب زوجته، وأنا واثقة تماماً أنه لم يكن يسمُّها.

المفتش: ناهيك عن حقيقة أنه لا يملك أي دافع للقيام بذلك؛ فقد حولت ملكية أموالها له من قبل.

قالت الآنسة ماربل بتأنق: توجد -بالطبع- أسباب أخرى تجعل الرجل راغباً في إزاحة زوجته عن الطريق، كتعلقه بامرأة شابة مثلاً. ولكنني حقاً لا أرى أية مؤشرات على ذلك في هذه القضية؛ فالسيد سيروكولد لا يتصرف كما لو كان لديه أي انشغال رومانسي. أخشى -فعلاً- أن نكون مضطرين لاستبعاده.

قالت جملتها الأخيرة وكأنها آسفة فعلاً لذلك.

المفتش: أمر مؤسف، أليس كذلك؟

ثم ابتسم مكشراً وقال: وفي كل حال ليس معقولاً أن يكون قد قتل غولبراندسن... يبدو لي أنه ما من شك في أن كل أمر يعتمد على الأمر الآخر، فالذي يَسُمُّ السيدة سيروكولد -كائناً من كان- هو الذي قتل غولبراندسن لمنعه من إخراج ما في جعبته. إن ما ينبغي أن نسعى إليه الآن هو معرفة من كانت لديه الفرصة لقتل غولبراندسن ليلة أمس. ومشبوهنا الثمين هنا هو -دون شك- الشاب وولتر هَدْ؛ فهو الذي أضاء مصباح القراءة مما تسبب في تماس كهربائي، فغنِم الفرصة لمغادرة الصالة والذهاب إلى علبة الموصلات الكهربائية. وعلبة الموصلات موجودة في الممر المحاذي للمطبخ، المتفرع عن الممر الرئيس. وقد تم سماع الطلقة أثناء غيابه، ولذلك فهو المشبوه رقم «١»، الذي يؤهله موقعه تماماً لارتكاب الجريمة.

الآنسة ماربل: ومن هو المشبوه رقم «٢» ؟

المفتش: المشبوه رقم «٢» هو أليكس ريستاريك الذي كان وحدَه في سيارته بين البوابة الخارجية والبيت، وقضى وقتاً طويلاً في الوصول إلى البيت.

انحنت الآنسة ماربل إلى الأمام بلهفة وقالت: "هل من أحد آخر؟". ثم لم يفتها أن تضيف: لطيف جداً منك أن تخبرني بكل ذلك!

المفتش: إنه ليس لطفاً؛ فأنا بحاجة للحصول على مساعدة

منك. لقد وضعت يدك على السؤال المهم عندما قلت "هل من أحد آخر؟"؛ لأنني -في هذا المجال- مضطر للاعتماد عليك، فأنت التي كنت هناك في الصالة ليلة أمس، وأنت من يستطيع أن يخبرني من الذي غادرها...

- نعم، يجب أن أكون قادرة على إبلاغك بذلك. ولكن، هل أستطيع ذلك؟ فأنت تدري... كانت الظروف غريبة...

- هل تعنين بأنكم كنتم جميعاً تصغون إلى الجدال الدائر خلف باب مكتب السيد سيروكولد؟

هزت الآنسة ماربل رأسها موافقة بحماسة، وقالت: نعم، في الحقيقة كنا جميعاً في غاية الخوف؛ فقد بدا السيد لاوسن حقاً وقد فقد عقله تماماً، ما عدا السيدة سيروكولد التي بدت غير متأثرة أبداً. كنا جميعاً خائفين أن يسبّب إدغار أذى للسيد سيروكولد. كان يصرخ ويتفوه بأفظع العبارات، وكان بوسعنا أن نسمعها بوضوح شديد، وفي هذا الجو، وفي ظل انطفاء معظم المصابيح، لم أنتبه حقاً لأي شخص آخر.

- أتعنين أنه بينما كان ذلك المشهد جارياً كان بوسع أي أحد أن يخرج متسللاً من الغرفة، ويعبر الممر، ويطلق النار على السيد غولبراندسن ويتسلل عائداً مرة أخرى؟

- أظن أن ذلك كان ممكناً...

- هل تستطيعين أن تحددي بشكل جازم من هم الذين

بقوا في الصالة الكبرى طوال الوقت؟

فكرت الآنسة ماربل ثم قالت: أستطيع القول بأن السيدة سيروكولد بقيت لأنني كنت أراقبها. كانت تجلس قريبة تماماً من باب المكتب ولم تتحرك أبداً من مقعدها، وقد أدهشتني قدرتها على البقاء هادئة إلى ذلك الحد.

المفتش: والآخرون؟

- الآنسة بيليفر خرجت، ولكنني أظن... بل أكاد أكون واثقة بأن خروجها كان بعد صوت الطلقة. أما ميلدريد فإنني حقاً لا أدري، إذ أنها كانت تجلس خلفي. جينا كانت عند النافذة البعيدة، وأعتقد أنها بقيت هناك طوال الوقت، ولكني لا أستطيع الجزم بذلك بالطبع. كان ستيفن جالساً إلى البيانو، وقد توقف عن العزف عندما أخذ الشجار يحمي وطيسه...

- ينبغي ألاّ يضللنا الوقت الذي سمعتم فيه الطلقة؛ فهذه حيلة تم استخدامها من قبل... يلفقون طلقة زائفة بحيث يتم تحديد وقت وقوع الجريمة، ويكون ذلك التحديد خاطئاً. إن كانت الآنسة بيليفر قد «طبخت» حيلة من هذا النوع (رغم غرابة الفكرة، إلاّ أن الإنسان لا يدري...) فمن شأنها عندئذٍ أن تغادر القاعة -كما فعلت- على مرأى من الجميع بعد سماع الطلقة. لا، إننا لا نستطيع اعتماد الطلقة دليلاً حاسماً. الفسحة الزمنية تمتد بين مغادرة كريستيان غولبراندسن للصالة ولحظة عثور الآنسة بيليفر عليه ميتاً، ولا نستطيع أن نستبعد إلاّ أولئك

الناس الذين نعرف أنهم لم تسنح لهم الفرصة لارتكاب الجريمة، وهذا ينحصر في لويس سيروكولد والشاب إدغار لاوسن اللذين كانا في المكتب، والسيدة سيروكولد في الصالة. إنه لمن سوء الحظ -طبعاً- أن يقتل غولبراندسن في نفس الأمسية التي حدث فيها ذلك الشجار بين سيروكولد وذلك الشاب لاوسن.

الآنسة ماربل: مجرد سوء حظ باعتقادك؟

المفتش: آه! ماذا ترين؟

- لقد خطر لي بأن ذلك الشجار ربما كان مرتّباً.

- إذن فهذا رأيك؟

- حسناً، لقد بدا الجميع مستغربين كثيراً من تعرض إدغار لانتكاسة مفاجئة تماماً كتلك. إن لديه تلك العقدة الغريبة (كائناً ما كان المصطلح الذي يطلق عليها) حول أبيه المجهول، مثل ونستون تشرتشل، والفيسكونت مونتغمري... وكل هذا وارد تماماً في مثل حالته العقلية، يختار أي رجل مشهور يخطر في باله. ولكن لنفترض أن أحداً وضع في رأسه فكرة أن لويس سيروكولد هو حقاً والده، وأن لويس سيروكولد هو الذي كان يلاحقه ويضطهده، وأن له الحق في أن يكون الأمير المتوج على ستوني غيتس بأكمله... وفي مثل حالته العقلية الضعيفة فإنه سيستقبل هذه الفكرة، ويُحمّي نفسه حتى يصل إلى حالة سعار. وعاجلاً أو آجلاً سيقدّم مثل ذلك المشهد الذي قدمه.

ويا لذلك من ستار رائع! سيكون انتباه الجميع مركزاً على الوضع الخطير الذي يتفاقم، وخاصة إذا كان أحد من الفطنة بحيث يزوده بمسدس.

- هممم، نعم... مسدس وولتر هذ.

- آه، نعم، لقد فكرت في ذلك. ولكن، أتدري؟ صحيح أن وولتر صموت غير اجتماعي وهو بالتأكيد نكد المزاج فظ التعامل، ولكنني لا أعتقد حقاً بأنه غبي.

- إذن فأنت لا تعتقدين أنه وولتر؟

- أعتقد أن الجميع سيشعرون بارتياح كبير إن كان الفاعل هو وولتر؛ وذلك لأنه من خارج العائلة، رغم أن ذلك يبدو أمراً في منتهى القسوة.

- ماذا عن زوجته؟ هل كانت ستشعر بارتياح أيضاً؟

لم تجب الآنسة ماربل. كانت تفكر في جينا وستيفن وهما يقفان معاً كما رأتهما في يومهما الأول. وفكرت في الطريقة التي توجهت بها عينا أليكس ريستاريك فوراً إلى جينا عند دخوله الصالة ليلة أمس. ترى ما هو موقف جينا الخاص؟

* * *

بعد ساعتين من ذلك مال المفتش كيري بكرسيه إلى الخلف وتمطى وتنهد قائلاً: حسناً، لقد تقدمنا مسافة لا بأس بها.

وافقه الرقيب ليك وقال: إن الخدم بعيدون عن الشبهة؛ فقد كانوا معاً طوال الفترة الحرجة... أعني الذين يبيتون هنا، أما أولئك الذين لا يقطنون في المنزل فقد غادروه قبل ذلك.

هز كيري رأسه موافقاً. كان يعاني من إرهاق ذهني. كان قد حقق مع المعالجين النفسيين، ومع أعضاء من ملاك التدريس، ومع من أسماهما «الشقيين الشابين» اللذين كان الدور عليهما في العشاء مع العائلة في تلك الليلة. كانت جميع قصصهم مترابطة منسجمة ومُختبرة بحيث كان بوسعه أن يلغيها جميعاً. كانت أنشطتهم وعاداتهم من ذلك الطراز الذي يميز مجموعة اختارت الحياة الجماعية المشتركة. لم تكن بينهم نفوسٌ منعزلة موحشة، الأمر الذي كان مفيداً لأغراض الدفع بالغيبة عن مكان الجريمة. كان المفتش كيري قد ترك الدكتور مافيريك حتى النهاية، وهو يرى أن مافيريك كان هو الشخص الرئيس المسؤول عن المعهد.

قال المفتش بصوت عالٍ: ولكننا سنراه الآن يا ليك.

وهكذا دخل الطبيب الشاب بنشاط، أنيقاً مهندماً، وشيء من عدم الإنسانية يتخايل خلف نظارته.

أكد مافيريك روايات العاملين تحت إمرته، ووافق على النتائج التي توصل إليها المفتش كيري. لم يكن في الموضوع إهمالٌ، ولا ثغرات في حصانة الكلّية. ولا يمكن إلقاء التبعة في موت غولبراندسن على «المرضى الصغار» كما كاد كيري أن يسميهم وقد أصبح مأخوذاً جداً بالجو الطبي المحموم حوله.

قال مافيريك وعلى وجهه ابتسامة صغيرة: ولكن المرضى يبقَوْن مرضى أيها المفتش.

كانت ابتسامته تشي بالإحساس بالتفوق، ولم يكن من شأن المفتش كيري أن يسمّى إنساناً إن لم يغضب قليلاً من تلك الابتسامة. قال بلهجة المحترفين: والآن، بخصوص تحركاتك الخاصة يا دكتور مافيريك؟ هل بوسعك أن تذكرها لي بالتفصيل؟

- بالتأكيد؛ لقد كتبتها لك مع أوقاتها التقريبية.

ذكر الدكتور مافيريك أنه غادر الصالة الكبرى في الساعة التاسعة والربع مع السيد ليسي والدكتور بومغارتن، وقد ذهبوا إلى جناح هذا الأخير حيث بقي الثلاثة يناقشون سبلاً معينة في العلاج حتى جاءت الآنسة بيليفر على عجل وطلبت من الدكتور مافيريك أن يذهب إلى الصالة الكبرى. كان ذلك في الساعة التاسعة والنصف تقريباً. وقد ذهب فوراً إلى الصالة ووجد إدغار لاوسن في حالة انهيار.

تململ المفتش كيري قليلاً وقال: لحظة يا دكتور مافيريك.. هل يشكل هذا الشاب -برأيك- حالة مرضية عقلية أكيدة؟

ابتسم الدكتور مافيريك ابتسامته المتفوقة ثانية وقال: كلنا نمثل حالات مرض عقلي أيها المفتش.

جواب غبي! هذا ما فكر فيه المفتش؛ فهو يعلم تمام العلم أنه ليس حالة مرضية عقلية، كائناً ما كانت حالة الدكتور مافيريك!

المفتش: أهو مسؤول عن أفعاله؟ هل يعرف ماذا يفعل؟

مافيريك: يعرف تماماً.

- إذن فإنها كانت بالتأكيد محاولة قتل عندما أطلق النار على السيد سيروكولد من ذلك المسدس.

- لا، لا أيها المفتش. لا شيء من ذلك القبيل.

- كيف يا دكتور مافيريك؟ لقد رأيت الحفرتين اللتين خلّفتهما الرصاصتان في الجدار، ولا بد أنهما مرتا بشكل خطير قرب رأس السيد سيروكولد.

- ربما. ولكن لم يكن في نية لاوسن أن يقتل السيد سيروكولد أو حتى يجرحه. إنه يحب السيد سيروكولد كثيراً.

المفتش: تبدو طريقةً غريبة في إظهار المحبة!

ابتسم الدكتور مافيريك ثانية، ووجد المفتش كيري تلك الابتسامة صعبة الاحتمال.

مافيريك: إن كل ما يفعله المرء مقصود. في كل مرة تنسى فيها أيها المفتش اسماً أو وجهاً ما، فإنما يكون ذلك لأنك تتمنى نسيانه لاشعورياً.

نظر إليه المفتش غيرَ مصدق، ولكنه مضى قائلاً: في كل مرة تبدر منك زلة لسان، يكون لتلك الزلة معنى. لقد وقف إدغار لاوسن على بعد بضعة أقدام من السيد سيروكولد وكان

بوسعه أن يطلق عليه النار ويقتله بسهولة، ولكنه -بدلاً من ذلك- أخطأه. فلماذا أخطأه؟ لأنه أراد أن يخطئه.. الأمر بهذه البساطة! لم يكن السيد سيروكولد معرضاً لأي خطر، والسيد سيروكولد نفسه كان واعياً تماماً لتلك الحقيقة؛ فقد فهم حركة إدغار بمعناها الحقيقي تماماً.. حركة تحدٍّ وسخط ضد العالم الذي أنكر عليه الحاجات البسيطة لحياته كطفل، أي الأمن والحب.

المفتش: أظن أنني أرغب في رؤية هذا الشاب.

- بالتأكيد إن كنت ترغب. لقد كان لانفجاره ليلة أمس تأثير تنفيسي مهدئ، وقد طرأ عليه تحسن هائل اليوم، وسوف يكون السيد سيروكولد سعيداً جداً بذلك.

حدق المفتش كيري فيه بإمعان، ولكن الدكتور مافيريك كان جاداً كعادته.

تنهد المفتش كيري وسأل: هل لديك زرنيخ؟

مافيريك: زرنيخ؟

بدا أن السؤال فاجأ الدكتور مافيريك تماماً. كان واضحاً أنه سؤال غير متوقع.

مافيريك: يا لهذا السؤال الغريب! لماذا الزرنيخ؟

المفتش: أجبني على السؤال فقط من فضلك.

- لا، ليس لدي زرنيخ من أي نوع.

- ولكن لديك بعض العقاقير، أليس كذلك؟

- آه، بالتأكيد. مهدئات، مورفين، والمسكنات الأخرى.. العقاقير المعتادة.

- هل تشرف صحياً على السيدة سيروكولد؟

- لا، فالدكتور غنتر من ماركت كيمبل هو طبيب العائلة. إن لديّ درجة طبيب بالطبع، ولكنني لا أمارس إلاّ الطب النفسي.

- نعم، فهمت. حسناً، شكراً جزيلاً يا دكتور مافيريك.

وعندما خرج الدكتور مافيريك تمتم المفتش كيري قائلاً لمساعده ليك بأن الأطباء النفسانيين يسببون له ألماً في عنقه، ثم قال: حسناً، لنأتِ إلى العائلة. سأرى الشاب وولتر هَدْ أولاً.

كان تصرف وولتر هَدْ يوحي بالحذر والقلق. بدا أنه يتفحص ضابط الشرطة بشيء من الاحتراس واليقظة، ولكنه كان متعاوناً تماماً: في ستوني غيتس الكثير من الأسلاك المتضررة، وكانت التمديدات الكهربائية برمتها من الطراز القديم جداً. ولم يكن أحد ليصبر على تمديدات كهربائية كهذه في أمريكا.

قال المفتش كيري وعلى وجهه ابتسامة باهتة: أعتقد أن تلك التمديدات قام بها الراحل غولبراندسن في وقت كانت فيه الأنوار الكهربائية صرعة جديدة.

وولتر: أظن ذلك! بيت إنكليزي قديم من عهد الإقطاع،

ولم يتم تحديثه.

كانت الصمامة الكهربائية التي تتحكم بأغلب مصابيح الصالة الكبرى قد أصابها مسّ كهربائي، وقد خرج وولتر إلى علبة الصمامة ليفحصها. وقد أصلحها وعاد إلى الصالة.

المفتش: كم اقتضى غيابك عن الصالة؟

وولتر: ذلك ما لا أستطيع تحديده بشكل أكيد؛ فعلبة الصمامات كانت في مكان فظيع، وقد اضطررت لتدبير سلم وشمعة للوصول إليها. ربما أكون قد قضيتُ عشر دقائق أو ربما ربع ساعة.

– هل سمعت طلقة نارية؟

– كلا، لم أسمع شيئاً كهذا؛ إذ توجد أبواب مزدوجة تفضي إلى جناح المطبخ، وأحد هذه الأبواب مغلف بنوع من اللباد.

– آه! فهمت. وعندما عدت إلى الصالة، ما الذي رأيته؟

– كانوا جميعاً محتشدين حول الباب المفضي إلى مكتب السيد سيروكولد، وقالت السيدة ميلدريد إن السيد سيروكولد قد أصيب بطلق ناري، ولكن الأمر لم يكن كذلك عملياً. كان السيد سيروكولد على ما يرام، إذ كان المعتوه قد أخطأه.

– هل عرفت المسدس؟

– طبعاً عرفته! لقد كان مسدسي.

– متى رأيته آخر مرة؟

– قبل يومين أو ثلاثة.

– وأين تحتفظ به؟

– في الدرج، في غرفتي.

– ومن يعرف بأنك تحتفظ به هناك؟

– ليس بوسعي تحديد مَنْ يعرفُ ماذا في هذا البيت.

– ما الذي تعنيه بذلك يا سيد هَدْ؟

– آه، كلهم مجانين!

– عندما عدت إلى الصالة، هل كان جميع الباقين هناك؟

– ماذا تعني بجميع الباقين؟

– نفس الأشخاص الذين كانوا هناك عندما ذهبت لتصلح المسَّ الكهربائي.

– كانت جينا هناك، والمرأة العجوز ذات الشعر الأبيض، والآنسة بيليفر... لم أنتبه بشكل محدد، ولكنني أرجح ذلك.

– السيد غولبراندسن وصل بشكل مفاجئ تماماً يوم أمس الأول، أليس كذلك؟

– أعتقد ذلك... لم يكن هذا من دأبه كما فهمت.

– هل بدا أي شخص منزعجاً لقدومه؟

استغرق وولتر هَدْ لحظات قبل أن يجيب قائلاً: كـلا، لا أظن ذلك.

مرة أخرى كان في أسلوبه شيءٌ من الحذر.

المفتش: هل لديك أية فكرة عن سبب قدومه؟

– أحسبه جاء بسبب معهدهم الثمين هذا. التركيبة كلها مجنونة هنا!

– هل لديكم مثل هذه «التركيبات» –كما أسميتها– في الولايات المتحدة؟

– يوجد فرق بين وقف أموال لخدمة مشروع معين، وبين إعطاء ذلك المشروع مثل هذه اللمسة والحدب الشخصيين كما يفعلون هنا. لقد رأيت ما يكفيني من المحللين النفسيين في الجيش، وهذا المكان يغص بهم.. لمجرد تعليم السفاحين الصغار كيف يصنعون سلال الليف أو ينقشون حاملات الغلايين. ألعاب أطفال وأعمال مخنثين!

لم يعلق المفتش كيري على هذه الانتقادات، فربما كان يتفق معها. قال وهو ينظر إلى وولتر بإمعان: إذن فليس لديك فكرة عمن يمكن أن يكون قد قتل السيد غولبراندسن؟

وولتر: ما أظنه إلاّ واحداً من هؤلاء الصبية العباقرة في الكلية، أَحَبَّ تجربة أساليبه.

المفتش: لا يا سيد هَدْ، هذا مستبعد كلياً؛ فالكلية –على الرغم من جو الحرية الذي تم إيجاده بكل حرص– هي أقرب ما تكون إلى معتقل، وهي تدار على هذا الأساس. لا أحد يستطيع أن يدخلها أو يخرج منها بعد حلول الظلام ليرتكب جرائم قتل.

وولتر: ما كنتُ لأضعَ شكوكي بعيداً عنهم! حسناً، إن كنت تريد أن تقرب الأمر إلى المنزل، فإنني أعتقد بأن أفضل رهان لك هو أليكس ريستاريك.

المفتش: لماذا تقول ذلك؟

– لقد كانت لديه الفرصة؛ فلقد قاد سيارته وحيداً عبر الحديقة.

– ولماذا يقدم على قتل كريستيان غولبراندسن؟

رفع وولتر كتفيه بعدم اهتمام وقال: إنني غريب هنا ولا أعرف تركيبات العائلة. ربما كان غولبراندسن العجوز قد سمع شيئاً عن أليكس وكان يريد أن يفضي بمعلوماته لعائلة سيروكولد.

– وماذا عساه ينتج عن ذلك؟

– ربما قطعوا عنه المال. إن بوسعه الآن أن يستخدم المال، وقد استخدم الكثير منه بالفعل.

- تعني في المشاريع المسرحية؟

- أهكذا يسميها؟

- هل تريد الإيحاء بأنها كانت غير ذلك؟

- أنّى لي أن أعرف؟!

* * *

الفصل الثالث عشر

كان أليكس ريستاريك مهذاراً، كما أنه كان يعطي إشارات بيديه مع كلامه.

أليكس: أدري، أدري! أنا المشبوه المثالي؛ فقد قدت سيارتي إلى هنا بمفردي، وفي طريقي إلى المنزل انتابتني نوبة إبداع. لا يمكنني أن أتوقع منك فهم ذلك، إذ كيف لك أن تفهم؟

قال المفتش كيري بتحفظ: ربما تفهمت.

مضى أليكس ريستاريك في كلامه لا يلوي على شيء: كانت مجرد واحدة من تلك النوبات! نوبات تأتيك دون أن تدري متى أو كيف. تأثير ما.. فكرة ما، وكل شيء عداها تأخذه الرياح! إنني أنتج مسرحية كي تعرض الشهر القادم. فجأة، ليلة أمس، بدا لي الديكور رائعاً، والتمعتْ أمامي الإضاءة المثالية. الضباب، والأضواء الأمامية تقطع الضباب وتلقيه خلفها، وانعكاس لا يكاد يبين لكومة عالية من الأبنية. كان كل عنصر يساعد في استكمال الصورة! الطلقات، الخطوات الراكضة، وطقطقة

المحرك ذي الطاقة الكهربائية، الذي ربما كان محرك زورق في نهر التيمز. وفكرت بأنني قد وجدتها، ولكن ما الذي ينبغي أن أستعلمه للحصول على تلك المؤثرات نفسها؟ ثم...

قاطعه المفتش كيري قائلاً: هل سمعت طلقات، وأين؟

قال أليكس: "خرجت من الضباب أيها المفتش". ثم لوح بيديه في الهواء وأضاف: من الضباب... وذلك كان الجانب الرائع في الأمر.

المفتش: ألم يخطر ببالك أنّ شيئاً ما قد لا يكون على ما يرام؟

– لا يكون على ما يرام؟ ولماذا يكون كذلك؟

– هل سماع الطلقات مسألة عادية إلى هذا الحد؟

– آه، لقد عرفت أنك لن تفهمني. لقد كانت الطلقات مناسبة تماماً للمشهد الذي كنت أبدعه. لقد أردت الطلقات... سواء كانت خطراً أو عملاً جنونياً، وما هي في طبيعتها حقاً؟ ربما كانت تعطيس شاحنة على الطريق؟ صياداً يجري خلف الأرانب؟

– إنهم غالباً ما ينصبون الشباك للأرانب هنا.

– طفلاً يطلق ألعاباً نارية؟ إنني لم أفكر فيها لكونها طلقات. كنت أعيش داخل المسرحية، أو بالأحرى خلف المقاعد، أنظر

إلى المسرحية.

سأله المفتش: كم طلقة سمعت؟

أجاب أليكس بفظاظة: لا أدري... اثنين أو ثلاثة. اثنتين أطلقتا معاً. أتذكّر ذلك بالفعل.

هز المفتش كيري رأسه وقال: وصوت الخطوات الراكضة؟ أظنك قلت ذلك. أين كانت؟

أليكس: تناهت إليّ الأصوات من وسط الضباب... في مكان ما قرب المنزل.

قال المفتش كيري بلطف: هذا يشير إلى أن قاتل السيد غولبراندسن جاء من الخارج.

أليكس: بالطبع، ولم لا؟ لا أظنك تعني حقاً بأنه جاء من داخل المنزل؟

قال المفتش كيري بلطف بالغ أيضاً: نحن مضطرون للتفكير في كل احتمال.

قال أليكس ريستاريك بأريحية: نعم، أفترض ذلك. كم هي مرهقة للروح بلا شك وظيفتك أيها المفتش! بكل التفاصيل والأوقات والأماكن، والصغائر التافهة المرتبطة بكل ذلك. وفي النهاية، ما الفائدة من ذلك كله؟ هل له أن يعيد كريستيان غولبراندسن البائس للحياة ثانية؟

المفتش: إنّ في القبض على المجرم رضىً كافياً يا سيد ريستاريك.

أليكس: آه، كما في أفلام رعاة البقر حيث يغيب، القانون!

– هل كنت تعرف السيد غولبراندسن جيداً؟

– ليس إلى الحد الذي يكفي لأقتله أيها المفتش. كنت أقابله من وقت لآخر منذ كنت أعيش هنا صبيّاً. كان يظهر أحياناً لفترات قصيرة هنا. إنه أحد أقطاب الصناعة عندنا، وهذا النوع من الناس لا يثير اهتمامي. أعتقد أن لديه مجموعة كاملة من تماثيل النحّات ثوروالدسن، وذلك يشي بطبيعة شخصيته، أليس كذلك؟ يا إلهي، ويا لهؤلاء الأثرياء!

تأمله المفتش كيري بإمعان، ثم قال: هل لديك أية اهتمامات بالسموم يا سيد ريستاريك؟

أليكس: بالسموم؟ يا للرجل المسكين! من المؤكد أنه لم يتم تسميمه قبل إطلاق النار عليه، فسيكون ذلك موضوعاً لرواية بوليسية متطرفة في جنونها.

– إنه لم يسمم... ولكنك لم تجب عن سؤالي.

– إن للسم إغراءً معيناً؛ فليست فيه فظاظة رصاصة المسدس أو الأدوات الجارحة، ولكن ليس لي معرفة خاصة بالموضوع.. إن كان ذلك ما تعنيه بسؤالك.

– هل امتلكت –من قبلُ– مادة الزرنيخ أو كانت بحوزتك على الإطلاق؟

– تعني إن كنت قد وضعته في الشطائر، بعد العروض المسرحية؟ إن لهذه الفكرة إغراءاتها. لا أظنك تعرف روز غليدون؟ من تلك الممثلات اللائي يحسبن أن لهن اسماً مدوياً! كلا، لم أفكر أبداً بالزرنيخ. أعتقد أن المرء يستخلصه من مبيدات الأعشاب الضارة أو الورق المسمم لقتل الذباب، أليس كذلك؟

– ما مدى ترددك إلى هنا يا سيد ريستاريك؟

– يختلف الأمر حسب الظروف أيها المفتش. أحياناً لا آتي لعدة أسابيع، ولكنني أحاول أن آتي إلى هنا في عطل نهاية الأسبوع كلما استطعت ذلك. لقد اعتبرت ستوني غيتس –دوماً– بيتي الحقيقي.

– وهل شجعتك السيدة سيروكولد على ذلك؟

– إن ما في عنقي للسيدة سيروكولد لا يمكن الوفاء به، العطف والتفهم والحب...

قال المفتش: والكثير من الأموال النقدية أيضاً كما أعتقد؟

بدا أليكس وكأنه اشمئز قليلاً وقال: إنها تعاملني كابنٍ لها، وهي تؤمن بعملي.

المفتش: هل تحدثتْ معك عن وصيتها من قبل؟

– بالتأكيد. ولكن هل لي أن أسأل عن الغرض من كل هذه الأسئلة أيها المفتش؛ فالسيدة سيروكولد لم يُصبْها أي مكروه.

قال المفتش بتجهم: من الأفضل أن لا يحدث لها مكروه.

قال أليكس: والآن، ما الذي قد تعنيه بذلك؟

– إن كنت لا تعرف فذلك أفضل بكثير، وإن كنت تعرف فإنني أحذرك.

عندما خرج أليكس قال الرقيب ليك: إنه مخادع كبير، ما قولك؟

هز المفتش كيري رأسه حيرة وقال: يصعبه الحزم. ربما كانت لديه موهبة خلاقة أصيلة، وقد يكون من أولئك الذين يحبون حياة النعيم والتبجح بالكلام. لا يستطيع المرء أن يجزم بشيء. يقول إنه سمع صوت خطوات هاربة، أليس كذلك؟ سأكون مستعداً للمراهنة على أنه اخترع ذلك من عنده.

ليك: هل من سببٍ خاص لذلك؟

المفتش: لا بد من سبب خاص بالتأكيد. لم نأت على ذلك بعد، ولكننا سنأتي إليه.

– في النهاية يا سيدي، ربما يكون أحد أولئك الصبية الماكرين قد خرج من مباني الكلية دون أن يدري أحد بذلك. ربما كان بينهم بعض اللصوص الذين يتسورون البيوت، وإن كان الأمر كذلك...

المفتش: هذا ما يراد لنا أن نعتقده. وهو اعتقاد مناسب تماماً، فإن كان الأمر كذلك يا ليك فسأكون مستعداً لأكل قبعتي الجديدة.

* * *

قال ستيفن ريستاريك: كنت جالساً إلى البيانو أداعب مفاتيحه عندما اندلع الشجار بين لويس وإدغار.

سأله المفتش: وماذا كان رأيك بذلك الشجار؟

ستيفن: حسناً... في الحقيقة أنا لم أعتبره أمراً جدياً أبداً؛ فذلك المتسكع المسكين تنتابه تلك النوبات من الغضب والحقد. إنه ليس مجنوناً حقاً، كل هذا الهراء الذي يقذفه هو نوع من إطلاق الأبخرة المكبوتة. الحقيقة هي أننا كنا جميعاً نثيره، وخصوصاً جينا بالطبع.

المفتش: جينا؟ تعني السيدة هَدْ؟ لماذا تثيره؟

– لأنها امرأة، وامرأة جميلة جداً، ولأنها تعتقد أنه مضحك! إنها نصف إيطالية كما تعلم، والإيطاليون لديهم ذلك العِرقُ اللاواعي من القسوة. ليس لديهم أي عطف تجاه أي شخص عجوز أو دميم أو غريب الأطوار بأي شكل، فهم يشيرون إليه بأصابعهم ويسخرون منه. هذا ما كانت تفعله جينا (وأنا أتحدث هنا على سبيل المجاز). لم تكن تطيق الشاب إدغار؛ فقد كان سخيفاً ومتبجحاً، وفي قرارة نفسه لم يكن -بشكل جوهري-

واثقاً من نفسه. كان يريد إبهار الآخرين في حين لـم ينجـح إلاّ في الظهور بمظهر الإنسان السخيف. لم تكـن المعاناة الكبيـرة لذلك الفتى اليائس لتعني لها أي شيء.

سأل المفتش: هل تلمِّحُ إلى أن إدغار يحب السيدة هَدْ؟

أجاب ستيفن بابتهاج قائلاً: أوه! نعم. في الحقيقة كلنا نحبها بشكل أو بآخر، وهي تحب ذلك منا!

– وهل يحب زوجها ذلك؟

– لا يعجبه ذلك. إنه يعاني... هذا المسكين، وذلك لا يمكن أن يستمر كما تعلم؛ أعني زواجهما. سرعان ما سينفصم عقده. كان مجرد علاقة من العلاقات التي تنشأ في الحرب.

– هذه أمور كلها مهمة، ولكننا نبتعد عن موضوعنا، وهو مقتل كريستيان غولبراندسن.

– صحيح، ولكنني لا أستطيع أن أخبرك بأي شيء عـن ذلك؛ فقد جلست إلى البيانو ولم أتركه حتى جاءت العزيـزة جولي إلى الصالة حاملة بعض المفاتيح القديمة الصدئة وحاولت تشغيلها على قفل باب المكتب.

– لقد بقيت جالساً إلى البيانو. هل ظللت تعزف عليه؟

– كموسيقى تصويرية عذبة لصراع الحياة والموت في مكتب لويس؟ كلا، لقد توقفت عن العزف عندما تصاعد إيقاع الشجار، رغم أنه لم تكن لدي أية شكوك فيما يتعلق بنتيجته

لأن لدى لويس ما لا أستطيع وصفه إلاّ بأنه عين ديناميكيـة. إنه يستطيع –بسهولة– تحطيم إدغار بمجرد النظر إليه.

– ومع ذلك فقد أطلق إدغار رصاصتين عليه.

هز ستيفن رأسه بنفي لطيف وقال: كان ذلك مجرد تمثيل لمشهد... كان يمتّع نفسه. كانت والدتي العزيزة معتادة على فعل ذلك. لقد ماتت عندما كنت في الرابعة من عمري، ولكنني أتذكرها وهي تنفجر غضباً والمسدس بيدهـا إن أزعجها أي شيء، وقد فعلت ذلك في نادٍ ليلي ذات يوم وتركـت آثار طلقات نارية على الجدار. كانت رامية ممتازة بالمسدس وقد سببت كثيراً من المتاعب. كانت راقصة روسية كما تعلم.

– نعم. هل لك أن تخبرني يا سيد ريستاريك: مـن غـادر الصالة ليلة أمس عندما كنت هناك، خلال الفترة المعنية؟

– غادرها وولتر لإصلاح الكهرباء، وجوليت بيليفر للعثـور على مفتاح يناسب باب المكتب. ولم يغادرها أحد آخر بحدود علمي.

– هل كنت ستنتبه لو غادرها أحد؟

فكر ستيفن لحظة ثم قال: ربما لم أكن لأنتبـه، أي لـو أن أحداً خرج متسللاً على رؤوس أصابعه وعاد بنفس الطريقة. كـان الجو معتماً في الصالة، وكان هناك الشجار الذي كنا جميعـاً نصغي إليه بكل انشداد.

– هل من أحد أنت متأكد أنه كان هناك طوال الوقت؟

– السيدة سيروكولد... نعم، وجينا. بوسعي أن أقسم على وجودهما.

قال المفتش: شكراً يا سيد ريستاريك.

مضى ستيفن باتجاه الباب، وهناك تردد قليلاً ثم عاد قائلاً: ما كل ذلك الحديث عن الزرنيخ؟

المفتش: من الذي ذكر لك الزرنيخ؟

– أخي.

– آه، نعم.

– هل كان أحدٌ ما يدس الزرنيخ للسيدة سيروكولد؟

– ولماذا تذكر السيدة سيروكولد تحديداً؟

– لقد قرأت عن أعراض التسمم بالزرنيخ. من مظاهره التهاب الأعصاب، أليس كذلك؟ إن ذلك يطابق -بشكل أو بآخر- الأعراض التي كانت تعاني منها مؤخراً، ثم جاء تدخل لويس لخطف دوائها المنشط وإبعاده عنها ليلة أمس. أهذا هو ما كان يجري هنا؟

أجاب المفتش كيري بأكثر أساليبه رسمية: القضية رهن البحث.

ستيفن: وهل تعلم هي نفسها بذلك؟

– لقد كان السيد سيروكولد حريصاً بشكل خاص على عدم... إقلاقها.

– «إقلاقها» ليست هي الكلمة الصحيحة أيها المفتش؛ فالسيدة سيروكولد لا تقلق أبداً... أهذا هو الدافع وراء مقتل كريستيان غولبراندسن؟ هل أدرك أنها كانت تُسمم؟ ولكن كيف له أن يكشف ذلك؟ على أية حال، الأمر كله يبدو غير ممكن؛ إنه أمر لا يدخل العقل.

– إنه أمر يدهشك كثيراً، أليس كذلك يا سيد ريستاريك.

– بلى، بالفعل. وعندما حدثني أليكس لم أكد أصدق الأمر.

– مَنْ تظنه يُحتمل أن يدس الزرنيخ للسيدة سيروكولد؟

ظهرت تكشيرةٌ خاطفة على وجه ستيفن ريستاريك الوسيم وقال: لا يمكن أن يقوم شخص عادي بذلك. تستطيع أن تستبعد الزوج؛ فليس لدى لويس سيروكولد ما يربحه من ذلك، وهو أيضاً يحب تلك المرأة حباً جارفاً ولا يستطيع تحمل وجود ألم في إصبعها الصغير.

المفتش: فمن إذن؟ هل لديك أية فكرة؟

– أوه، نعم، ويمكنني القول أنها كانت يقيناً.

– وضّح من فضلك.

هز ستيفن رأسه وقال: إنه يقين بالمعنى التفساني، وليس بأية طريقة أخرى. ليس لديّ دليل من أي نوع، وربما لا تتفق معي في ذلك.

خرج ستيفن ريستاريك من الغرفة بهدوء ورباطة جأش، فيما رسم المفتش كيري قططاً على الورقة البيضاء أمامه.

كان يفكر في أمور ثلاثة:

الأول: أن ستيفن ريستاريك معتد كثيراً بنفسه.

والثاني: أن ستيفن ريستاريك وأخاه يمثلان جبهة موحدة.

والثالث: أن ستيفن ريستاريك كان رجلاً وسيماً في حين أن وولتر هَدْ رجل دميم.

كما تساءل مع نفسه حول أمرين آخرين، أولاً: ما الذي عناه ستيفن بقوله: "بالمعنى النفساني"؟ وثانياً: هل كان ستيفن قد رأى جينا من مقعده أمام البيانو؟ وظن المفتش أنه لم يرها على الأغلب.

* * *

أدخلت جينا معها إلى كآبة الجوّ القوطي للمكتبة ألقاً غريباً. حتى المفتش كيري رمش بعينيه قليلاً لمرأى الشابة المتألقة التي جلست وانحنت إلى الأمام فوق الطاولة قائلة بلهجة من ينطلع للحديث: حسناً؟

قال المفتش كيري وقد لاحظ قميصها القرمزي وبنطالها الأخضر الغامق: أرى أنك لا تلبسين السواد يا سيدة هَدْ؟

جينا: ليست لدي أية ملابس سوداء. أعرف أن كل امرأة يفترض أن يكون لديها ثوب أسود ترتديه مع اللآلئ، ولكنني لا أملك مثل ذلك الثوب. إنني أكره اللون الأسود؛ أعتقد أنه لون بشع لا ينبغي أن يرتديه إلاّ موظفو الاستقبال ومدبّرات المنازل ومن شابههم. وعلى أية حال فإن كريستيان غولبراندسن لم يكن حقاً قريباً لي؛ فهو ابن زوج جدتي.

– وأفترضُ بأنك لم تعرفيه بشكل جيد، أليس كذلك؟

هزت جينا رأسها بالنفي وقالت: لقد جاء إلى هنا ثلاث مرات أو أربع مرات عندما كنت طفلة، ولكنني ذهبت إلى أمريكا بعدها، خلال الحرب، ولم أعد هنا إلاّ منذما يقرب من ستة أشهر.

– هل عدت للعيش هنا أم أنت في زيارة فقط؟

– لم أفكر –حقيقةً– في الأمر.

– هل كنت في الصالة الكبرى ليلة أمس عندما ذهب السيد غولبراندسن إلى غرفته؟

– نعم. قال: "تصبحون على خير" وذهب. وسألته جدتي إن كان لديه كل ما يحتاجه فقال: "نعم"، وقال بأن جولي قد تولت بشكل جيد أمر كل شيء. لم تكن هذه كلماته بالضبط

مباشرة وعودة وولتر إلى الصالة.

- هل غادر أي شخص آخر الصالة؟

- لا أعتقد ذلك، لا أذكر.

- أين كنت تجلسين يا سيدة هَدْ؟

- قرب النافذة.

- قرب الباب المؤدي إلى المكتبة؟

- نعم.

- هل غادرت أنت القاعة على الإطلاق؟

- غادرت؟ مع كل تلك الإثارة؟ بالطبع لا.

بدا من لهجة جينا وكأن الفكرة قد أساءت إليها.

المفتش: أين كان يجلس الآخرون؟

جينا: أعتقد أن غالبيتهم كانوا حول الموقد. الخالة ميلدريد كانت تنسج صوفاً وكذلك العمة جين (أعني الآنسة ماربل). جدتي كانت جالسة فقط.

- والسيد ستيفن ريستاريك؟

- ستيفن؟ كان يعزف على البيانو في البداية، ولا أدري أين ذهب فيما بعد.

- والآنسة بيليفر؟

جينا: تدور، كعادتها؛ إنها لا تجلس أبداً. كانت تبحث عن مفاتيح، أو شيء من هذا القبيل.

ثم قالت فجأة: ما كل هذا الحديث عن شراب جدتي؟ هل ارتكب الصيدلي خطأ في تركيبه أم ماذا؟

- ولماذا تظنين ذلك؟

- لأن زجاجة الشراب اختفت، وجولي بيليفر تدور بجنون بحثاً عنها في حالة من الغضب العارم، وقد أخبرها أليكس بأن الشرطة قد أخذوها. فهل أخذتموها؟

وبدل الإجابة عن السؤال قال المفتش كيري: هل تقولين إن الآنسة بيليفر كانت منزعجة؟

أجابت جينا دون مبالاة: آه! إن جولي تتذمر دائماً، فهي تحب التذمر والشكوى. وأتعجب -أحياناً- كيف تستطيع جدتي تحمل ذلك.

المفتش: سؤال أخير واحد فقط يا سيدة هَدْ: أليست لك أفكارٌ خاصة في هوية من قتل كريستيان غولبراندسن ولماذا؟

- أعتقد أن واحداً من أولئك الشاذين قد فعلها. إن قاطعي الطريق عاقلون فعلاً... أعني أنهم لا يهاجمون الناس إلاّ بهدف سرقة صندوق نقود أو الحصول على المال أو المجوهرات...

وليس لمجرد المتعة. ولكن واحداً من أولئك الشاذين غريبي الأطوار (أي الذين يسمونهم غير قادرين على التكيف ذهنياً وعقلياً) يمكن أن يقدم على ذلك لمجرد المتعة والتسلية، ألا تعتقد ذلك؟ لأنني لا أستطيع أن أرى سبباً لقتل العم كريستيان عدا المتعة والتسلية، أليس كذلك؟ إنني لا أعني التسلية بالضبط، ولكن...

- ألا تستطيعين التفكير بدافع ما؟

- بلى، هذا ما أعنيه؛ فهو لم يُسرق أو ينهب، أليس كذلك؟

المفتش: ولكنك تعرفين يا سيدة هَدْ بأن مباني الكلية مقفلة ومحاطة بقضبان ولا يمكن لأحد أن يخرج من هناك دون إذن.

ضحكت جينا بابتهاج وقالت: وهل تصدق ذلك؟ إن بوسع أولئك الصبيان أن يخرجوا من أي مكان؛ لقد علموني كثيراً من الحيل!

عندما غادرت جينا قال الرقيب ليك: إنها امرأة حيوية، لأول مرة أراها عن قرب.

رماه المفتش كيري بنظرة باردة، فقال الرقيب ليك بسرعة بأنها كانت شابة مرحة وأضاف: يبدو أنها وجدت متعة في الأمر كله، إذا صح التعبير.

قال المفتش: سواء كان ستيفن ريستاريك مصيباً أو مخطئاً بخصوص قرب انفصام زواجها، فقد لاحظت أنها بذلت كل ما

في وسعها لتتذكر أن وولتر هَدْ عاد إلى الصالة الكبرى قبل أن تُسمع تلك الطلقة.

ليك: الأمر الذي يقول الآخرون جميعاً بأنه ليس كذلك؟

المفتش: بالضبط.

ليك: كما أنها لم تشر إلى مغادرة الآنسة بيليفر للصالة للبحث عن مفاتيح.

المفتش: لا، لم تشر لذلك...

* * *

الفصل الرابع عشر

كانت السيدة ستريت ملائمةً لطراز وجو المكتبة أكثر بكثير مما كانت جينا هَذْ. فلم يكن في السيدة ستريت أي شيء غريب أو مجلوب. كانت ترتدي السواد، مع دبوس زينة من العقيق، وتضع فوق شعرها الأشيب المصفف بعناية شبكة شعر.

وفكر المفتش كيري: إنها تبدو تماماً كأرملة أستاذ جامعي، الأمر الذي لا يخلو من غرابة، لأن القليل جداً من الناس كانوا يظهرون بمثل ما هم عليه حقاً... وفوق ذلك بدا واضحاً أنها كانت تشعر بالإهانة.

قالت ميلدريد ستريت: ظننت أنه كان بوسعك أيها المفتش أن تعطيني فكرة ما عن الموعد الذي تحتاجني فيه، فلقد اضطررت للجلوس على انتظار طوال الصباح.

وفكر كيري بأن شعورها بالأهمية هو الذي جُرح، ولذلك سارع ليضع بلسماً على الجرح: إنني آسف جداً يا سيدة ستريت. ربما لا تكونين ملمة تماماً بالطريقة التي تجري بها هذه الأمور؛

فنحن نبدأ -كما تعلمين- بالشهادات الأقلِ أهمية، لكي ننتهي منها إذا صح التعبير. من المهم أن نُبقي حتى النهاية شخصاً نستطيع الاعتماد على رأيه ومحاكمته العقلية، شخصاً يكون مراقباً جيداً نستطيع به أن نختبر قيمة ما قيل لنا سابقاً.

لانت السيدة ستريت بشكل ملحوظ وقالت: آه، فهمت. لم أدرك تماماً...

قال المفتش: أنت الآن امرأة ذات عقل راجح ناضج يا سيدة ستريت، وقد عركتك التجارب. ثم إن هذا البيت هو بيتك، فأنت ابنة هذا البيت، وبوسعك أن تخبريني بكل شيء عن الناس الذين يسكنونه.

- أستطيع القيام بذلك بالتأكيد.

- وهكذا ترين أننا عندما نأتي إلى السؤال عمن قتل السيد غولبراندسن فإنك تستطيعين أن تساعدينا كثيراً.

- ولكن، هل من سؤال؟ أليس واضحاً تماماً من الذي قتل أخي؟

استند المفتش كيري في مقعده إلى الخلف، ونقرت يده على شاربه الصغير المنتظم وقال: حسناً.. علينا أن نكون حذرين دقيقين. هل تعتقدين بأن الأمر واضح؟

- طبعاً، إنه ذلك الأمريكي الفظيع زوج المسكينة جينا! إنه الغريب الوحيد هنا، ونحن لا نعرف عنه شيئاً على الإطلاق.

ربما كان واحداً من رجال العصابات الأمريكية المخيفة تلك.

- ولكن ذلك لا يفسر تماماً أو يبرر إقدامه على قتل كريستيان غولبراندسن، أليس كذلك؟ فلماذا يقتله؟

- لأن كريستيان كشف شيئاً ما عنه؛ ولهذا السبب جاء هنا بهذه السرعة بعد زيارته الأخيرة.

- أأنت واثقة من ذلك يا سيدة ستريت؟

- مرة أخرى يبدو لي الأمر واضحاً تماماً. لقد أثار كريستيان انطباعاً بأن زيارته كانت ذات علاقة بمجلس الوصاية، ولكن ذلك كان مجرد هراء؛ فلم يمر على وجوده هنا لهذا الغرض غير شهر واحد، ولم يحدث أي تطور ذي أهمية منذ ذلك الحين، ولذلك لا بد أنه قد أتى في قضية خاصة. كان قد رأى وولتر في زيارته الأخيرة، وربما كان قد ميَّزه، ولعله قام بتحريات عنه في الولايات المتحدة (فلديه -بالطبع- عملاء في كل أنحاء العالم)، وربما عرف نتيجة تلك التحريات شيئاً مؤذياً حقاً. إن جينا فتاة طائشة جداً، وقد كانت دوماً كذلك، وليس غريباً أبداً عليها أن تتزوج رجلاً لا تعرف عنه شيئاً... لقد كانت دوماً مجنونة بالرجال! ربما كان رجلاً مطلوباً للشرطة، أو متزوجاً بالأساس، أو ربما شخصية سيئة من عالم الجريمة والانحراف. ولكن أخي كريستيان لم يكن رجلاً يسهل خداعه، وأنا واثقة أنه جاء إلى هنا ليسوي الأمر كله ويكشف وولتر على حقيقته أمام الآخرين، ونتيجة لذلك -طبعاً- قتله وولتر.

قال المفتش كيري وهو يرسم شاربين طويلين لإحدى القطط على الورقة المُحبَّرة أمامه: نـ... نعم.

- ألا تتفق معي في أن ذلك هو ما حدث بالضرورة؟

- ربما كان ذلك... نعم.

- وهل يوجد تفسير آخر؟ ليس لكريستيان أي أعداء. إن ما لا أفهمه هو: لماذا لم تُلقِ القبض على وولتر حتى الآن؟

- حسناً، أنت تعلمين -يا سيدة ستريت- أن علينا أن نجد دليلاً.

- ربما كان بوسعك أن تحصل على ذلك بكل سهولة إن أبرقت إلى الولايات المتحدة...

- آه! نعم، سوف نجمع معلومات حول السيد وولتر هَدْ... لك أن تتأكدي من ذلك. ولكننا -إلى أن نستطيع إثبات وجود دافع للقتل- يلزمنا كثير مما يمكن أن ننطلق منه. نحن نعلم عن الفرصة التي كانت ممكنة بالنسبة له طبعاً...

- لقد خرج بعد كريستيان تماماً مدعياً أن الأضواء أصابها مس كهربائي...

- ولكن المس أصابها فعلاً.

- يستطيع أن يرتب ذلك بسهولة.

- صحيح.

- وقد أعطاه ذلك العذر للخروج. تبع غولبراندسن إلى غرفته فأطلق عليه النار، ثم أصلح المس الكهربائي وعاد إلى الصالة.

- تقول زوجته بأنه عاد قبل أن تسمعوا الطلقة من الخارج.

- ليس صحيحاً أبداً! إن جينا مستعدة لقول أي شيء؛ فالإيطاليون لا يَصْدُقون أبداً!

تجاوز المفتش كيري الجانب القومي من الموضوع وقال: أتعتقدين أن زوجته متورطة معه في الأمر؟

ترددت ميلدريد لحظة ثم قالت: لا، لا... لا أظن ذلك.

بدت وكأنها آسفة بعض الشيء لأنها لا تظن ذلك، ثم مضت قائلة: ربما كان ذلك جزءاً من الدافع وراء الجريمة... لمنع جينا من معرفة الحقيقة عنه. إذ أن جينا هي في نهاية المطاف لقمة عيشه.

المفتش: وفتاة جميلة جداً فوق ذلك.

- آه، نعم. لقد قلت دوماً: "إن جينا حسنة الشكل". وهو نوع شائع جداً في إيطاليا بالطبع. ولكن، إن أردت رأيي، المالُ هو ما يسعى وولتر هَدْ خلفَه، ولذلك جاء إلى هنا واستقر ليعيش على حساب أسرة سيروكولد.

- السيدة هَدْ غنية تماماً كما فهمت، أليس كذلك؟

– لم تعد كذلك حالياً. لقد أوصى والدي لوالدة جينا بنفس المبلغ الذي أوصى به لي، ولكنها اكتسبت جنسية زوجها (وأعتقد أن القانون قد تغير الآن) وبسبب الحرب، وبسبب كونه فاشياً، فلم يعد لجينا إلاّ القليل من المال. إن والدتي تفسدها بالدلال، وخالتها الأمريكية (السيدة فان ريدوك) أنفقت عليها مبالغ خيالية واشترت لها كل ما تريده خلال سنوات الحرب. ومع ذلك –من وجهة نظر وولتر– فلا يستطيع أن يضع يده على الكثير من المال حتى تموت والدتي، حيث تؤول ثروة هائلة جداً إلى جينا.

– ولك أيضاً يا سيدة ستريت.

صعد لون باهت إلى وجنتي ميلدريد ستريت وقالت: ولي أيضاً، كما تقول. لقد عشت أنا وزوجي دوماً بشكل هادئ. كان لا ينفق إلاّ قليلاً جداً من المال، إلاّ الكتب؛ فقد كان عالماً عظيماً. أما أموالي الخاصة فقد تضاعفت تقريباً، وهي أكثر من كافية لحاجاتي البسيطة. ومع ذلك يستطيع المرء دوماً أن يستخدم المال لمنفعة الآخرين... إنني سأعتبر أية أموال تأتيني أمانة مقدسة.

– ولكنها لن تكون تحت وصاية؟

قال المفتش ذلك متصنعاً سوء الفهم قصداً، ثم قال مفسراً: أي أنها ستؤول إليك بشكل نهائي.

– آه، نعم... بهذا المعنى نعم. ستكون أموالي بشكل نهائي.

شيء ما في رنة تلك الكلمة الأخيرة جعل المفتش كيري يرفع رأسه بحدة. لم تكن السيدة ستريت تنظر إليه. كانت عيناها تشعان، وكان فمها الطويل النحيل ملتوياً في ابتسامة انتصار.

قال المفتش بصوت تأملي: من وجهة نظرك إذن (وأنت لديك بالطبع فرص وافرة للتقييم والحكم) أن السيد وولتر هَدْ يريد الأموال التي ستؤول إلى زوجته عندما تموت السيدة سيروكولد. بالمناسبة، إن السيدة سيروكولد ليست قوية جداً، أليس كذلك يا سيدة ستريت؟

– لقد كانت أمي دوماً امرأة «ناعمة».

– هذا صحيح. ولكن الأشخاص الناعمين غالباً ما يعيشون فتراتٍ بطول الفترات التي يعيشها الأشخاص الأقوياء الأشداء (أو حتى فترات أطول منهم).

– نعم، أحسب أنهم كذلك.

– ألم تلاحظي تدهوراً في صحة والدتك مؤخراً؟

– إنها تعاني من الروماتيزم. ولكن لا بد للمرء أن يعاني من شيء عندما يكبر. إنني لا أتعاطف مع أولئك الذين يضجون بالشكوى من الآلام والأوجاع الحتمية.

– هل تضج السيدة سيروكولد بالشكوى؟

سكتت ميلدريد ستريت للحظات، ثم قالت أخيراً: إنها لا تشكو هي شخصياً، ولكنها اعتادت على أن يضج الآخرون بالشكوى عنها. إن زوج والدتي دائم القلق إلى حد الوسوسة، وفيما يخص الآنسة بيليفر فإنها تجعل من نفسها امرأة سخيفة بكامل إرادتها... وفي كل الأحوال فإن للآنسة بيليفر تأثيراً سيئاً جداً في هذا البيت. لقد جاءت إلى هنا منذ سنوات طويلة، وإن تعلقها وحبها لوالدتي -رغم كونه مثار إعجاب بحد ذاته- قد أصبح نوعاً من البلاء. إنها تمارس -حرفياً- دور الطاغية على والدتي، وهي تدبر المنزل برمته، وتأخذ الكثير جداً من الأمور على عاتقها الخاص. وأظن أن ذلك يزعج السيد سيروكولد أحياناً، ولن يدهشني أبداً أن أراه يصرفها ذات يوم. ليس لديها أي ذوق أو لباقة... لا لباقة لديها أبداً! وإنه لمن المزعج للرجل أن يجد امرأته وقد سيطرت عليها تماماً امرأة ديكتاتورية.

هز المفتش رأسه بلطف موافقاً وقال: "نعم... نعم". ثم راقبها بتأمل، وقال: بقي أمر واحد لم أستوعبه تماماً يا سيدة ستريت... موقع الأخوين ريستاريك هنا.

- زيادة في العواطف السخيفة. لقد تزوج والدهم أمي المسكينة من أجل مالها، وبعد سنتين هرب مع مغنية يوغسلافية أحطّ ما تكون خُلُقاً. كان شخصاً تافهاً جداً، وكانت والدتي من رقة القلب بحيث شعرت بالأسف لهذين الصبيين. وبما أنه كان من المستحيل أن يقضيا فترات عطلتهما مع امرأة بمثل تلك الأخلاق السيئة، فقد عمدت أمي إلى تبنيهما بشكل أو

بآخر. ومنذ ذلك الحين أصبحا عالة على هذا البيت. آه! نعم. إن لدينا في هذا البيت كثيراً من الطفيليين... أستطيع أن أؤكد لك ذلك.

- لقد كانت لدى أليكس ريستاريك فرصة لقتل كريستيان غولبراندسن؛ فقد كان في سيارته وحيداً يقودها من البوابة الخارجية إلى المنزل، ولكن ماذا عن ستيفن؟

- ستيفن كان معنا في الصالة. إن رأيي في أليكس ليس جيداً، فهو يبدو خشناً قاسياً أكثر فأكثر، وأتخيل أنه يعيش حياة غير سوية، ولكنني لا أرى فيه قاتلاً في الواقع. وفوق ذلك، لماذا عساه يقتل أخي؟

- هذا هو السؤال الذي نعود إليه دوماً، أليس كذلك؟ ما الذي كان كريستيان غولبراندسن يعرفه -عن شخص ما- ليصبح ضرورياً لذلك الشخص أن يقتله؟

أجابت السيدة ستريت بلهجة انتصار: بالضبط، لا بد أن يكون وولتر هَدْ.

المفتش: ما لم يكن الفاعل شخصاً أكثر قرباً لهذا البيت.

قالت ميلدريد بحدة: ما الذي تعنيه بذلك؟

أجابها المفتش كيري بهدوء: لقد بدا السيد غولبراندسن قلقاً جداً على صحة السيدة سيروكولد عندما كان هنا.

قطبت ميلدريد حاجبيها وقالت: الرجال دائماً يشكون

ويتذمرون بشأن أمي لأنها تبدو ضعيفة هشة، وأظنها تحب ذلك التذمر منهم! وإن لم يكن الأمر كذلك فهذا يعني أن كريستيان كان يصغي لما تقوله جوليت بيليفر.

المفتش: ألستِ قلقة -أنت شخصياً- على صحة والدتك يا سيدة ستريت؟

- لا، وآمل أن أكون عقلانية في تفكيري. من الطبيعي أن أمي ليست شابة...

- والموت سيأتينا جميعاً... ولكن ليس قبل موعده المحدد. هذا ما يجب علينا أن نمنعه.

كان يتكلم بشكل يحمل مغزى، وانفجرت ميلدريد في حيوية مفاجئة: آه، إن ذلك شرير... أمر شرير. لا أحد غيري هنا يبدو مهتماً. ولماذا يهتمون؟ فأنا الشخص الوحيد الذي يملك قرابة دم مع كريستيان. فبالنسبة لأمي لم يكن إلاّ ابناً كبيراً لزوجها، وبالنسبة لجينا لم يكن حقاً قريباً على الإطلاق... ولكنه كان أخي أنا.

المفتش: أخاك غير الشقيق.

- غير الشقيق، نعم. ولكننا كنا كلانا من عائلة غولبراندسن رغم الفارق في السن.

قال المفتش بلطف: نعم، نعم. إنني أدرك ما ترمين إليه...

مشت ميلدريد خارجة والدموع في عينيها. نظر المفتش

كيري إلى ليك وقال: إنها متأكدة -إذن- بأنه كان وولتر. هذا لا تستطيع أن تفكر لحظةً واحدة بشخص آخر.

ليك: وربما كانت على حق في ذلك.

المفتش: بالتأكيد، لأن وولتر ملائم للوضع، يتوفر لديه الدافع والفرصة. لقد كان يريد مالاً بسرعة، فيجب أن تموت والدة زوجته. وهكذا يعبث وولتر بدوائها المنشط، ويراه كريستيان غولبراندسن يفعل ذلك، أو يسمع بذلك بطريقة ما. نعم، الأمر متناسق بشكل رائع.

ثم توقف قليلاً وقال: بالمناسبة، إن ميلدريد ستريت تحب المال... ربما لا تكون ممن ينفقونه، ولكنها تحبه. لست متأكداً من السبب. ربما كانت بخيلة، ولديها حب البخيل للمال. أو ربما كانت تحب السلطة التي يعطيها المال لصاحبه. أم يكون المال من أجل الخير؟ ربما، فهي من عائلة غولبراندسن .ربما كانت تريد مجاراة أبيها.

قال الرقيب ليك وهو يحك رأسه: أمر معقد، أليس كذلك؟

المفتش: من الأفضل أن نرى ذلك الشاب المعتوه لاوسن، وبعد ذلك نذهب إلى الصالة الكبرى ونرى أين كان موقع كل فرد وكيف ولماذا ومتى... لقد سمعنا ملاحظة أو ملاحظتين مثيرتين هذا الصباح.

* * *

فكر المفتش كيري... كان صعباً جداً الحصول على تقويم صادق لشخص ما مما يقوله الآخرون عنه.

لقد وصفَ أشخاصٌ عديدون مختلفون إدغار لاوسن في ذلك الصباح، ولكن انطباعات كيري -وهو ينظر إليه الآن- كانت مختلفة إلى حدٍ يكاد يبعث على السخرية.

لم يثر إدغار لديه انطباعاً بأنه «غريب الأطوار» أو «خطير» أو «متغطرس» أو حتى «غير طبيعي». بدا شاباً عادياً تماماً، كئيباً مغموماً وفي حالة من الخنوع الشديد. بدا صغيراً ومُبتذلاً قليلاً ومثيراً للشفقة بعض الشيء.

كان متلهفاً جداً على الحديث والاعتذار: أعرف أنني ارتكبت خطأً جسيماً. لا أدري ماذا انتابني! إنني حقاً لا أدري ما الذي دفعني لأقوم بذلك المشهد، وأدبر مثل ذلك الشجار، وأطلق النار من مسدس... وعلى السيد سيروكولد أيضاً، الرجل الذي كان في غاية الكرم معي، وفي غاية الصبر أيضاً.

لوى وفرك راحتيه بعصبية. كانت راحتاه تثيران الشفقة بعض الشيء، برسغيهما الكبيرين الناتئين.

إدغار: إن كان علي أن أُحاكم على فعلتي فأنا مستعد للذهاب معك فوراً؛ فأنا أستحق ذلك، وسأعترف بذنبي.

قال المفتش كيري بسرعة وحسم: لم توجه لك أية تهمة، ولذلك فليس لدينا أي دليل نبني عليه. وبناء على شهادة السيد

سيروكولد فإن انطلاق النار من المسدس كان أمراً حدث عرضياً.

إدغار: ذلك لأنه طيب جداً. لم يوجد أبداً رجل بطيبة السيد سيروكولد! لقد فعل كل شيء من أجلي، وذهبت أنا لأرد الجميل بالتصرف على ذلك النحو.

- ما الذي جعلك تتصرف كما تصرفت؟

بدا إدغار مُحرَجاً وقال: لقد جعلت من نفسي أبله.

قال المفتش كيري بجفاء: هكذا يبدو. لقد أخبرتَ السيد سيروكولد -بوجود شهود- بأنك عرفت أنه أبوك. فهل كان ذلك صحيحاً؟

- كلا، لم يكن صحيحاً.

- ما الذي وضع تلك الفكرة في رأسك؟ هل أشار بها أحد عليك؟

- حسناً، الأمر يصعب شرحه بعض الشيء.

نظر إليه المفتش كيري بإمعانٍ متفكراً، ثم قال بصوت لطيف: لماذا لا تجرب شرحه؟ نحن لا نريد أن نصعب الأمور عليك.

إدغار: حسناً، لقد عانيت أوقاتاً عصيبة في طفولتي من هذا الموضوع. كان الصبية الآخرون يسخرون مني لأنني لم أكن أمتلك أباً ويقولون إنني لقيطٌ صغير، الأمر الذي كان صحيحاً

بالطبع. والدتي كانت مخمورة دائماً، وكان يأتيها الرجال طوال الوقت، وكان والدي بحاراً أجنبياً كما أعتقد. كان البيت قذراً دائماً، وأصبح عليَّ جحيماً لا يطاق. بعد ذلك بدأت أفكر، مفترضاً أن والدي لم يكن مجرد بحار أجنبي، بل شخصٌ مرموق... ثم اعتدت تلفيق قصة أو قصتين. قصص طفولية في البداية، من قبيل تبديل الأطفال عند ولادتهم، أو أنني الوريث الحقيقي، وما إلى ذلك. ثم التحقت بعدها بمدرسة جديدة، وجربت بعض الأحيان أن ألمّحَ إلى بعض الأمور. قلت إن والدي كان في الواقع أدميرالاً في البحرية، وقد أخذت أصدق ذلك أيضاً، ولم أشعر وقتها بأية إساءة.

توقف قليلاً ثم مضى قائلاً: ثم ابتكرت -فيما بعد- بعض الأفكار الأخرى. أصبحت أقيم في الفنادق وأروي كثيراً من القصص السخيفة حول كوني طياراً مقاتلاً، أو كوني عضواً في الاستخبارات العسكرية. واختلطت عليَّ جميع أنواع القصص والروايات، وبدا أنني غير قادر على التوقف عن الكذب. إلاّ أنني لم أحاول حقاً الحصول على الأموال من هذا الطريق. كان ذلك مجرد تبجح من شأنه أن يجعل الناس يزيدون من تقديرهم لي. لم أرغب أن أكون غشاشاً، ويمكن للسيد سيروكولد أن يخبرك بذلك، والدكتور مافيريك أيضاً... إن لديهما كل المعلومات عن ذلك.

هز المفتش كيري رأسه موافقاً، إذ كان قد درس مسبقاً حالة إدغار المرضية وسجله لدى الشرطة.

مضى إدغار قائلاً: وفي النهاية خلّصني السيد سيروكولد تماماً وجاء بي إلى هنا. قال إنه كان بحاجة إلى سكرتير يساعده، وقد ساعدته... ساعدته بالفعل. إلاّ أن الآخرين ضحكوا مني... كانوا دوماً يضحكون مني.

المفتش: أيّهم؟ السيدة سيروكولد؟

- لا، ليس السيدة سيروكولد. إنها سيدة حقة، وهي دائماً رقيقة لطيفة. ولكن جينا عاملتني بكل احتقار، وستيفن ريستاريك أيضاً، والسيدة ستريت ازدرتني لأنني لست سيداً محترماً، وكذلك فعلت الآنسة بيليفر. ومن هي الآنسة بيليفر؟ إنها مجرد مرافقة مدفوعة الأجر، أليس كذلك؟

لاحظ كيري علامات تصاعد الانفعال، وقال: إذن فأنت لم تجد منهم كثيراً من التعاطف؟

أجاب إدغار بانفعال: لقد كان ذلك بسبب كوني لقيطاً. لو كان لدي أبٌ محترم لما مضوا في موقفهم هذا.

- ولذلك انتحلت لك بعض الآباء المشهورين.

احمر وجه إدغار وتمتم قائلاً: إنني أبدو دوماً وكأنني اعتدت الكذب.

- وأخيراً قلت إن السيد سيروكولد أبوك. لماذا؟

- لأنّ ذلك يوقفهم عند حدهم نهائياً، أليس كذلك؟ لو

كان هو والدي لما استطاعوا أن يفعلوا شيئاً بي.

- نعم، ولكنك اتهمته بأنه عدوك، وبأنه اضطهدك.

قال إدغار: "أعرف..."، ثم حكَّ جبينه وقال: لقد اختلطت عليّ الأمور بشكل خاطئ. أحياناً لا أستطيع... لا أستطيع فهم الأمور بشكل صحيح تماماً ويصيبني الارتباك.

- وذهبت فأخذت المسدس من غرفة السيد هَدْ؟

بدا إدغار حائراً وقال: صحيح؟ هل حصلتُ عليه من هناك؟

- ألا تتذكر من أين حصلت عليه؟

- أردت أن أهدد السيد سيروكولد بـه، أردت أن أخيفـه. كان ذلك عملاً صبيانياً مرة أخرى.

قال المفتش كيري متذرعاً بالصبر: كيف حصلت علـى المسدس؟

إدغار: لقد قلتَ ذلك لتوك... من غرفة وولتر.

- هل تتذكر الآن قيامك بذلك؟

- لابد أنني حصلت عليه من غرفته، فلم يكن ممكناً أن أحصل عليه بأية طريقة أخرى، أليس كذلك؟

- لا أدري. ربما يكون أحد ما قد أعطاك إياه؟

كان إدغار صامتاً، ووجهه صفحة بيضاء.

كرر المفتش سؤاله: أهكذا حصل الأمر؟

قال إدغار بانفعال: لا أذكر. كنت مهتاجاً جداً. تحولت في الحديقة ينهشني غضب عارم، وظننتُ أن النـاس كـانوا يتجسسون علي ويراقبونني ويحاولون الإيقاع بي. وحتى تلـك المرأة العجوز اللطيفة ذات الشعر الأبيض... لا أستطيع أن أفهم الأمر كله الآن. إنني أشعر أنني كنت بلا شك مجنوناً. إننـي لا أتذكر أين كنت وماذا كنت أفعل شطراً من ذلك الوقت!

- ولكنك تتذكر بالتأكيد من هو الذي أخبرك بأن السيد سيروكولد هو أبوك؟

أبدى إدغار نفس تحديقته الخاوية من أي تعبير ثم قـال بجفاء: لم يخبرني أحد... كانت مجرد فكرة خطرت لي.

تنهد المفتش كيري. لم يكن مقتنعاً أو راضياً، ولكنه ظن أنه لن يستطيع تحقيق مزيد من التقدم في الوقت الحاضر. وأخيراً قال: حسناً، انتبه لتصرفاتك في المستقبل.

إدغار: نعم يا سيدي. نعم، سأنتبه بالفعل.

وعندما خرج إدغار هز المفتش كيري رأسه ببطء وقـال: هذه الحالة المرضية فظيعة!

ليك: هل تظن أنه مجنون يا سيدي؟

المفتش: أقل جنوناً بكثير مما تخيلته. ربما كان ضعيف العقل، متبجحاً، كذاباً.. ولكن فيه –مع ذلك– شيئاً من البساطة اللطيفة. يخيل إليّ أنه يتأثر كثيراً بإيحاءات الآخرين...

– أتعتقد أن أحداً أوحى له بأشياء معينة؟

– آه، نعم. لقد كانت الآنسة العجوز ماربل محقة في ذلك؛ إنها عجوز ذكية داهية. ولكنني أتمنى لو أعرف من هو. لم يستطع إخبارنا. لو أننا فقط عرفنا ذلك... هيا يا ليك، لِنَقم بإعادةِ بناء للمشهد كله في الصالة.

* * *

كان المفتش كيري يجلس إلى البيانو فيما جلس الرقيب ليك على كرسي قرب النافذة التي تطل على البحيرة، ومضى المفتش قائلاً: إذا درت نصف دورة على كرسي البيانو لأراقب باب المكتب فإنني لا أستطيع رؤيتك.

نهض الرقيب ليك بهدوء واتجه بهدوء أيضاً عبر الباب المفضي إلى المكتبة.

قال المفتش: هذا الجانب من الغرفة كان كله معتماً. المصابيح الوحيدة التي كانت مضيئة هي تلك التي بجانب باب المكتب. كلا يا ليك، إنني لم أرك تخرج. ما أن تصبح في المكتبة حتى تستطيع أن تخرج من بابها الآخر إلى الممر وتقضي

دقيقتين تركض فيهما إلى جناح الضيوف لتطلق النار على غولبراندسن وتعود من خلال باب المكتبة إلى كرسيّك قرب النافذة. النساء اللاتي يجلسن قرب الموقد تكون ظهورهن موجهة صوبك. كانت السيدة سيروكولد جالسة هنا... عن يمين الموقد، قرب باب المكتب. وقد اتفق الجميع على أنها لم تتحرك، وهي الوحيدة التي تجلس على خط الرؤية المباشرة. الآنسة ماربل كانت هنا، وكانت تنظر إلى المكتب عابرة بنظرها السيدة سيروكولد. ميلدريد كانت عن يسار الموقد، قريبة من الباب الذي يفضي إلى الممر والفسحة الخارجية، وهي زاوية معتمة جداً. كان بوسعها أن تخرج وتعود. نعم، ذلك ممكن.

فجأة كشّر كيري وقال: وأنا أيضاً أستطيع الخروج.

ثم تسلل تاركاً الكرسي الدوار الخاص بالبيانو، ومشى جانبياً قرب الجدار ثم من الباب ثم قال: الشخص الوحيد الذي كان بوسعه أن يلاحظ أنني لم أعد أمام البيانو سيكون جينا هَدْ. وأنت تذكر ما الذي قالته جينا: "كان ستيفن يعزف على البيانو في البداية. ولا أدري أين كان فيما بعد!".

ليك: إذن فهل تعتقد أنه ستيفن؟

– لا أدري من هو. إنه لم يكن إدغار لاوسن أو لويس سيروكولد أو السيدة سيروكولد أو الآنسة جين ماربل، أما بالنسبة للآخرين...

ثم تنهد وقال: ربما كان الأمريكي، فتلك الأضواء التي

أصابها المس الكهربائي توحي بأنها كانت أكثر ملاءمة من أن تكون صدفة، ورغم ذلك فإن هذا الأمر لا يشكل دليلاً. أتدري؟ لقد أحببت ذلك الشاب بعض الشيء.

حدق بتأمل في بعض المؤلفات الموسيقية الموضوعة على جانب البيانو وقال: «هنديميث»؟ من هو هذا الرجل؟ لم أسمع به أبداً. «شوستاكوفيتش»! أية أسماء لهؤلاء الموسيقيين!

ثم نهض ونظر إلى حاملة النوتات الموسيقية التي كانت قديمة الطراز، ثم رفع غطاءها قائلاً: ها هي الموسيقى الحقيقية القديمة. معزوفة «لارغو» لهاندل، و«تدريبات» للموسيقار تشيرني. أغلب هذه المقطوعات تعود إلى عهد غولبراندسن العجوز. وهذه مقطوعة «أعرف حديقة رائعة» التي كنت أسمعها عندما كنت صبياً...

ثم توقف وأوراق الأغنية الصفراء في يده، فقد كان يوجد تحت الأوراق، على «مقدمات شوبان»، مسدس آلي صغير.

هتف الرقيب ليك فرحاً: ستيفن ريستاريك؟

حذره المفتش كيري قائلاً: لا تقفز بسرعة إلى النتائج، أراهن بعشرة مقابل واحد أن ذلك هو ما يراد لنا أن نعتقده.

* * *

الفصل الخامس عشر

صعدت الآنسة ماربل الدرج وقرعت باب غرفة نوم السيدة سيروكولد.

الآنسة ماربل: هل لي أن أدخل يا كاري لويز؟

كاري لويز: طبعاً يا عزيزتي جين.

كانت كاري لويز جالسة أمام طاولة الزينة تسرّح شعرها الفضي. التفتت وقالت: أهُمُ الشرطة؟ سأكون جاهزة خلال دقائق.

- أأنت على ما يرام؟

- نعم، بالطبع. لقد أصرّت جولي أن أتناول الإفطار في السرير، وقد دخلت جينا الغرفة حاملة صينية الإفطار وهي تمشي على رؤوس أصابعها كما لو أنني كنت على عتبة الموت! لا أظن أن الناس يدركون أن صدمة كوارث -من قبيل موت كريستيان- يكون وقعها أقلّ بكثير على الشخص العجوز، ذلك أن المرء يعرف في مثل هذا العمر كيفية وقوع أي حدث.. ويعرف كم

هي قليلة حقاً أهمية أي شيء يحدث في هذه الدنيا.

قالت الآنسة ماربل ببطء وارتياب: نعم.

كاري لويز: ألا تشعرين بمثل هذا الشعور يا جين؟ أعتقد أنك تشعرين بذلك.

أجابت الآنسة ماربل بحذر: ولكن كريستيان مات قتلاً.

– نعم... أعرف ما تعنين. أتعتقدين أن ذلك يهم فعلاً؟

– ألا تعتقدين أنت ذلك؟

أجابت كاري لويز ببساطة: إنه لا يهم بالنسبة لكريستيان. ولكنه يهم طبعاً لمن قتله، كائناً من كان.

– هل لديك أية فكرة عمَّن قتله؟

هزت كاري لويز رأسها بالنفي بأسلوب مندهل وقالت: لا، ليست لدي فكرة على الإطلاق، حتى أنني لا أستطيع العثور على سبب لذلك. لابد أن للجريمة علاقة بوجوده هنا في وقت سابق، قبل شهر تماماً من الآن. لأنه لو لم يكن الأمر كذلك، لما كان سيعود فجأة دون سبب معين. كائناً ما كان السبب فإنه قد بدأ –دون شك– آنذاك. لقد فكرت وفكرت، ولكنني لا أستطيع تذكّر أي شيء غير عادي. كان في البيت آنذاك نفس الأشخاص الموجودين الآن. نعم، أليكس كان قد جاء من لندن في ذلك التاريخ تقريباً. آه، نعم، وروث كانت هنا.

الآنسة ماربل: روث؟!

كاري لويز: في زيارتها القصيرة المعتادة.

– روث...

قالتها الآنسة ماربل ثانية، وعقلها ينشط بالتفكير. كريستيان غولبراندسن وروث؟ روث أتت إلى هنا قلقة خائفة، ولكنها لم تعرف لماذا. أقصى ما استطاعت قوله هو أن شيئاً ما لم يكن على ما يرام. لقد عرف كريستيان غولبراندسن شيئاً، أو شكّ في شيء لم تعرفه روث أو لم تشك فيه. لقد عرف أو شك بأن أحداً ما كان يحاول تسميم كاري لويز. كيف أتيح لكريستيان غولبراندسن أن يولي تفكيره لتلك الشكوك؟ ما الذي رآه أو سمعه؟ هل كان ذلك شيئاً رأته روث أيضاً أو سمعته وفشلت في تقدير أهميته الحقيقية؟ تمنت الآنسة ماربل لو أنها كانت تعرف ما هو ذلك الشيء. إن إحساسها الداخلي المبهم بأن ذلك الشيء –كائناً ما كان– له علاقة بإدغار لاوسن بدا أمراً مستبعداً؛ إذ أن روث لم تذكر ذلك الشاب.

تنهدت. وقالت كاري لويز: إنكم جميعاً تخفون أمراً ما عني، أليس كذلك؟

جفلت الآنسة ماربل قليلاً وهي تسمع صوت كاري لويز الهادئ، ثم قالت: لماذا تقولين ذلك؟

كاري لويز: لأن ذلك هو ما تفعلونه جميعاً ما عدا جولي.

حتى لويس يفعل ذلك. لقد دخل وأنا أتناول إفطاري وتصرف بشكل غريب جداً. شرب بعضاً من قهوتي، بل إنه تناول قطعة خبز محمص ومربى، وهذا الأمر ليس أبداً من عادته؛ لأنه يشرب الشاي دائماً، وهو لا يحب المربى، ولذلك فلا بد أنه كان يفكر في أمر آخر، وأظن أنه لا بد نسي تناول إفطاره الخاص. إنه ينسى بالفعل أموراً منها وجبات طعامه، وقد بدا قلقاً منشغلاً جداً.

بدأت الآنسة ماربل حديثها قائلة: إن جرائم القتل...

ولكن كاري لويز قاطعتها قائلة: آه، أعرف. إنها أمر فظيع، ولم أجد -من قبلُ- نفسي في معمعتها. ولكنك خَبرتِ ذلك، أليس كذلك يا جين؟

اعترفت الآنسة ماربل بذلك قائلة: حسناً... لقد خبرتها بالفعل.

- هذا ما أخبرتني به روث.

سألت الآنسة ماربل بفضول: هل أخبرتك بذلك في آخر زيارة لها هنا؟

- لا، لا أظن أنها أخبرتني بذلك في ذلك الوقت. في الواقع لا أذكر.

كانت كاري لويز تتكلم بشكل مبهم، بل بما يكاد يكون شروداً.

الآنسة ماربل: ما الذي تفكرين فيه يا كاري لويز؟

ابتسمت كاري لويز وبدت وكأنها عائدة من ذكريات بعيدة جداً، وقالت: كنت أفكر في جينا وفيما قلتِهِ عن ستيفن ريستاريك. إن جينا فتاة عزيزة كما تعلمين، وهي حقاً تحب وولتر، أنا واثقة من ذلك.

لم تقل الآنسة ماربل شيئاً.

- إن فتياتٍ مثل جينا يحببن أن يمرحن ويتسلين.

كانت كاري لويز تتحدث بصوت يوشك أن يحاكي مرافعة المحامين. ومضت قائلة: إنهن شابات، وهن يحببن الشعور بقوتهن ونفوذهن. إنه أمر طبيعي، بالفعل. أعرف أن وولتر هَذْ ليس من ذلك النوع من الرجال الذين تخيلنا أن جينا ستتزوج أحدهم، وهي لم تكن -في الأحوال الطبيعية- لتلتقيه. ولكنها التقت به بالفعل، وأحبته، ويُفترض أنها تعرف شؤونها الخاصة أكثر من الآخرين.

الآنسة ماربل: ربما.

- ولكن من الضروري جداً أن تكون جينا سعيدة.

نظرت الآنسة ماربل باستغراب إلى صديقتها وقالت: أظن أنّ من الضروري أن يكون كل إنسان سعيداً.

- آه، نعم. ولكن جينا حالة خاصة جداً. فعندما تبنّينا أمها،

بيبا، شعرنا بأن الأمر كان تجربة يجب -ببساطة- أن تنجح؛ فوالدة بيبا...

وتوقفت كاري لويز.

- من كانت والدة بيبا؟

- لقد اتفقنا أنا وإيريك على أن لا نخبر أحداً أبداً بذلك، وهي نفسها لم تعرف.

الآنسة ماربل: أود أن أعرف.

نظرت إليها السيدة سيروكولد بارتياب، فقالت الآنسة ماربل: إنه ليس مجرد فضول؛ فأنا حقاً... بحاجة أن أعرف. إنني أستطيع ربط لساني كما تعلمين.

قالت كاري لويز بابتسامة تحمل نكهة الذكريات: لقد كنتِ دوماً قادرة على كتم الأسرار يا جين. إن الدكتور غالبرايث يعرف ذلك، ولكن لا أحد غيره يعرف. لقد كانت والدة بيبا هي كاثرين إيلزويرث.

- إيلزويرث؟ أليست تلك هي المرأة التي دست الزرنيخ لزوجها؟ كانت قضيتها مشهورة.

- بلى.

- وقد شنقت كما أعتقد؟

- نعم، ولكن لم يكن مؤكداً أبداً أنها فعلت ذلك. كان

زوجها يتعاطى الزرنيخ ولم يكونوا يفهمون هذه الأشياء آنذاك كثيراً.

الآنسة ماربل: كانت تنقع الورق اللاصق الذي يحتوي على سموم لقتل الذباب.

كاري لويز: لقد اعتقدنا دائماً أن شهادة الخادمة بهذا الشأن كانت كيدية.

- وبيبا كانت ابنتها؟

- نعم. وقد عزمنا أنا وإيريك على أن نمنح الطفلة فرصة بداية جديدة في الحياة، مع الحب والرعاية، وكل الأمور التي يحتاجها الطفل، وقد نجحنا. وكانت بيبا نفسها أجمل وأسعد مخلوقة يمكن تخيلها.

صمتت الآنسة ماربل فترةً طويلة.

قامت كاري لويز عن طاولة الزينة وقالت: إنني جاهزة الآن. هل لك أن تطلبي من المفتش (أو لا أدري ما هو لقبه) أن يصعد إلى غرفة جلوسي. أنا واثقة أنه لن يمانع.

* * *

ولم يمانع المفتش كيري، بل إنه رحَّب في الواقع بفرصة رؤية السيدة سيروكولد في موئلها الخاص.

نظر حوله بفضول وهو يقف هناك بانتظارها. لم تكن

الغرفة شبيهة بما تخيله المفتش. كان في الغرفة أريكة قديمة الطراز، وبعض الكراسي من العصر الفيكتوري لا تبدو مريحة بمساندها ذات النقوش الخشبية المجدولة. كان قماش الأثاث المطعَّم قديماً باهتاً ولكنه ذو نقوش جميلة تمثل القصر البلوري. كانت الغرفة واحدة من الغرف الصغيرة ولكنها –حتى بوضعها ذاك– كانت أضخم من غرف الجلوس في أغلب المنازل الحديثة، وكانت ذات مظهر حميمي دافئ ومزدحم بطاولاتها الصغيرة وتحفياتها الدقيقة وصورها. نظر كيري إلى صورة قديمة لفتاتين صغيرتين، إحداهما سمراء حيوية والأخرى دميمة تحدق عابسة بالعالم من تحت غرة كثة. كان قد شاهد تلك السيماء في صباح ذلك اليوم. كان مكتوباً على الصورة "بيبا وميلدريد". كما كانت صورة لإيريك غولبراندسن معلقة على الجدار مع لوحة خلفية ذهبية وإطار ثخين من خشب الأبنوس. وكان كيري قد عثر لتوه على صورة لشاب حسن الشكل ذي عينين غضّنهما الضحك افترض كيري أنه جون ريستاريك عندما فُتح الباب ودخلت السيدة سيروكولد.

كانت تلبس السواد، وكان سواداً خفيفاً. وبدا وجهها الصغير الأحمر والأبيض صغيراً بشكل غير عادي تحت تاج من الشعر الفضي، وكان بها شيء من الرقة والضعف اللذين أمسكا بحدة بزمام قلب المفتش كيري. فهم في تلك اللحظة كثيراً مما حيَّره في وقت مبكر من ذلك الصباح. فهم لماذا كان الناس حريصين إلى ذلك الحد على تجنيب كارولين لويز سيروكولد

كل ما يمكن تجنيبها إياه.

وفكر... إنها –مع ذلك– ليست من النوع الذي يمكن أن يشكو أو يجعل من الأمر قضية أبداً.

حيّته وطلبت منه أن يجلس، وأخذت كرسياً وجلست بجانبه. لم يكن هو الذي يضعها في موضع اطمئنان وارتياح بقدر ما كانت هي التي تضعه في مثل هذا الموضع. بدأ يطرح أسئلته، وأجابت هي عنها بكل سرعة وجاهزية ودون تردد. انطفاء الأضواء، الشجار بين إدغار لاوسن وزوجها، والطلقة التي سمعوها...

المفتش: ألم يبد لك أن الطلقة كانت من داخل البيت؟

كاري لويز: لا، ظننت أنها جاءت من الخارج. ظننت أنها ربما كانت عطسة من محرك سيارة.

– خلال المشاجرة بين زوجك وهذا الشاب لاوسن في المكتب، هل لاحظت مغادرة أي شخص للقاعة؟

– كان وولتر قد خرج أصلاً لفحص الكهرباء. وقد خرجت الآنسة بيليفر –بعد ذلك تماماً– لتحضر شيئاً ما، ولكنني لا أستطيع تذكر ذلك الشيء.

– من غيرهما غادر القاعة؟

– لا أحد، على قدر ما أعرف.

- هل كان بوسعك أن تعرفي لو غادر أحد؟

فكرت للحظة ثم قالت: لا، لا أعتقد أنني كنت سأعرف.

- كنت غارقة تماماً فيما كنت تسمعينه مما يجري في المكتب، أليس كذلك؟

- نعم.

- وهل كنت قلقة إزاء ما يمكن أن يحدث هناك؟

- كلا، كلا... لم أكن كذلك. لم أر أن شيئاً سيحدث لاحقاً.

- ولكن لاوسن كان يحمل مسدساً؟

- نعم.

- وكان يهدد زوجك به؟

- نعم. ولكنه لم يكن يعني ذلك.

شعر المفتش كيري بسخطه البسيط المعتاد إزاء هذه العبارة. إذن فقد كانت هذه السيدة واحدة أخرى منهم!

المفتش كيري: لم تستطيعي أن تكوني واثقة من ذلك يا سيدة سيروكولد.

- حسناً، ولكنني كنت واثقة (أعني داخل عقلي) كيف يعبر الشباب عن ذلك... هل يسمونه تمثيل مشهد؟ ذلك ما

شعرت به. إن إدغار مجرد فتى صغير كان في مشهده ذاك ميلودرامياً وسخيفاً يتخيل نفسه شخصية يائسة شجاعة. كان يرى نفسه البطل المظلوم في قصة رومانسية. كنت واثقة تماماً بأنه لن يطلق النار.

- ولكنه أطلق النار فعلاً يا سيدة سيروكولد.

ابتسمت كاري لويز وقالت: أتوقع أن المسدس قد انطلق خطأ بشكل عرضي.

وتصاعد السخط ثانية داخل المفتش كيري.

- لم يكن ذلك عرضياً. لقد أطلق لاوسن النار من ذلك المسدس مرتين، وأطلقها على زوجك، وكادت الرصاصات تصيبه تماماً.

بدت كاري لويز مذعورة ثم كئيبة، وقالت: لا أستطيع حقاً تصديق ذلك.

ثم سارعت لتستبق احتجاج المفتش قائلة: أوه، نعم، أنا مضطرة لتصديق ذلك طبعاً إن كنت تخبرني به أنت، ولكنني أشعر رغم ذلك أنه لا بد من تفسير بسيط. ربما كان بوسع الدكتور مافيريك أن يشرح الأمر لي.

- آه، نعم. سيشرح الدكتور مافيريك لك الأمر تماماً. بوسع الدكتور مافيريك أن يشرح أي شيء، أنا واثق من ذلك.

على غير توقع قالت السيدة سيروكولد: أعرف أن كثيراً مما نفعله هنا يبدو سخيفاً لا طائل منه، وأحياناً يكون المحللون النفسانيون أناساً مزعجين تماماً، ولكننا نحقق نتائج بالفعل. إن لدينا إخفاقاتنا، ولكن لدينا نجاحاتنا أيضاً، وإن ما نحاول فعله جدير بالمحاولة. ربما لا تصدق ذلك، إلاّ أن إدغار يحب زوجي حقاً. وقد أقدم على هذه الدعوى السخيفة بأن لويس هو والده، لأنه يرغب كثيراً أن يكون له أب مثل لويس. ولكن ما لا أستطيع فهمه هو سبب تحوله فجأة إلى العنف. لقد كان أفضل حالاً بكثير، بل كان حقاً طبيعياً من الناحية العملية. والحقيقة أنه كان يبدو لي دوماً طبيعياً.

لم يناقش المفتش هذه الفكرة، بل قال: المسدس الذي كان بحوزة إدغار لاوسن كان يعود لزوج حفيدتك، والمفترض أن لاوسن أخذه من غرفة وولتر هَدْ. الآن أخبريني، هل رأيت هذا السلاح من قبل؟

ومدّ لها على راحة يده المسدس الآلي الصغير الأسود. نظرت كاري لويز إليه وقالت: كلا، لا أعتقد ذلك.

- لقد وجدته في حاملة النوتة الموسيقية، وقد أُطلقت منه النار حديثاً. لم يتح لنا الوقت لكي نحقق بشأنه تماماً بعد، ولكنني أستطيع القول إنه يكاد يكون في حكم المؤكد أنه السلاح الذي أُطلقت منه النار على السيد غولبراندسن.

قطبت جبينها وقالت: وأنت وجدته في حاملة نوتات البيانو؟

المفتش: نعم، كان تحت بعض المقطوعات الموسيقية القديمة جداً، مقطوعات أعتقد أنها لم تُعزف منذ سنوات طويلة.

- كان مُخبأً إذن؟

- نعم، هل تتذكرين من كان أمام البيانو ليلة أمس؟

- ستيفن ريستاريك.

- هل كان يعزف؟

- نعم. مجرد موسيقى خفيفة؛ لحن صغير كئيب مضحك.

- متى توقف عن العزف يا سيدة سيروكولد؟

- متى توقف؟ لا أدري؟

- ولكنه توقف، أليس كذلك؟ لم يستمر في العزف طوال فترة الشجار.

- لا. لقد تلاشت الموسيقى.

- هل نهض عن مقعده أمام البيانو؟

- لا أدري. ليست لدي فكرة عما فعله حتى جاء إلى باب غرفة المكتب لكي يحاول تجربة مفتاح له.

- هل بوسعك التفكير في أي سبب من شأنه أن يجعل ستيفن ريستاريك يطلق النار على السيد غولبراندسن؟

- أبداً، لا يوجد أي سبب مهما كان نوعه.

ثم أضافت وهي تتأمل: لا أصدق أنه قام بذلك؟

- ربما كان غولبراندسن قد علم شيئاً ما ضاراً بسمعته.

- يبدو لي ذلك مستبعداً جداً.

وتملكت المفتش كيري رغبة جامحة بأن يجيبها قائلاً: بوسع الأبقار أن تطير، ولكنها طيور «مستبعَدة» جداً.

كان ذلك مثلاً طالما كانت جدته تستخدمه. وفكر... إن الآنسة ماربل تعرف هذا المثل بالتأكيد.

* * *

نزلت كاري لويز على الدرج العريض، والتمّ حولها ثلاثة أشخاص من اتجاهات مختلفة، حيث أتتها جينا من الممر، والآنسة ماربل من المكتبة، وجولييت بيليفر من الصالة الكبرى.

تكلمت جينا أولاً هاتفة بانفعال: حبيبتي! أأنت على ما يرام؟ هل اضطهدوك أو «عصروك » بأسئلتهم أم ماذا؟

كاري لويز: كلا بالطبع يا جينا. ما هذه الأفكار الغريبة لديك؟ لقد كان المفتش كيري رائعاً ورقيقاً جداً.

الآنسة بيليفر: كذلك ينبغي أن يكون. والآن يا كاري، لقد أحضرت هنا كل رسائلك ومعها طرد، وقد كنت على وشك

أن آخذها إليك في الأعلى.

كاري لويز: أحضريها إلى المكتبة.

جلست كاري لويز وبدأت تفتح رسائلها، وكان يوجد ما يقرب من عشرين أو ثلاثين رسالة. كانت تفتح الرسائل ثم تسلمها للآنسة بيليفر التي كانت ترتبها في رزم وهي تشرح للآنسة ماربل أثناء عملها: لدينا ثلاثة أصناف رئيسة من البريد؛ الصنف الأول يضم الرسائل الواردة من أقارب الصبيان، وهذه أسلمها للدكتور مافيريك. أما رسائل الاستجداء فإنني أتعامل معها بنفسي. وما تبقى يكون رسائل شخصية، وتعطيني كاري ملاحظات حول كيفية التعامل معها.

وما أن انتهى النظر في الرسائل حتى حولت السيدة سيروكولد انتباهها للطرد، فقطعت الخيوط التي ترزمه بمقص. ومن بين أوراق التغليف الأنيقة ظهرت علبة شوكولاتة جذابة مربوطة بشريط ذهبي. قالت السيدة سيروكولد مبتسمة: لا بد أن أحداً ظن اليوم عيد ميلادي.

فكت الشريط وفتحت العلبة. وكان داخل العلبة بطاقة شخصية. نظرت إليها كاري لويز بشيء من الدهشة وقرأت: "مع حبي، من أليكس". ثم قالت: ما أغرب أن يرسل لي علبة شوكولاتة بالبريد في نفس اليوم الذي أتى فيه إلى هنا!

تحرك عدم الارتياح في عقل الآنسة ماربل وقالت بسرعة: لحظة يا كاري لويز، لا تأكلي شيئاً منها.

بدت السيدة سيروكولد مندهشة قليلاً وقالت: كنت سأوزع عليكم منها.

الآنسة ماربل: كلا، لا تفعلي ذلك. انتظري حتى أسأل... أليكس هنا في المنزل؟ أتعرفين يا جينا؟

قالت جينا بسرعة: "أليكس كان في الصالة الآن كما أعتقد". ثم قامت وفتحت الباب ونادته.

ظهر أليكس ريستاريك على مدخل الباب بعد دقيقة وقال: يا سيدتي الغالية الحبيبة! ها قد نهضت إذن. أأنت على ما يرام؟

تقدم من السيدة سيروكولد وقبلها بلطف على كلتا وجنتيها.

قالت الآنسة ماربل: تريد كاري لويز أن تشكرك على الشوكولاتة.

بدا أليكس مندهشاً وقال: أية شوكولاتة؟

كاري لويز: هذه الشوكولاتة.

أليكس: ولكنني لم أرسل لك أية شوكولاتة يا عزيزتي.

الآنسة بيليفر: كانت بطاقتك في العلبة.

حدّق أليكس في البطاقة وقال: إنها فعلاً كذلك. يا للغرابة! أمر غريب جداً... أنا لم أرسلها بالتأكيد.

الآنسة بيليفر: يا له من أمر غريب جداً!

قالت جينا وهي تحدق في العلبة: إن حبات الشوكولاتة تبدو لذيذة تماماً. انظري يا جدتي. تلك هي حباتك المفضلة، المطعَّمة بالكرز في الوسط.

أخذت الآنسة ماربل العلبة من كاري لويز بلطف، ولكن بحزم. ودون أن تنبس بكلمة واحدة أخذتها خارج الغرفة وذهبت لتبحث عن لويس سيروكولد. وقد تطلّب العثور عليه بعض الوقت لأنه كان قد ذهب إلى الكلية، ووجدته في غرفة الدكتور مافيريك هناك. وضعت العلبة على الطاولة أمامه، وأصغى هو إلى روايتها المقتضبة عن ما جرى.

وفجأة أصبح وجهه متجهماً صارماً. وبكل حذر أخذ هو والدكتور الشوكولاتة حبةً حبةً وتفحصّها.

الدكتور مافيريك: أعتقد أن هذه الحبَّات التي وضعتها جانباً قد تم العبث بها بشكل شبه مؤكد. انظر إلى عدم استواء طبقة الشوكولاتة في الجزء السفلي منها. ما ينبغي أن نقوم به الآن هو أن نحللها.

الآنسة ماربل: ولكنه أمر لا يصدق. كاد كلُّ من في المنزل أن يتسمموا!

هز لويس رأسه موافقاً ووجهه ما يزال أبيض قاسياً، ثم انفجر قائلاً: نعم، في الأمر قسوة بالغة... واستهانة. وأنا أعتقد بأن كل حبات الشوكولاتة المسممة من تلك المصنوعة بنكهة الكرز. ذلك هو النوع المفضل لدى كارولين؛ ولذلك -كما

ترون- فإنّ خلف هذا الأمر معرفةً وثيقة.

قالت الآنسة ماربل بهدوء: إن كان الأمر كما تشك...
أي إن كان في هذه الحبات سُمّ، فإنني أظن أنه يتوجب إخبار كاري لويز بما يجري. ينبغي أن تنبه بحيث تأخذ حذرها.

قال لويس سيروكولد بجدية وحزن: نعم، ينبغي أن تعرف أن شخصاً ما يريد قتلها. أعتقد أنها ستجد تصديق هذا الأمر مسألة شبه مستحيلة.

* * *

الفصل السادس عشر

- اسمعي يا آنسة. هل صحيح أن سافلاً يدس السموم؟

ردت جينا الشعر عن جبهتها إلى الخلف، وجفلت حين وصلتها الهمسة الخشنة. كان على وجنتها أصباغ، وأصباغ على بنطالها. كانت منشغلة هي ومساعدوها المختارون في رسم قماش المنظر الخلفي لمسرحية «النيل عند الغروب» استعداداً لعرضهم المسرحي القادم.

كان ذلك الذي يطرح السؤال الآن واحداً من مساعديها. كان اسمه إيرني، وهو الصبي الذي أعطاها تلك الدروس القيمة في التلاعب والعبث بالأقفال. وقد كانت أصابع إيرني على نفس الدرجة من البراعة في أعمال نجارة المسرح، وكان واحداً من أكثر المساعدين المسرحيين حماسة.

كانت عيناه الآن ملتمعتين تشعان بمتعة الاستشراف والتوقع. أغمض إحدى عينيه وقال: الخبر منتشر الآن في كل المهاجع. ولكن اسمعي يا آنسة، لم يكن الفاعل واحداً منا. ليس من شأننا مثل هذا العمل، وما من أحد يمكن أن يفعل شيئاً للسيدة

سيروكولد. حتى جينكنز لم يكن ليؤذيها؛ فهي ليست مثل تلك الكلبة العجوز التي يرغب الكثيرون بتسميمها. لم أكن أنا لأتردد في ذلك.

جينا: لا تتكلم هكذا عن الآنسة بيليفر.

إيرني: آسف يا آنسة... زلة لسان. أي سمٍّ كان يا آنسة؟ أكان سم الستريكناين؟ ذلك يجعلك تقوسين ظهرك وتموتين بآلامك، بالفعل. أم أنه كان الحامض البروسي؟

جينا: لا أعرف ما الذي تتحدث عنه يا إيرني.

رمش إيرني بعينيه ثانية وقال: قولي لغيري إنك لا تعرفين! يقولون إن السيد أليكس هو الذي فعلها وأحضر الشوكولاتة من لندن. ولكن ذلك كذب؛ فالسيد أليكس لا يمكن أن يفعل شيئاً كهذا، أليس كذلك يا آنسة؟

جينا: بالطبع لا يمكن أن يفعل.

إيرني: الاحتمال الأقوى هو أن يكون السيد بومغارتن. عندما يعطينا دروس التمارين البدنية فإنه يبدل سحنته بشكل فظيع، وأعتقد أنه مخبول.

جينا: أبعد زيت الأصباغ هذا عن الطريق.

نفذ إيرني طلبها متمتماً مع نفسه: لا أفهم هذه الحياة هنا! قتل العجوز غولبراندسن بالأمس، والآن سموم خفية. هل تعتقدين

أن شخصاً واحداً يقف وراء الحالتين؟ ما قولك يا آنسة إن أخبرتك أنني أعرف الشخص الذي قتله؟

جينا: أنت لا تعرف شيئاً عن الموضوع.

– ها، لا أعرف شيئاً؟ افترضي أنني كنت في الخارج ليلة أمس، ورأيت شيئاً.

– كيف تكون في الخارج والكلية تقفل بعد التعداد المسائي في السابعة.

– التعداد... إنني أستطيع الخروج في أي وقت أشاء يا آنسة. الأقفال لا تعني شيئاً لي.. إنني أخرج وأتمشى في الحدائق لمجرد متعة القيام بذلك.

– أتمنى لو تكُفُّ عن أكاذيبك يا إيرني.

– من الذي يكذب؟

– أنت. تكذب وتتبجح بأشياء لم تفعلها أبداً.

– هذا ما تقولينه أنت يا آنسة. ولكن انتظري حتى يأتي الشرطة ويسألوني عن كل ما رأيته ليلة أمس.

– حسناً، ما الذي رأيته؟

– آه، ألم تكوني غير راغبة في المعرفة؟

هجمت عليه جينا، فقام بانسحاب استراتيجي من أمامها.

تقدم ستيفن من الجانب الآخر من المسرح وانضم إلى جينا. ناقش الاثنان مسائل تقنية مختلفة ثم سارا جنباً إلى جنب عائدَيْن إلى المنزل.

جينا: يبدو أن الجميع يعرفون بأمر جدتي والشوكولاتة. أعني الصبية... كيف لهم أن يعرفوا؟

ستيفن: عن طريق نوع من الأقاويل والشائعات المحلية.

– وهم يعرفون بأمر بطاقة أليكس. ستيفن، لقد كان من الغباء المطلق بالتأكيد وضع بطاقة أليكس في العلبة، في حين كان قادماً عملياً إلى هنا.

– نعم، ولكن من الذي كان يعرف أنه قادم إلى هنا؟ لقد قرر المجيء من وحي اللحظة، وأرسل برقية بذلك، وربما أُرسلت العلبة وقتها. ولو أنه لم يأت إلى هنا لكان وضعُ بطاقته في العلبة فكرة جيدة تماماً؛ لأنه يرسل –بالفعل– شوكولاتة لكارولين أحياناً.

ثم مضى يتكلم ببطء: إن ما لا أستطيع فهمه ببساطة هو...

تدخلت جينا لتكمل جملته: هو لماذا عسى أن يرغب أي شخص في تسميم جدتي؟ أعرف. إنه أمر لا يمكن فهمه! إنها محبوبة جداً، والجميع يحبونها بالفعل.

لم يجب ستيفن. نظرت إليه جينا بحدة وقالت: أعرف فيمَ تفكر يا ستيف!

ستيفن: إنني أتساءل!

جينا: إنك تفكر في وولتر وأنه لا يحبها. ولكن وولتر لا يمكن أن يسمم أحداً؛ إن الفكرة مثيرة للسخرية.

– الزوجة المخلصة!

– لا تقل ذلك بهذه النبرة الساخرة.

– لم أقصد السخرية؛ فأنا أعتقد أنك مخلصة بالفعل، وذلك يعجبني فيك. ولكن يا عزيزتي، ليس بوسعكما أن تستمرا هكذا.

– ما الذي تعنيه يا ستيف؟

– أنت تعرفين تماماً ما أعنيه، فأنت وزوجك لا تناسبان بعضكما. إنها مجرد واحدة من تلك التجارب التي لا تنجح، وهو يعرف ذلك أيضاً، والانفصال سيأتي قريباً، وستكونان كلاكما أسعد حالاً عندما يأتي.

– لا تكن أحمق.

ضحك ستيفن وقال: دعك من ذلك، أنت لا تستطيعين التظاهر بأنكما ملائمان لبعضكما، أو بأن وولتر سعيد هنا.

– آه، لا أدري ما هي المشكلة. إنه متجهم أغلب الوقت ولا يكاد يتكلم. إنني... إنني لا أعرف كيف أتصرف تجاهه. لماذا لا يستطيع أن يُمتّعَ نفسه هنا؟ لقد عشنا معاً أوقاتاً ممتعة ذات يوم... كان كل شيء ممتعاً... والآن ربما تغير وأصبح

شخصاً مختلفاً. لماذا على الناس أن يتغيروا على هذا النحو؟

ستيفن: هل أتغير أنا؟

جينا: كلا يا عزيزي ستيف؛ أنت دائماً ستيف. هل تتذكر كيف كنت ألاحقك وأجري خلفك في أيام العُطَل؟

– وأيَّ إزعاج كنتُ أرى فيك وأقول لنفسي: تلك الطفلة الصغيرة البائسة جينا. حسناً، لقد انقلبت الأدوار الآن. لقد وضعتِني حيث أردت أن تضعيني، أليس كذلك يا جينا؟

قالت جينا: "أيها الأحمق!". ثم أسرعت للقول: هل تظن أن إيرني كان يكذب؟ لقد ادعى بأنه كان يتمشى في الضباب ليلة أمس، ولمَّح إلى أنه يستطيع الإبلاغ بأمور حول جريمة القتل. هل تظن أن ذلك قد يكون صحيحاً؟

ستيفن: صحيحاً؟ بالطبع لا. أنت تعرفين كيف يتبجح مدعياً أي شيء ليجعل نفسه شخصاً مهماً.

– آه، أعرف ذلك، كنت أتساءل فقط...

ومشى الاثنان جنباً إلى جنب دون كلام.

* * *

أضاءت شمسُ الغروب الواجهةَ الغربية للمنزل، ونظر المفتش كيري في ذلك الاتجاه وقال: أهذا هو المكان التقريبي الذي أوقفت فيه سيارتك ليلة أمس؟

توقف أليكس ريستاريك قليلاً كما لو أنه يفكر، ثم قال: تقريباً. من الصعب الجزم بشكل دقيق بسبب الضباب. ولكن، نعم، أعتقد أن هذا هو المكان.

وقف المفتش كيري ينظر حوله بعين تحاول تقدير الأمور.

كان امتداد الممشى المفروش بالحصى يلتف في منحنى خفيف، وعند هذه النقطة برزت من خلف حاجز من شجيرات الورد الواجهة الغربية للمنزل لتظهر فجأة للعيان بمصطبتها الخارجية وسياجات شجر الطَّقسوس والدرج الذي ينحدر نزولاً إلى مروج العشب، وبعد ذلك يستمر الممشى في مسيرته الملتوية، ممتداً عبر سياج من الأشجار ومستديراً بين البحيرة والمنزل حتى ينتهي في المدى الرملي الواسع عند الجانب الشرقي للمنزل.

صاح المفتش كيري: دودغيت!

انطلق دودغيت –الذي كان يقف على أهبة الاستعداد– للعمل بنشاط. اندفع بقوة عبر الحيز العشبي الفاصل في خط قطري باتجاه المنزل، وصل المصطبة، ودخل من الباب الجانبي. وبعد لحظات كانت ستائر إحدى الغرف تُفضُّ بشكل عنيف. بعدها ظهر الشرطي دودغيت ثانية من الباب المفضي إلى الحديقة وركض عائداً لينضم إليهما وهو يتنفس كمحرك بخاري.

المفتش كيري: دقيقتان وأربعون ثانية.

قال ذلك وهو يغلق ساعة التوقيت التي كان يقيس بها الوقت، ثم قال: هذه الأمور لا تأخذ كثيراً من الوقت، أليس كذلك؟

كانت نبرته لطيفة كمن يريد مجرد الحديث.

أليكس: أنا لا أركض بنفس سرعة شرطيك. إنني أفترض أن ما تقيسون وقته هو حركاتي المفترضة، أليس كذلك؟

– أنا أشير فقط إلى أنه كانت لديك الفرصة للقيام بلقتل، هذا كل ما في الأمر يا سيد ريستاريك. إنني لا أوجه أية اتهامات... حتى الآن.

قال أليكس ريستاريك بلطف للشرطي دودغيت الذي ما زال يلهث: أنا لا أستطيع الركض بنفس السرعة التي تركض بها، ولكنني أعتقد أنني أتدرب بشكل أفضل منك.

الشرطي: لم أتدرب منذ إصابتي بالتهاب القصبات الهوائية في الشتاء الماضي.

التفت أليكس إلى المفتش وقال: إنني أتكلم جدياً، فرغم محاولتك بأن تجعلني قلقاً وتراقب ردود أفعالي، ينبغي أن تتذكر أننا –معشر الفنانين– حساسون جداً! نباتات رقيقة جداً!

ثم اكتسب صوتُه نبرة ساخرة هازئة وهو يقول: ليس بوسعك أن تصدق حقاً بأن لي أية علاقة بهذا الأمر، فلم أكن لأرسل علبة شوكولاتة مسمومة إلى السيدة سيروكولد وأضع بطاقتي داخلها، أليس كذلك؟

المفتش: قد يكون ذلك هو ما أُريدَ لنا أن نعتقده... يوجد شيء يسمى الخدعة المزدوجة يا سيد ريستاريك.

– آه، فهمت... يا لك من عبقري! بالمناسبة، تلك الشوكولاتة، هل كانت مسمومة؟

– حبات الشوكولاتة الست التي تحتوي على نكهة الكرز في الطبقة العليا كانت مسمومة، نعم. كانت تحتوي على مادة الأكونيتين السامة.

– ليست تلك من سمومي المفضلة أيها المفتش. إنني –شخصياً– لا أستطيع مقاومة إغراء مادة الكورار.

– ولكن ينبغي لمادة الكورار أن تدخل في مجرى الدم يا سيد ريستاريك، وليس إلى المعدة.

قال أليكس بإعجاب: كم هم مُطّلعون بشكل رائع أفراد جهاز الشرطة!

رماه المفتش كيري بنظرات جانبية هادئة، ولاحظ أذنيه المدببتين قليلاً وشكل الوجه المونغولي غير الإنكليزي وعينيه اللتين تتراقصان بالهزء والسخرية المؤذية، وشعر المفتش أن من الصعوبة بمكان أن يعرف المرء فيمَ يفكر أليكس ريستاريك... وعلى نحو ما كان في هذه الفكرة شيء من عدم الارتياح.

إنه مخادع ذو ذكاء كبير... بهذا الوصف كان يمكنه تلخيص شخصية أليكس ريستاريك. كان أذكى من أخيه. كانت

أمه روسية، أو هكذا بَلَغه. كان «الروس» بالنسبة للمفتش كيري يمثلون ما كان يمثله العسكريون الألمان في مطلع القرن العشرين. كل ما يمت إلى روسيا بصلة كان سيئاً في رأي المفتش كيري، ولو أن أليكس ريستاريك كان هو قاتل غولبراندسن لكان حينها مجرماً مقنعاً جداً. ولكن المفتش كيري لم يكن -مع الأسف- مقتنعاً بأي شكل بأن أليكس ارتكب الجريمة.

تحدث الآن الشرطي دودغيت وقد استرد أنفاسه: لقد حركت الستائر كما طلبت مني، وعددت حتى الثلاثين. وقد لاحظت أن في الستائر موضع كُلاَّب ممزقاً في أعلاها، وهذا يعني أنه كانت هناك فتحة، ويمكنك أن ترى الضوء في الغرفة من الخارج.

قال المفتش كيري لأليكس: هل لاحظت الضوء ينبعث من تلك النافذة ليلة أمس؟

أليكس: لم أستطع رؤية البيت كله بسبب الضباب... لقد أخبرتك بذلك.

المفتش: مع أن الضباب يكون متفاوت الكثافة، وينقشع أحياناً للحظة هنا أو هناك.

- لم ينقشع بحيث أستطيع رؤية البيت، أعني كتلة البيت الأساسية. أما مبنى التمرينات الرياضية القريب فقد لاح من وسط الضباب بطريقة غير واضحة وبشكل رائع. وقد أوحى لي مشهده بديكورات عظيمة للمسرح. أنا -كما قلت لك- سأقدم مسرحية

«بيت الكلس» الراقصة، ولذلك...

قاطعه المفتش كيري موافقاً: لقد أخبرتني بذلك.

أليكس: إن المرء يعتاد -كما تعلم- على النظر إلى الأمور من زاوية اختصاصه وكأنها خلفية وديكور مسرحي، وليس من زاوية كونها واقعاً.

- ربما، ومع ذلك فإن الخلفية والديكور المسرحي هما واقعيان تماماً، أليس كذلك يا سيد ريستاريك؟

- لا أفهم تماماً ما تعنيه أيها المفتش.

- أعني أنهما مصنوعان من مواد حقيقية.. قماش وخشب وأصباغ ولوحات. إن الوهم يكمن في عين المشاهد، وليس في الديكور نفسه. وذلك الديكور هو -كما قلت- واقعي تماماً، وهو واقعي خلف المشهد المسرحي بقدر ما هو واقعي أمامه.

حدق به أليكس وقال: أتدري أن هذه الملاحظة عميقة جداً أيها المفتش؟ لقد أوحت لي بفكرة.

- فكرة لمسرحية راقصة أخرى؟

- لا، ليس لمسرحية أخرى... يا لخيبتي! أتساءل إن كنا جميعاً قد أثبتنا غباءنا؟

* * *

عاد المفتش والشرطي دودغيت إلى المنزل عبر المرج العشبي.

قال أليكس لنفسه: "إنهما يبحثان عن آثار أقدام". ولكنه كان مخطئاً؛ إذ أنهما كانا قد بحثا عن آثار أقدام في وقت مبكر جداً من ذلك الصباح، ولم يلقيا نجاحاً لأن أمطاراً غزيرة كانت قد نزلت في الساعة الثانية بعد منتصف الليل. مشى أليكس ببطء عبر الممشى وهو يقلّب في عقله احتمالات فكرته الجديدة.

ولكنه انشغل عن ذلك بمنظر جينا وهي تمشي على الممر قرب البحيرة. كان المنزل في موقع مرتفع قليلاً والأرض تنحدر بانسياب بدءاً بساحات الحصى الأمامية ووصولاً إلى البحيرة التي كانت تتحزم بأشجار الورد والشجيرات الأخرى. ركض أليكس عبر ساحات الحصى وقابل جينا، ثم أغمض عينيه نصف إغماضة وقال: لو كان بالإمكان إطفاء الأنوار والتعتيم على هذا المبنى الفيكتوري المشوه السخيف لأصبحت هذه البحيرة «بحيرة بجع» جميلة جداً تكونين أنت فيها –يا جينا– «سيدة البجع»، مع أنك –عندما أفكر في الأمر– أشبه بأميرة الثلج: عديمة الشفقة، مصممة على السير في طريقك الخاص بدون أية رحمة أو لطف ودون أوليات التراحم. أنت أنثوية جداً جداً يا عزيزتي جينا.

جينا: يا لك من حقود يا عزيزي أليكس!

– ألأنني أرفض أن تخدعيني؟ أنت سعيدة جداً بنفسك، ألست كذلك يا جينا؟ لقد وضعتنا جميعاً حيث تريدين لنا أن

نكون، أنا وستيفن وزوجك ذاك الضخم البسيط.

– كلامك سخيف!

– آه، كلا، هو ليس كذلك. إن ستيفن يحبك، وأنا أيضاً، وزوجك بائس إلى حد اليأس. ما الذي تريده امرأة أكثر من ذلك؟

نظرت إليه جينا وضحكت.

هز رأسه بعنف وقال: إن لديك أوليات النزاهة كما يسعدني أن أرى، وهذا هو الجزء اللاتيني منك. أنت لا تكلفين نفسك عناء التظاهر بأنك لا تلفتين انتباه الرجال، وأنك آسفة جداً لأنهم انجذبوا إليك. إنك تستمتعين بالتأثير على الرجال، ألست كذلك أيتها القاسية جينا؟ وصل الأمر حتى إلى البائس الصغير إدغار لاوسن!

نظرت إليه جينا بثبات ثم قالت بصوت هادئ جاد: إن الأمر لا يبقى فترة طويلة، وللنساء وقت أقل بكثير في هذه الدنيا من الوقت المتاح للرجال. إنهن أكثر عرضة للعطب وعوارض الزمن؛ فهن ينجبن أطفالاً، وينصرف اهتمامهن بشكل كامل إلى أطفالهن. وحالما يفقدن حُسنهن يتوقف الرجال الذين يحبونهن عن هذا الحب، فيُهجَرْن ويُستبعَدْن. أتقول عني بأنني قاسية؟ إن الدنيا قاسية! وعاجلاً أو آجلاً ستكون قاسية عليّ! ولكنني الآن شابة وجميلة ويراني الناس جذابة.

والتمعت أسنانها خلف ابتسامتها الفريدة الدافئة دفء

الشمس وأضافت: نعم، إنني أجد متعة في ذلك يا أليكس.
ولماذا لا أستمتع؟

أليكس: حقاً لماذا؟ ما أريد معرفته هو ما أنت عازمةٌ على فعله تجاه هذا الأمر. هل ستتزوجين ستيفن أم ستتزوجينني؟

جينا: أنا متزوجة بوولتر.

– مؤقتاً... كل امرأة ترتكب غلطة فيما يتعلق بزواجها، ولكن لا ضرورة لأن تعيش أيامها على هذه الغلطة. فبعد تجربة تقديم العرض في الضواحي والمحافظات، جاء الوقت لنقله إلى مركز العاصمة.

جينا: وأنت مركز العاصمة؟

أليكس: بدون أدنى شك.

قالت جينا: "هل تريد حقاً أن تتزوجني؟ إنني لا أستطيع أن أتخيلك متزوجاً". ثم أضافت: إنك تسليني حقاً يا أليكس.

– هذا هو رأسمالي؛ لأن ستيفن أجمل شكلاً مني بكثير. إنه وسيم إلى أبعد الحدود، وعاطفي جداً، وهو الأمر الذي تعشقه النساء بالطبع. ولكن العاطفية مسألة متعبة في البيت. أما معي يا جينا فإنك ستجدين الحياة مسلية.

– ألن تقول بأنك تحبني بجنون؟

– مهما كان صحيحاً فلن أقوله بالتأكيد؛ لأنني إن فعلت

فسيكون ذلك نقطة إضافية لصالحك ونقطة إضافية ضدي. كلا، إن مجمل ما أنا مستعد لفعله هو أن أقدم لك عرضاً عملياً للزواج.

قالت جينا وهي تبتسم: سيكون عليَّ أن أفكر في ذلك.

– طبيعي. بالإضافة إلى أن عليك أن تخلّصي وولتر من بؤسه أولاً. إنني أتعاطف كثيراً مع وولتر. لا بد أن يكون جحيماً مطلقاً عليه أن يكون زوجاً لك، مربوطاً بعجلات عربتك يتجرجر في هذا الجو العائلي الثقيل الموبوء بحب الإنسانية.

– يا لك من وحش يا أليكس!

– وحش مدرك.

– أحياناً لا أعتقد أن وولتر يهتم بي أدنى اهتمام. إنه لم يعد يعيرني أي اهتمام!

– هل أثرته بعصيً ولم يستجب؟ أمر مزعج جداً.

وبحركة خاطفة رفعت جينا راحتها بصفعة مدوية إلى خدِّ أليكس الناعم.

صاح أليكس: "برافو... نقطة!". وبحركة رشيقة سريعة أخذها بين ذراعيه...

– جينا!

تباعد الاثنان بسرعة. كانت تلك ميلدريد التي حدقت بهما

بنظرة يلوح فيها شر مستطير وقد احمر وجهها وارتجفت شفتاها. وللحظة غصَّت عن نطق تلك الكلمات قبل أن تنطلق من فمها بثورة وغضب:

– مقرفة... مقرفة! أيتها البنت الحيوانية المتهتكة... إنك كأمك تماماً... إنك خامة سيئة... وقد عرفت دوماً أنك خامة سيئة... فاسدة كلياً... لست سيئة فحسب، بل أنت قاتلة أيضاً. آه، نعم... أنت قاتلة. إنني أعرف ما أعرفه!

جينا: وما الذي تعرفينه؟ لا تكوني سخيفة يا خالة ميلدريد.

– أنا لست خالة لك والحمد لله. لا تجمعني بك قربى الدم، بل إنك لا تعرفين حتى هوية أمك أو من أين هي! بينما تعرفين ماذا كان أبي وأمي. أية طفلة تلك التي يتبنيانها برأيك؟ ربما ابنة مجرم! من هذه النوعية كانا، ولكن كان عليهما أن يتذكرا أن العرق السيء دساس. مع أنني أعتقد أن العرق الإيطالي فيك هو الذي جعلك تلتفتين إلى السم.

جينا: كيف تجرئين على قول ذلك؟!

ميلدريد: سأقول ما يروق لي. لن تستطيعي أن تنكري الآن أن شخصاً ما حاول تسميم أمي. ومن هو الشخص الذي يحتمل أن يقدم على ذلك أكثر من غيره؟ من ذا الذي يحصل على ثروة هائلة إن ماتت أمي؟ أنت يا جينا. ولك أن تتأكدي بأن الشرطة لم يغفلوا هذه الحقيقة.

ومضت ميلدريد بسرعة وهي لما تزل ترتجف.

أليكس: مريضة... مريضة بكل تأكيد. إنها حقاً مريضة!

جينا: آه، إنني أكرهها، أكرهها، أكرهها.

أطبقت جينا كفيها وارتجفت غضباً.

أليكس: إنها محظوظة لأنك لا تحملين سكيناً في جوربك؛ فلو كان معك سكين لتعلمت العزيزة ميلدريد شيئاً عن القتل من وجهة نظر الضحية. اهدئي يا جينا... لا تظهري بهذا المظهر الميلودرامي المثير كالأوبرا الإيطالية.

– كيف تجرؤ على القول بأنني حاولت تسميم جدتي؟

– حسناً يا حبيبتي. لقد حاول أحدهم أن يسممها، ومن ناحية الدافع للجريمة فإنك في الصورة تماماً، أليس كذلك؟

حدقت به بألم وقالت: أليكس! هل يظن الشرطة ذلك؟

– جينا... إنه لمن الصعب جداً معرفة ما يراه الشرطة؛ فهم يحرصون على حفظ مشاوراتهم بشكل ممتاز، وهم ليسوا حمقى أبداً كما تعلمين. وقد ذكرني ذلك بشيء...

جينا: أين أنت ذاهب؟

أليكس: لتحقيق فكرةٍ من أفكاري.

* * *

الفصل السابع عشر

- أتقول إن شخصاً ما كان يحاول تسميمي؟

كان في صوت كاري لويز ذعر وعدم تصديق. أضافت قائلة: إنني لا أستطيع حقاً تصديق ذلك.

قال لويس سيروكولد بلطف: تمنيت لو كان بوسعي أن أجنبك هذا النبأ يا غاليتي.

وفيما يكاد يكون شروداً مدت إليه يدها فتناولها بيده.

هزت الآنسة ماربل (التي كانت تجلس قريبة منها) رأسها بعطف. وفتحت كاري لويز عينيها وقالت: أهذا صحيح حقاً يا جين؟

الآنسة ماربل: أخشى أنه كذلك بالفعل يا عزيزتي.

كاري لويز: إذن فإن كل شيء...

توقفت، ثم مضت قائلة: كنت أعتقد دوماً أنني أدرك ما هو حقيقي وما هو غير حقيقي. هذا الأمر لا يبدو حقيقياً ولكنه

حقيقي؛ ولذلك فربما كنت مخطئة في كل مجال... ولكن من عساه يريد أن يفعل شيئاً كهذا لي؟ لا أحد في المنزل قد يرغب في... في قتلي.

كان صوتها ما زال يحمل عدم التصديق.

لويس: هذا ما كنت أظنه.. ولكنني كنت مخطئاً.

كاري لويز: وكان كريستيان يعرف بالأمر؟ هذا يفسر كل شيء.

لويس: يفسر ماذا؟

- يفسر تصرفه وسلوكه. كان غريباً جداً. لم يكن أبداً على سجيته المعهودة. بدا... منزعجاً قلقاً عليّ... كما لو أنه كان يريد أن يقول لي شيئاً ثم لا يقوله. ثم سألني إن كان قلبي قوياً وإن كنت بصحة جيدة مؤخراً. ربما كان يحاول التلميح لي. ولكن، لماذا لا يقول الأمر مباشرة؟

- إنه لم يرد أن... أن يسبب لك ألماً يا كارولين.

قالت: "ألماً؟ لماذا؟ آه! فهمت..."، ثم اتسعت عيناها وأضافت: إذن فهذا هو ما تعتقده. ولكنك مخطئ يا لويس... مخطئ تماماً. أستطيع أن أؤكد لك ذلك.

تجنب زوجها عينيها. قالت هي بعد لحظات: إنني آسفة! ولكنني لا أستطيع أن أصدق أن أياً من تلك الأمور التي حدثت

مؤخراً صحيح... إطلاق إدغار النار عليك، علاقة جينا وستيفن، علبة الشوكولاتة السخيفة تلك. إنها أمور غير صحيحة ببساطة.

لم يتكلم أحد.

تنهدت كاري لويز وقالت: أحسب أنني لا بد عشت خارج الواقع لزمن طويل... رجاءً، أنتما الاثنين، أعتقد أنني أود البقاء وحدي... عليّ أن أحاول أن أفهم!

* * *

نزلت الآنسة ماربل الدرج إلى الصالة الكبرى لتجد أليكس ريستاريك واقفاً قرب باب المدخل الضخم المقوس ويده ممتدة في إشارة مظهرية بعض الشيء. قال لها بسعادة وبلهجة من يملك الصالة الكبرى: تفضلي، تفضلي. كنت أفكر لتوي بالليلة الماضية.

أما لويس سيروكولد الذي نزل خلف الآنسة ماربل من غرفة كاري لويز فقد عبر القاعة الكبرى إلى المكتبة، فدخلها وأغلق خلفه الباب.

سألت الآنسة ماربل بلهفة تحاول كبتها: هل تحاول إعادة بناء مشاهد الجريمة؟

نظر إليها أليكس مقطباً وقال: ماذا؟

ثم انفرجت حواجبه، وقال: أوه، تقصدين ذلك. كلا،

ليس بالضبط. كنت أحاول النظر إلى القضية كلها من منظور مختلف كلياً. كنت أفكر في هذا المكان بلغة المسرح. ليس باعتباره واقعاً حقيقياً، بل كجوٍّ مُصْطَنَع! تعالي هنا. فكري في المكان وكأنه خشبة مسرح بديكوراتها، الإضاءة.. المداخل.. المخارج.. أشخاص المسرحية.. أصوات من خارج الخشبة.. كل ذلك مثير جداً، ولكن ليس كله من بنات أفكاري؛ فالمفتش هو الذي أوحى به إلي. أظن أنه رجل قاسٍ بعضَ الشيء؛ فقد بذل كل جهده لكي يرعبني هذا الصباح.

الآنسة ماربل: وهل أرعبك؟

أليكس: لست متأكداً من ذلك.

شرح تجربة المفتش وتوقيت الأداء الذي قام به الشرطي اللاهث دودغيت، ثم قال: إن الوقت مسألة مضللة جداً. يظن المرء أن الأمور تستغرق وقتاً طويلاً، ولكنها -في الواقع طبعاً- لا تأخذ مثل هذا الوقت.

قالت الآنسة ماربل: "صحيح". وفي سبيل تمثيل دور الجمهور تحركت إلى موقع مختلف.

كان ديكور خشبة المسرح -في الحالة هذه- يتألف من حائط ضخم عالٍ مغطى بستائر ثقيلة مزدانة بالصور، مع بيانو ضخم على الجانب الأيسر ونافذة مع كرسيها على الجانب الأيمن، وقريباً جداً من كرسي النافذة كان الباب المفضي إلى

المكتبة. كان مقعد البيانو يبعد أقل من ثلاثة أمتار عن الباب الذي يفضي إلى الساحة الخارجية المربعة المفضية بدورها إلى الممر. وكان هذان مخرجين مناسبين جداً! وكان للجمهور -بالطبع- مجال رؤية ممتاز لكلا المَخرجين...

ولكن، في الليلة الماضية، لم يكن في المسرح جمهور؛ أي أن أحداً لم يكن يجلس في مواجهة ديكورات الخشبة المسرحية، والآنسة ماربل تقف الآن في مواجهتها. كان الجمهور في الليلة الماضية يجلس وظهره لتلك الخشبة نفسها.

وتساءلت الآنسة ماربل: ترى كم من الوقت كانت ستقتضي عملية التسلل خارج الصالة والركض عبر الممر وإطلاق النار على غولبراندسن والعودة؟ لم تكن لتقتضي وقتاً طويلاً كما قد يظن المرء. وإذا ما قيست بالدقائق والثواني فستكون عملية لا تتطلب إلا وقتاً قليلاً في الواقع.

ما الذي عنته كاري لويز عندما قالت لزوجها: "إذن فهذا هو ما تعتقده؟ ولكنك مخطئ يا لويس!"؟

وقطع فيضَ تأملاتها صوتُ أليكس وهو يقول: عليَّ أن أعترف بأن تلك كانت ملاحظة عميقة جداً من قبل المفتش حولَ كونِ ديكورات المسرح واقعاً؛ فهي مصنوعة من الخشب والكرتون وتلتصق ببعضها بالغراء، وهي واقعية حقيقية بنفس الدرجة على الجانب المرسوم والمزخرف منها كما على الجانب الآخر الخالي من أي رسم. ولقد أشار إلى أن "الوهم هو في

أعين الجمهور".

تمتمت الآنسة ماربل بشكل مبهم: كالسحرة! أعتقد أن العبارة العامية التي يطلقونها على أعمالهم هي: إنهم يفعلون ذلك باستخدام المرايا... إنه نوع من «خداع المرايا»!

دخل ستيفن ريستاريك، وهو يلهث قليلاً وقال: مرحباً يا أليكس، ذلك الفتى القذر إيرني غريغ.. لا أدري إن كنت تذكره؟

أليكس: ذاك الذي مثل دور فيسته عندما أخرجت مسرحية «الليلة الثانية عشرة»؟ إن لديه موهبة كبيرة كما أظن.

ستيفن: نعم، إن لديه موهبة وأي موهبة! إنه ممتاز في استخدام يديه أيضا، وقد قام بالكثير من أعمال النجارة لمسرحنا. ولكن ذلك ليس هو الموضوع، فقد كان يتبجح أمام جينا بأنه يخرج في الليل ويتمشى في حدائق المنزل. وقال إنه كان يتمشى ليلة أمس، وتبجح بأنه رأى شيئاً ما.

دار أليكس وقال: ماذا رأى؟

ستيفن: يقول إنه لن يتكلم. في الواقع أنا متأكد تماماً بأنه يحاول فقط أن يتباهى ويلفت الأنظار. إنه كذاب أشِر، ولكنني فكرت... فربما كان ينبغي استجوابه.

قال أليكس بحدة: أفضل أن نتركه قليلاً. لا تجعله يعتقد أننا مهتمون كثيراً بالأمر.

ستيفن: نعم، ربما... أظن أنك قد تكون مصيباً في ذلك. ربما تركناه حتى مساء اليوم.

ومضى ستيفن إلى المكتبة.

كانت الآنسة ماربل تتنقل بخفة في الصالة مؤدية دورَها كجمهور متحرك، فاصطدمت مع أليكس ريستاريك عندما تراجع إلى الخلف فجأة.

الآنسة ماربل: إنني آسفة جداً!

عبس أليكس لها وقال بطريقة شاردة: "عفواً"، ثم أضاف بصوت مندهش: آه، هذا أنت.

بدت تلك الملاحظة غريبة بالنسبة للآنسة ماربل، خاصة وهي تصدر عن شخص كانت تتحدث معه لوقت طويل.

أليكس: "كنت أفكر في شيء آخر... في ذلك الصبي إيرني". ثم قام بحركات مبهمة بكلتا يديه.

بعد ذلك، وبتغير مفاجئ في سلوكه، عبر القاعة ودخل من الباب المفضي إلى المكتبة وأغلق الباب خلفه.

تناهت همهمة الأصوات من خلف الباب المغلق، ولكن الآنسة ماربل لم تكد تلاحظها؛ فهي لم تكن مهتمة بذلك الفتى الموسوعي، إيرني، وبما رآه أو ادعى أنه رآه. كان لديها شك حاد بأن إيرني لم يشاهد شيئاً على الإطلاق. لم تصدق لحظةً

واحدة بأن إيرني يمكن أن يكلف نفسه عناء ممارسة ألاعيبه في فتح الأقفال والخروج للتجول في الحديقة في ليلة باردة جداً يلفها الضباب كليلة أمس، وأغلب الظن أنه لم يخرج أبداً في الليل، وأن الأمر كله مجرد تبجح.

وفكرت الآنسة ماربل... إن إيرني يشبه جوني باكهاوس الذي كان لديه دوماً خزين من النظائر يغترف منه، نظائر منتقاة من سكان قريتها سينت ميري ميد.

لقد كانت عبارته الاستفزازية لكل من يعتقد أنها يمكن أن تؤثر فيه هي: "لقد رأيتك ليلة أمس". وقد كانت تلك ملاحظة ناجحة بشكل منقطع النظير، ولذلك فكرت الآنسة ماربل بأن كثيراً من الناس ربما كانوا في أماكن حرصوا على أن لا يراهم أحد فيها!

استبعدت جوني من عقلها، وركّزت على أمر مبهم حرّكَتْه فيها روايةُ أليكس بخصوص ملاحظة المفتش كَيري. فتلك الملاحظة قد أعطت فكرةً ما لأليكس، وهي لم تكن واثقة أنها لم تعطها -هي أيضاً- فكرة خاصة. هل كانت نفس الفكرة أم كانت فكرة مختلفة؟

وقفت حيث وقف أليكس ريستاريك قبل ذلك، وفكرت مع نفسها: "هذه ليست صالة حقيقية؛ إنها مجرد كرتون وقماش وخشب... إنها مشهد مسرحي". ثم التمعت في عقلها صور وعبارات متشظية: "وهم... في أعين الجمهور... إنهم يفعلون

ذلك بواسطة المرايا... طاسات يخرج منها السمك... أشرطة ملونة طويلة ونساء تختفي..."، وكل زخارف وخداع السحرة.

شيء ما تحرك في ضميرها... صورة... شيء ما قاله أليكس... شيء ما شرحه لها أليكس. الشرطي دودغيت ينفخ ويلهث... يلهث. وتحرك شيء ما في عقلها... ووقع فجأة تحت عدسة التركيز، فقالت: بالطبع. ذلك هو الأمر دون شك!

* * *

الفصل الثامن عشر

- آه يا وولتر، لقد أجفلتني!

قفزت جينا خطوة إلى الخلف بعدما كانت تخرج من الظلال قرب خشبة المسرح، إذ أجفلتها صورة زوجها يتجسّد أمامها خارجاً من الظلمة. لم تكن الدنيا قد أظلمت تماماً بعد، ولكنها كانت -في ذلك الوقت الذي تسود فيه نصفُ أضواء- غريبةً مخيفة، حيث تفقد الأشياء حقيقتها الواقعية وتكتسب أشكالاً خيالية كابوسية.

جينا: ما الذي تفعله هنا؟ إنك لا تأتي إلى المسرح أبداً في العادة.

وولتر: ربما كنت أبحث عنك يا جينا. وهذا -عادةً- أفضلُ مكان للعثور عليك، أليس كذلك؟

لم يكن في صوت وولتر الناعم الذي تلوح فيه مسحة تشدق أي تلميح خاص، ومع ذلك جفلت جينا قليلاً.

- إنه عمل أحبه كثيراً. أنا أحب جوَّ الأصباغ، والرسومات،

وخلفية المسرح عموماً.

- نعم. إن ذلك يعني كثيراً بالنسبة إليك، لقد رأيت ذلك. أخبريني يا جينا، كم يمضي من الوقت -حسب ظنك- قبل أن تنتهي هذه القضية كلها؟

- سيكون الاستجواب غداً، وسيتم تأجيل النظر في القضية لمدة أسبوعين تقريباً. هذا -على الأقل- ما فهمناه من المفتش كيري.

- أسبوعان. نعم، فهمت. لنقُلْ: ثلاثة أسابيع ربما. وبعد ذلك... نكون أحراراً. سأعود إلى الولايات المتحدة عندها.

صاحت جينا: أوه! ولكنني لا أستطيع الاستعجال بهذا الشكل. لا أستطيع ترك جدتي، ولدينا هاتان المسرحيتان اللتان نقوم بتحضيرهما...

وولتر: أنا لم أقل: «سنذهب» بل قلت: «سأذهب».

توقفت جينا ونظرت إلى زوجها. كان في تأثير الظلال شيء جعله يبدو ضخماً جداً، جسماً ضخماً هادئاً، وبدا لها -بشكلٍ ما- وكأن فيه مسحة من تهديد أو خطر... كان يقف فوقها... مهدداً... بماذا؟

قالت بتردد: هل تعني.. أنك لا تريدني أن أذهب؟

وولتر: كلا... أنا لم أقل ذلك.

- ولكنك لا تهتم إن ذهبت أو لم أذهب، أليس كذلك؟

باتت -فجأة- غاضبة.

وولتر: اسمعيني جيداً يا جينا. لقد حان الوقت الذي ينبغي علينا فيه أن نواجه الحقائق. إننا لم نكن نعرف كثيراً عن بعضنا البعض عندما تزوجنا، ولم نكن نعرف كثيراً عن خلفية كلٍ منا، وعن عائلة كلٍ منا. ظننا أن ذلك لا يهم. ظننا أنْ لا شيء يهم سوى قضاء وقت ممتع معاً. حسناً، لقد انتهت المرحلة الأولى. وعائلتك لم تحترمني كثيراً، ولن تفعل ذلك! ربما كانوا مصيبين في وجهة نظرهم؛ فأنا لست من نفس طرازهم. فإن كنت تعتقدين بأنني سأبقى هنا أعُدُّ الأيام والساعات، وأقوم بأعمال غريبة في إطار تركيبة أعتبرها تركيبة مجنونة، فالأجدر أن تعيدي التفكير في الأمر! إنني أريد أن أعيش في بلدي، وأقوم بالأعمال التي أرغب في القيام بها وأستطيع القيام بها. إن فكرتي عن الزوجة المثالية تفترض زوجة تتبنى موقف الرواد الأوائل، مستعدة لكل شيء... للمصاعب، ولبلد غير مألوف، وللخطر وللبيئات الغريبة... ربما كان طلبُ ذلك منك أمراً كبيراً لا تستطيعينه، فإما أن يكون الحال هكذا أو لا يكون أبداً! ربما كنت قد أكرهتك على الاستعجال في الزواج. فإن كان الأمر كذلك فالأفضل أن تتحرري مني وتبدئي من جديد. الأمر عائد إليك. إن كنت تفضلين واحداً من دعيّي الفن فهي حياتك وعليك أن تختاري، أما أنا فعائد إلى وطني.

جينا: أعتقد أنك خنزير تماماً... إنني أستمتع هنا.

وولتر: حقاً؟ حسناً، أما أنا فلا أستمتع. أحسبك تستمتعين حتى بالقتل؟

سحبت جينا نفسها بحدة وقالت: إن قولك هذا قاسٍ وشرير. لقد كنت أحب الخال كريستيان كثيراً. ثم ألا تدرك بأن شخصاً ما كان يسمم جدتي بصمت وهدوء منذ أشهر؟ أمر فظيع!

– لقد قلت لك: إنني لا أحب هذا المكان، ولا أحب الأشياء التي تجري هنا. أنا أنسحب.

– هذا إذا سُمح لك بذلك! ألا تدرك بأنك قد تعتقل بسبب مقتل الخال كريستيان؟ إنني أكره الطريقة التي ينظر بها المفتش كيري إليك. إنه –تماماً– كقطة تراقب فأراً ومخلبُها الحادّ جاهز للانقضاض. لمجرد أنك كنت خارج الصالة تصلح تلك الأضواء، ولأنك لست إنكليزياً.. أنا واثقة أنهم سيعصبونها برأسك.

– سيحتاجون إلى دليل ما قبل ذلك.

ناحت جينا قائلة: أنا خائفة من أجلك يا وولتر... وقد كنت خائفة طوال هذه المدة.

– لا داعي للخوف. أقول لك بأنهم لا يملكون شيئاً ضدي!

ومشى الاثنان صامتين باتجاه المنزل. وأخيراً قالت جينا: لا أعتقد أنك تريدني حقاً أن أعود معك إلى أمريكا...

لم يجبها وولتر.

دارت جينا لتواجهه وضربت الأرض برجلها وصاحت: إنني أكرهك، أكرهك. أنت فظيع... وحش... وحش قاسٍ لا يحس. بعد كل الذي حاولت فعله لأجلك! تريد التخلص مني، ولا تهتم لعدم رؤيتي أبداً مرة أخرى. حسناً، أنا لا أهتم لعدم رؤيتك أنت ثانية! لقد كنت مغفلة حمقاء عندما تزوجتك، وسوف أحصل على طلاق منك بأسرع ما يمكن، سوف أتزوج ستيفن أو أليكس وأكون أكثر سعادة بكثير من أية سعادة قد أحسها أبداً معك، وإنني أتمنى أن تعود إلى الولايات المتحدة وتتزوج فتاة فظيعة تجعلك حقاً تعيساً!

وولتر: ممتاز! إننا نعرف الآن مواقع أقدامنا!

* * *

رأت الآنسة ماربل وولتر وجينا يدخلان المنزل معاً. كانت تقف في المكان الذي أجرى فيه المفتش كيري تجربته مع الشرطي دودغيت في وقت مبكر من عصر ذلك اليوم.

جعلها صوت الآنسة بيليفر خلفها تجفل: ستبردين بوقوفك هكذا يا آنسة ماربل بعد غروب الشمس.

استجابت الآنسة ماربل بخضوع لمسايرتها، ومشت الاثنتان بخفة إلى المنزل.

الآنسة ماربل: كنت أفكر بحيل الحُواة والسحرة. يكون من الصعب جداً فهمها عندما تراقبينهم لتري كيف يفعلون، ومع ذلك فما أن يتم شرح تلك الحيل حتى تريها بسيطة إلى حد السخف (مع أنني لا أستطيع -حتى الآن- أن أتخيل كيف يُخرج السحرة أواني مليئة بالسمك!) رأيتِ من قبلُ المرأة التي ينشرونها نصفين بالمنشار؟ حيلة مخيفة حقاً، ولقد أسرتني عندما كنت في سن الحادية عشرة كما أذكر، ولم أستطع أبداً أن أتخيل كيف يتم عمل ذلك. ولكن، قبل أيام، كانت مقالة في صحيفةٍ ما تكشف الأمر كله. لا أعتقد أنه يجدر بصحيفة أن تفعل ذلك، أليس كذلك؟ ويبدو أن الحيلة لا تنطوي على فتاة واحدة بل اثنتين. رأس فتاة وأقدام فتاة أخرى. يعتقد المرء أنهما فتاة واحدة، وهما في الواقع اثنتان... والعكس قد ينجح أيضاً بنفس الدرجة أيضاً، أليس كذلك؟

نظرت إليها الآنسة بيليفر بشيء من الدهشة.

لم تكن الآنسة ماربل تقع كثيراً في مثل هذا الخلط وعدم الانسجام في حديثها. وفكرت الآنسة بيليفر مع نفسها قائلة: لقد كان الأمر كله مرهقاً بالنسبة لهذه السيدة العجوز!

مضت الآنسة ماربل قائلة: عندما تنظرين إلى جانب واحد فقط من أمرٍ ما، فإنك لا ترين إلاّ ذلك الجانب وحده، ولكن

الأمور كلها تأخذ مكانها الصحيح تماماً إن استطعت فقط أن تقرري ما هو الواقع وما هو الوهم.

ثم أضافت فجأة: هل كاري لويز.. بخير؟

الآنسة بيليفر: نعم، إنها بخير، ولكن لابد أن الأمر كان صدمة بالنسبة لها... أن تكتشف أن شخصاً ما كان يريد قتلها. أعني أن الأمر كان صدمة لها بشكل خاص؛ لأنها لا تفهم العنف.

قالت الآنسة ماربل بتأمل: كاري لويز تفهم بعض الأشياء التي لا نفهمها نحن، وقد كانت دوماً كذلك.

- أدرك ما تعنينه، ولكنها لا تعيش في عالم الواقع.

- ألا تعيش حقاً فيه؟

نظرت إليها الآنسة بيليفر بدهشة وقالت: لا يوجد شخصٌ أبعدُ عن الحياة الدنيوية من كاري...

قالت الآنسة ماربل: "ألا تظنين أنه ربما..."، ثم توقفت فجأة، فقد عبر أمامهما إدغار لاوسن متمايلاً بخطىً سريعة. أومأ برأسه إيماءة إحراج وخجل، ولكنه أشاح بوجهه جانباً عند عبوره.

الآنسة ماربل: لقد تذكرت الآن بمن يذكّرني هذا الشاب، وقد خطر لي ذلك فجأة. إنه يذكرني بطبيب أسنان شاب يدعى ليونارد وايلي، كان والده طبيب أسنان أيضاً، ولكنه كبر في السن وأصبحت يده ترتجف، فأصبح الناس يفضلون الذهاب

إلى الابن. وقد شعر العجوز بتعاسة كبيرة من هذا الأمر وأصبح كئيباً يحدّث نفسه ويقول إنه لم يعد يصلح لأي شيء. أما ليونارد (الذي كان رقيق القلب جداً وأحمق بعض الشيء) فقد بدأ بالتظاهر بأنه يشرب وكانت تفوح منه دوماً رائحة الشرب، وأخذ يدّعي أنه مخمور مرتبك كلما أتاه مرضاه. كانت فكرته أن هؤلاء الزبائن سيعودون ثانية إلى والده قائلين إن الشاب لم يعد يصلح.

الآنسة بيليفر: وهل عادوا إلى والده؟

الآنسة ماربل: كلا بالطبع. إن ما حدث هو ما كان يمكن لأي ذي عقل أن يتنبأ بحدوثه؛ فقد ذهب المرضى إلى السيد ريلي طبيب الأسنان المنافس. وهكذا فإن كثيراً من ذوي القلوب الطيبة لا عقل لديهم. وبالإضافة إلى ذلك فإن ليونارد وايلي لم يكن مُقنعاً... إن فكرته عن الثمالة لم تكن تشبه أبداً الثمالة الحقة، فقد كان يسرف في سكب الشراب على ملابسه إلى حد مستحيل تماماً.

دخلت المرأتان إلى المنزل من الباب الجانبي.

* * *

الفصل التاسع عشر

في المنزل وجدتا العائلة مجتمعة في المكتبة. كان لويس يذرع الغرفة جيئة وذهاباً، وكان في الجو إحساس بالتوتر العام.

سألت الآنسة بيليفر: هل من أمر؟

قال لويس باقتضاب: إيرني غريغ غائب عن التعداد اليومي هذه الليلة.

الآنسة بيليفر: هل هرب؟

لويس: لا ندري. الدكتور مافيريك وبعض أعضاء هيئة التدريس يبحثون في الحدائق. إن لم نستطع أن نجده فينبغي أن نتصل بالشرطة.

هُرعت جينا إلى كاري لويز وقد ذعرت من بياض وجهها وقالت: جدتي! تبدين مريضة.

كاري لويز: إنني حزينة... يا للفتى المسكين!

لويس: كنت أنوي استجوابه هذا المساء لأرى إن كان قد

رأى أي شيء مهم ليلة أمس. كان لديّ عرض بوظيفة جيدة له، وظننت أن بوسعي -بعد مناقشة ذلك معه- فتح الموضوع الآخر. والآن... ثم توقف فجأة.

تمتمت الآنسة ماربل بهدوء: "صبي أحمق... صبي أحمق مسكين". ثم هزت رأسها أسفاً، فقالت السيدة سيروكولد بلطف: إذن فأنت تعتقدين ذلك أيضاً يا جين؟

دخل ستيفن ريستاريك وقال: لم أرك في المسرح يا جينا. أظنك قلت أنك... مرحباً، ما الأمر؟

كرر لويس معلوماته، وعندما أنهى كلامه دخل الدكتور مافيريك مع صبي أشقر ذي وجنتين ورديتين ووجه ملائكي يثير الارتياب. وتذكرت الآنسة ماربل وجوده على العشاء في الليلة التي وصلت بها إلى ستوني غيتس.

مافيريك: لقد أحضرت آرثر جينكنز. يبدو أنه كان آخر شخص تحدث مع إيرني.

لويس سيروكولد: والآن يا آرثر. أرجوك أن تساعدنا إن كنت تستطيع. أين ذهب إيرني؟ هل هذه مجرد مزحة؟

آرثر: لا أدري يا سيدي. حقيقةً، لا أدري؛ فهو لم يقل لي شيئاً. كان منشغلاً جداً بالمسرحية، هذا كل ما في الأمر. قال إن لديه فكرة مبتكرة جداً بشأن الديكور، فكرة ارتأت السيدة هَدْ والسيد ستيفن أنها من الدرجة الأولى.

السيد سيروكولد: أمر آخر يا آرثر... لقد ادّعى إيرني أنه كان يطوف في الحدائق بعد إقفال أبواب الكلية ليلة أمس. فهل كان ذلك صحيحاً؟

آرثر: بالطبع ليس صحيحاً. مجرد تبجح، هذا كل ما في الأمر. إيرني كذاب فاسد... إنه لم يخرج أبداً في أية ليلة. كان يباهي بأنه يستطيع الخروج، ولكنه لم يكن على تلك الدراية بالأقفال! إنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً بالأقفال إن كانت من النوع الجيد. وعلى كل حال، فإنه كان داخل الكلية ليلة أمس، هذا أمر أنا واثق منه.

السيد سيروكولد: هل تقول ذلك لمجرد إقناعنا يا آرثر؟

أجاب آرثر بإخلاص: أقسم بأغلظ الأيمان.

لم يبدُ لويس سيروكولد مقتنعاً تماماً.

مافيريك: اسمعوا... ما هذا؟

كانت همهمات أصوات تقترب. انفتح الباب بقوة واندفع السيد بومغارتن إلى الغرفة وهو يبدو شديد الشحوب والمرض. التقط أنفاسه وقال: لقد وجدناه... بل وجدناهما. أمر فظيع!

ثم ارتمى على كرسي ومسح جبينه.

قالت ميلدريد بحدة: ماذا تعني بوجدناهما؟

كان بومغارتن يرتجف من رأسه حتى أخمص قدميه. قال:

هناك، في المسرح، كان رأساهما منسحقين... لابد أن الثقل الضخم الموضوع لأغراض التوازن قد سقط عليهما. أليكس ريستاريك وذلك الصبي إيرني غريغ... كلاهما ميتان!

* * *

الفصل العشرون

الآنسة ماربل: لقد أحضرت لكِ كوباً من الحساء الثخين يا كاري لويز. أرجوك أن تشربيه.

اعتدلت السيدة سيروكولد في جلستها على السرير الضخم المصنوع من خشب السنديان. بدت صغيرة جداً وكأنها طفلة. وجنتاها قد فقدتا توردهما الأحمر، وعيناها لازمتهما نظرة شرود غريبة.

أخذت الحساء طائعة من الآنسة ماربل، وفيما بدأت باحتسائه جلست الآنسة ماربل على كرسي قرب السرير.

كاري لويز: في البداية كريستيان، والآن أليكس وذلك الصغير المسكين الذكي إيرني. هل كان حقاً... يعرف أي شيء؟

الآنسة ماربل: لا أعتقد ذلك. كان يكذب فقط، جاعلاً من نفسه إنساناً مهماً بتلميحه إلى أنه رأى أو عرف شيئاً ما. والمأساة هي أن شخصاً ما قد صدق أكاذيبه.

ارتعشت كاري لويز، وعادت عيناها إلى شرودهما البعيد

وقالت: لقد قصدنا أن نفعل الكثير من أجل هؤلاء الصبية... وقد فعلنا شيئاً بالفعل؛ فقد نجح بعضهم بشكل رائع، والعديد منهم يحتلون مواقع جيدة حقاً. وفي المقابل عاد القليل منهم فانزلقوا، وذلك أمرٌ لا يمكن تجنبه. فالظروف العصرية المدنية معقدة جداً، أكثر تعقيداً من أن تستطيع مواكبتها طبائعُ بسيطة ينقصها التطوير. هل تعرفين خطة لويس الكبرى؟ لقد كان يشعر دوماً بأن النفي كان إجراءً أدى إلى إنقاذ العديد من المجرمين المحتملين في الماضي. كانوا يُشحنون إلى ما وراء البحار، وكانوا يبنون لأنفسهم حياة جديدة في بيئات أكثر بساطة. وهو يريد البدء بمشروع حديث على هذه الأسس. يريد أن يشتري بقعة ضخمة من الأرض، أو مجموعة جزر، ويموّلها لبضع سنوات، ويجعل منها مجتمعاً تعاونياً مكتفياً ذاتياً، يسهم فيه الجميع كلٌّ بحصته، شريطة أن يكون منعزلاً بحيث ينتفي إغراء العودة إلى المدن وإلى أيام الانحراف الماضية. إنه حلمه... ولكن هذا الحلم سيتطلب أموالاً كثيرة بالطبع، ولم يعد يوجد الآن الكثير من محبي الأعمال الإنسانية ذوي الرؤية والبصيرة. إننا بحاجة إلى إيريك غولبراندسن آخر؛ فقد كان من شأن إيريك أن يتحمس لهذا المشروع لو كان حياً.

التقطت الآنسة ماربل مقصاً قريباً ونظرت إليه بفضول قائلة: يا لهذا المقص الغريب! إنّ له فتحتي أصبعين في جانب وفتحة أصبع واحدة في الجانب الآخر.

عادت عينا كاري لويز من شرودهما في ذلك البعد القصي

المخيف. قالت: لقد أعطانيه أليكس هذا الصباح، إذ يفترض أن يسهّل هذا المقص قصَّ أظافر اليد اليمنى. يا لذلك الفتى العزيز! لقد كان متحمساً جداً، حتى أنه دفعني إلى تجربة المقص في التوِّ واللحظة.

الآنسة ماربل: وأحسب أنه جمع قُلاماتِ الأظافر وأخذها بكل حرص وعناية.

كاري لويز: نعم، إنه...

ثم توقفت فجأة وقالت: لماذا قلت ذلك؟

الآنسة ماربل: كنت أفكر في أليكس. إنه شاب ذكي. نعم، شاب ذكي.

– هل تعنين... أنه مات بسبب ذلك؟

– أعتقد ذلك، نعم.

– هو وإيرني... إنني لا أستطيع التفكير بهذا الأمر. متى يعتقدون أن الأمر قد حدث؟

– في وقت متأخر من هذا المساء. ربما كان بين السادسة والسابعة مساءً...

– بعد أن أنهيا عمل يومهما؟

– نعم.

وفكرت الآنسة ماربل: "إن جينا كانت هناك في ذلك المساء، وكذلك وولتر، وستيفن أيضاً قال إنه ذهب إلى هناك ليبحث عن جينا... ولكن -على ضوء ذلك- كان بوسع أي أحدٍ...".

وجاء ما يقطع حبل أفكارها. قالت كاري لويز بهدوء وعلى نحو غير متوقع: إلى أي حد تعرفين يا جين؟

نظرت إليها الآنسة ماربل بحدة، والتقت عينا المرأتين. قالت الآنسة ماربل ببطء: إن كنتُ واثقة تماماً...

كاري لويز: أعتقد أنك واثقة يا جين.

عادت الآنسة ماربل لتقول ببطء: ما الذي تريدين مني أن أفعله؟

اتكأت كاري لويز على وسادتها وقالت: "إن الأمر بين يديك يا جين... وستفعلين ما ترينه صحيحاً". ثم أغمضت عينيها.

ترددت الآنسة ماربل وهي تقول: غداً... سأحاول الحديث مع المفتش كيري... إن كان له أن يستمع...

* * *

الفصل الحادي والعشرون

قال المفتش كيري بشيء من نفاد الصبر: نعم يا آنسة ماربل؟

سألته الآنسة ماربل: أترى أن بوسعنا أن نذهب إلى الصالة الكبرى؟

بدا المفتش كيري مندهشاً قليلاً وقال: أتعتقدين أن ذلك سيكون أحفظَ لحديثنا؟ من المؤكد أن هذا المكان أفضل...

ثم نظر إلى غرفة المكتب حوله.

الآنسة ماربل: ليست سرية الحديث هي ما أفكر فيه كثيراً، بل إنني أريد أن أريك أمراً؛ شيئاً جعلني أليكس أراه.

نهض المفتش كيري وهو يكظم تنهيدة وتبع الآنسة ماربل. قال آملاً: هل كان أحد يفضي إليك بحديثٍ ما؟

الآنسة ماربل: كلا. المسألة ليست مسألة ما قاله الناس، بل هي في الواقع مسألة حيل سحرية. خداع مرايا... أو شيء من هذا القبيل، إن كنت تفهم ما أعنيه.

لم يفهم المفتش كيري. حدق بالآنسة ماربل متسائلاً إن كانت قواها العقلية على ما يرام.

أخذت الآنسة ماربل مكانها واقفةً وطلبت من المفتش أن يقف إلى جانبها وقالت: أريدك أن تفكر في هذا المكان كخشبة مسرح أيها المفتش.. كما كان ليلةَ مقتل كريستيان غولبراندسن. أنت هنا بين الجمهور تنظر إلى الناس على خشبة المسرح: أنا والسيدة سيروكولد وميلدريد وجينا وستيفن... وكما هو الأمر على خشبة المسرح، توجد مداخل ومخارج، والشخصيات تخرج إلى أماكن مختلفة. إلاّ أنك لا تفكر –وأنت بين الجمهور– أين هم ذاهبون حقاً. يخرجون إلى «الباب الأمامي» أو إلى «المطبخ»، وعندما يفتح الباب فإنك ترى مساحة صغيرة من الخلفية القماشية المرسومة. ولكن الواقع –طبعاً– هو أنهم يخرجون إلى أجنحة خشبة المسرح، أو إلى المؤخرة مع النجارين والكهربائيين والشخصيات الأخرى التي تنتظر دورها في الظهور على الخشبة.. إنهم يخرجون إلى عالم مختلف.

المفتش: إنني لا أرى تماماً يا آنسة ماربل ما تريدين...

قاطعته قائلة: آه، أعرف. يمكنني القول إن ما أقوله يبدو سخيفاً جداً، ولكن إن فكرنا في هذا الأمر كأنه مسرحية، والمشهد هو «الصالة الكبرى في ستوني غيتس»... فما الذي نراه خلف المشهد بالضبط؟ أعني: ما هي خلفية خشبة المسرح؟ المصطبة الأمامية، أليس كذلك؟ المصطبة وكثير من النوافذ التي تطل

عليها. وهذه هي الطريقة التي موررست بها الحيل السحرية. وقد كانت حيلة «المرأة المنشورة إلى نصفين» هي التي جعلتني أفكر بذلك.

– المرأة المنشورة نصفين؟

بات المفتش كيري الآن متأكداً تماماً أن الآنسة ماربل مريضة عقلياً.

الآنسة ماربل: لعبة سحرية مخيفة جداً. لابد أنك شاهدتها، إلاّ أنها لا تنطوي فقط على فتاة واحدة فعلاً، بل فتاتين: الرأس لواحدة والقدمان لواحدة أخرى. تبدو وكأنها فتاة واحدة، ولكنهما فتاتان حقاً، ولذلك فقد ظننت بأن الأمر قد يكون أيضاً بالمقلوب: شخصان قد يكونان في الواقع شخصاً واحداً.

بدا المفتش كيري يائساً وهو يقول: شخصان هما في الواقع شخص واحد؟!

الآنسة ماربل: نعم، ولكن ليس لفترة طويلة. كم استغرق شرطيُّك في ركضه من الحديقة إلى المنزل وبالعكس؟ دقيقتين وخمساً وأربعين ثانية، أليس كذلك؟ إن الوقت هنا سيكون أقل من ذلك... أقل من دقيقتين.

المفتش: ما الذي سيكون في أقل من دقيقتين؟

الآنسة ماربل: الحيلة السحرية... حيث لم يكن شخصان بل شخص واحد. هناك... في المكتب. إننا لا ننظر إلاّ إلى

الجانب المرئي من خشبة المسرح، وخلف الخشبة المصطبةُ وصفٌ من النوافذ. من السهل جداً -عندما يكون في المكتب شخصان- فتح نافذة المكتب والخروج منها، والجري عبر المصطبة (تلك الخطوات التي سمعها أليكس)، ثم الدخول من الباب الجانبي، وإطلاق النار على كريستيان غولبراندسن، والعودة سريعاً. وخلال ذلك الوقت يؤدي الشخص في الغرفة أصوات الاثنين بحيث نكون -جميعاً- واثقين تماماً بأن في المكتب شخصين اثنين (وهذا هو ما كان -بالفعل- في أغلب الوقت، ما عدا تلك الفترة القصيرة التي تقتضي أقل من دقيقتين).

وجد المفتش كيري أخيراً أنفاسه وصوته ليقول: هل تعنين أن إدغار لاوسن هو الذي ركض عبر المصطبة وأطلق النار على غولبراندسن؟ وأن إدغار هو الذي سمم السيدة سيروكولد؟

الآنسة ماربل: ولكن ألا ترى أيها المفتش؟ لم يكن أحدٌ يسمم السيدة سيروكولد أبداً. هنا يأتي دور التضليل... لقد استخدم أحدهم -بذكاء بالغ- حقيقة أن معاناة السيدة سيروكولد من التهاب المفاصل لم تكن تختلف كثيراً عن أعراض التسمم بالزرنيخ. إنها الحيلة القديمة التي يفعلها الساحر عندما يجبرك على أخذ بطاقة ورق لعب معينة. من السهل تماماً إضافة زرنيخ إلى زجاجة شراب منشط، ومن السهل تماماً إضافة بضعة أسطر إلى رسالة مطبوعة. ولكن السبب الحقيقي لمجيء غولبراندسن إلى هنا كان هو السبب الأقرب إلى الاحتمال... أي أنه جاء لشيء ذي علاقة بمجلس وصاية معهد غولبراندسن... وبالمال

-تحديداً- في الواقع. لنفترض أن اختلاساً كان يجري... اختلاساً على مستوى كبير جداً... ألا ترى أين يشير ذلك؟ لشخص واحد فقط!

لهث المفتش كيري، وقال متمتماً: لويس سيروكولد؟

قالت الآنسة ماربل: لويس سيروكولد...

* * *

الفصل الثاني والعشرون

جزء من رسالةٍ من جينا إلى خالتها السيدة فان ريدوك:

وهكذا ترين -يا خالتي الغالية روث- أن الأمر كله كان تماماً ككابوس... وخاصة نهايته. لقد أخبرتك كل شيء عن ذلك الرجل المضحك إدغار لاوسن. كان دوماً مثالاً للفشل، وعندما بدأ المفتش باستجوابه وتحطيم دفاعاته، فَقَد أعصابه تماماً وجرى كأرنب. اكتفى بأنْ فقد أعصابه وهرب... هرب بالمعنى الحرفي للكلمة: قفز من النافذة، وجرى حول المنزل ثم عبر الممشى، وهناك كان شرطيٌّ واقفاً ليعترضه، فانحرف وجرى بكامل سرعته باتجاه البحيرة حيث قفز إلى قارب قديم متعفن (اهترأ هناك لبقائه سنوات حيث انجرف. وكان ذلك بالطبع تصرفاً مجنوناً لا معنى له، ولكن -كما قلت لك- كان مجرد أرنب صعقه الذعر. وعندها أطلق لويس صرخة مدوية وقال: "ذلك القارب متعفن"، وانطلق إلى البحيرة هو الآخر. غرق المركب، وكان إدغار هناك يصارع الماء؛ إذ لم يكن يعرف السباحة. قفز لويس وسبح إليه، ووصله بالفعل، ولكنهما كليهما كانا في وضع صعب لأنهما عَلِقا بين القصب. وقد رمى أحد رجال الشرطة بنفسه مع حبل لفه حول جسمه، ولكنه علق أيضاً، وقد اضطروا إلى جرّه إلى الشاطئ. صاحت الخالة ميلدريد: "سيغرقان.. سيغرقان.. سيغرقان كلاهما".

قالت ذلك بطريقة سخيفة، واكتفت جدتي بالقول: "نعم".
لا أستطيع أن أصف لك كيف بدا معنى هـذه الكلمة الوحيدة... مجرد "نعم"، وكان من شأن هـذه الكلمة أن تخترق المرء مثل... مثل سيف.

هل أتكلم بشكل سخيف وميلودرامي؟ أحسب أنني كذلك، ولكن كلمتها بدت كما وصفتها حقاً. وبعدها... عندما انتهى الأمر كله وأخرجوهما وحاولوا إجراء تنفس صناعي (دون أية فائدة) جاء المفتش إلينا وقال لجدتي: "أخشى -يا سيدة سيروكولد- أنه لا أمل". فأجابته جدتي بكل هدوء: "شكراً أيها المفتش".

ثم نظرت إلينا جميعاً: أنا التي كنت أتوق إلى المساعدة ولكنني لا أدري كيف، وجولي التي كانت تبدو عابسة ورقيقة وجاهزة لمدّ يد العون كعادتها، وستيفن وقد مد يديه، وإلى العجوز المضحكة الآنسة ماربل التي بدت حزينة جداً ومتعبة، وحتى وولتر بدا منزعجاً. كنا نحبها جميعنا ونريد فعل شيء ما لها.

ولكن جدتي اكتفت بالقول: "ميلدريد"؟ فقالت الخالة ميلدريد: "أمي"، ثم مضتا معاً إلى المنزل، فيما بدت جدتي صغيرة الجسم جداً وضعيفة جداً وهي تتكئ على الخالة ميلدريد. لم أدرك -حتى ذلك الحين- إلى أي مدى كانتا مغرمتين ببعضهما. لم يكن ذلك يظهر كثيراً، ولكن الحب كان هناك طوال الوقت...

أما بالنسبة لي ولوولتر، فإننا عائدان إلى الولايات المتحدة بأقصى سرعة ممكنة.

* * *

الفصل الثالث والعشرون

- ما الذي جعلك تحزرين يا جين؟

أخذت الآنسة ماربل وقتها في الإجابة. نظرت -متأملةً- إلى جليسيها، كاري لويز (التي أصبحت أنحل وأضعف، ومع ذلك غير متأثرة بشكل يدعو للاستغراب)، والرجل العجوز ذي الابتسامة العذبة والشعر الأبيض الكثيف، الدكتور غالبرايث.

قال الدكتور غالبرايث: لقد شكل لك ذلك ألماً عظيماً يا أيتها المسكينة، وصدمة عظيمة أيضاً.

كاري لويز: ألماً نعم، ولكنه لم يشكل حقاً صدمة.

الآنسة ماربل: صحيح. هذا ما كشفته، أتعلمين ذلك؟ كان الجميع يرددون كيف أن كاري لويز تعيش في عالم آخر غير هذا العالم وأنها فقدت الصلة بالواقع، ولكن -في الحقيقة- كان الواقع هو ما بقيتِ على صلة به يا كاري لويز وليس الوهم. إنك لا تنخدعين أبداً بالوهم كما ينخدع أغلبنا. وعندما أدركتُ ذلك فجأة علمتُ بأنه ينبغي أن أسترشد بما فكرتِ فيه أنت

بما يمكن تحقيقه... بالمال. لم يكن يريد المال لنفسه (ليس بالمعنى السوقي الجشع على الأقل). كان يريد سلطة المال... وقد أراد السلطة ليستخدمها في تقديم خير كثير.

قال الدكتور غالبرايث: "لقد أراد أن يكون إلهاً!"، ثم قسا صوته فجأة وأضاف: وقد نسي بأن الإنسان لا يعدو أن يكون أداة متواضعة لإرادة الله.

الآنسة ماربل: وهكذا اختلس أموال مجلس الوصاية؟

تردد الدكتور غالبرايث وقال: لم يكن ذلك فقط...

كاري لويز: أخبرها. إنها أقدم صديقة لي.

– لقد كان لويس سيروكولد من يمكن للمرء أن يسميه ساحراً مالياً؛ ففي سنوات دراسته في المحاسبة عالية المستوى كان يسلي نفسه باختراع عدة وسائل للاحتيال كانت -عملياً- من البساطة بحيث لا يفطن لها أبداً. كان ذلك مجرد دراسة أكاديمية، ولكن عندما بدأ ذات يوم يتخيل الإمكانيات والفرص التي يمكن لمبلغ هائل من المال أن يفتحها، وضع تلك الوسائل قيد التطبيق. وأنت ترين أنه كان يملك تحت تصرفه مادة خاماً من الدرجة الأولى، فمن بين الصبية الذين مروا عبر هذا المعهد اختار ثلةً صغيرة منتخبة تضم صبية كان ميلهم الطبيعي إجرامياً، يحبون الإثارة ويتمتعون بدرجات ذكاء عالية. إننا لم نتوصل إلى كل الحقائق بعد، ولكن يبدو واضحاً أن هذه الدائرة المغلقة كانت سرية ومدربة بشكل خاص، وقد وُضع أفرادها لاحقاً في

مراكز رئيسة حيث يمكن -تنفيذاً لتوجيهات لويس- تزوير السجلات بطريقة تسمح بتحويل مبالغ هائلة من المال دون إثارة أية شكوك. ولقد فهمت بأن العمليات والتشعبات معقدة إلى حد يتطلب شهوراً طويلة قبل أن يستطيع مدققو الحسابات كشف كل الأمور، ولكن النتيجة النهائية تبدو موحية بأنه تحت أسماء مختلفة وحسابات مصرفية وشركات متنوعة كان من شأن لويس سيروكولد أن يتمكن من التصرف بمبلغ أسطوري كان ينوي أن يؤسس به مستعمرة فيما وراء البحار لإقامة تجربة تعاونية يمكن للمنحرفين الأحداث فيها أن يمتلكوا -في النهاية- تلك الأرض ويديروها. كان من شأن ذلك أن يكون حلماً عظيماً.

كاري لويز: كان حلماً يمكن له أن يتحقق.

الدكتور غالبرايث: نعم، كان يمكن أن يتحقق، ولكن الوسائل التي اتبعها لويس سيروكولد كانت وسائل غير شريفة، وقد كشف كريستيان غولبراندسن ذلك. وكان منزعجاً وقلقاً جداً، وخاصة نتيجة إدراكه لما قد ينطوي عليه كشف لويس واحتمال مقاضاته من انعكاسات عليك أنت يا كاري لويز.

كاري لويز: ولذلك سألني إن كان قلبي قوياً، وكان يبدو قلقاً جداً على صحتي. لم أستطع فهم ذلك.

الدكتور غالبرايث: بعدها وصل لويس سيروكولد عائداً من الشمال، وقابله كريستيان خارج المنزل وأخبره بأنه يعرف ما كان يجري. تقبل لويس الأمر بهدوء كما أعتقد. وقد اتفق

الرجلان على أنه ينبغي عليهما بذل كل ما يستطيعانه لتجنيبك المعاناة. وقال كريستيان بأنه سيكتب لي ويطلب مني الحضور إلى هنا –كوصي مشارك– لمناقشة الموقف.

الآنسة ماربل: ولكن لويس سيروكولد كان –بالطبع– قد استعد مسبقاً لهذا الطارئ. كان كل شيء مخططاً... كان قد أحضر الشاب الذي يُفترض فيه أن يمثل دور إدغار لاوسن إلى المنزل، وكان يوجد –بالطبع– شاب حقيقي يحمل اسم إدغار لاوسن تحسباً من أن يبحث الشرطة في سجلاته. وكان «إدغار» المزيف هذا يعرف بالضبط ما ينبغي عليه فعله... أن يمثل دورَ مصاب بانفصام الشخصية وضحية لعقدة الاضطهاد، وأن يعطي لويس دفعاً بالغياب عن مسرح الجريمة لبضع دقائق حيوية.

وقد تم التفكير بالخطوة التالية أيضاً، وهي قصة لويس بأنك (أنت يا كاري لويز) كنت تُسممين بشكل بطيء. وعندما يفكر المرء فعلياً في الأمر يجد بأنه لم توجد أبداً إلاّ رواية لويس عما أخبره به كريستيان. تلك الرواية، بالإضافة إلى بضعة أسطر تضاف على الآلة الكاتبة بينما كان لويس ينتظر الشرطة. كان من السهل إضافة الزرنيخ إلى الشراب المنشط. ولم يكن عليك خطر في ذلك، ما دام سيتدخل فوراً لمنعك من شربه. وكانت الشوكولاتة مجرد لمسة إضافية، وبالطبع فإن قطع الشوكولاتة الأصلية لم تكن مسممة، ولم تكن مسممة إلاّ تلك القطع التي استبدلها هو قبل تسليمها إلى المفتش كيري.

كاري لويز: وقد حزر أليكس ذلك؟

الآنسة ماربل: نعم، ولذلك جَمَع قلامات أظافرك، إذ كان من شأنها أن تُظهر إن كان الزرنيخ قد تم دسه فعلياً ولفترة طويلة.

كاري لويز: أليكس المسكين... وإيرني المسكين!

سادت لحظة صمت فكر فيها الاثنان الآخران بكريستيان غولبراندسن وأليكس ريستاريك وبالصبي إيرني، وبالسرعة التي يمكن لجرائم القتل فيها أن تمارس بشاعتها وتشويهها.

الدكتور غالبرايث: ولكن من المؤكد أن لويس كان يقدم على مجازفة كبيرة في إقناع إدغار بأن يكون شريكه في الجريمة، حتى لو كانت له بعض السيطرة عليه.

هزت كاري لويز رأسها بالنفي وقالت: لم تكن القضية بالضبط قضية سيطرة عليه؛ فقد كان إدغار متعلقاً بلويس مُحباً له.

الآنسة ماربل: نعم، مثل ليونارد وايلي وأبيه. إنني أتساءل إن كان...

ثم سكتت برفق.

كاري لويز: لقد ميزتِ الشبه كما أظن؟

الآنسة ماربل: إذن فأنت كنت تعلمين ذلك طوال الوقت؟

– لقد حزرت. كنت أعرف أن لويس كانت له علاقة عشق قصيرة مع إحدى الممثلات قبل أن يقابلني، وقد أخبرني

هو بذلك. لم تكن علاقة جدية؛ فقد كانت من ذلك النوع من النساء اللاتي يسعين وراء المال، ولم تكن تهتم به. ولكن ما من شك لديّ أبداً بأن إدغار كان ابن لويس في الحقيقة.

– نعم... إن ذلك يفسر كل شيء.

قالت كاري لويز: "وقد دفع حياته من أجله في النهاية". ثم نظرت بأسى إلى الدكتور غالبرايث وأضافت: نعم، لقد فعل ذلك.

ساد بعض الصمت، ثم قالت كاري لويز: إنني سعيدة بأنّ الأمر انتهى على هذا النحو، بتقديمه حياته أملاً في إنقاذ الصبي. إن الناس الذين بوسعهم أن يكونوا طيبين جداً، بوسعهم -أيضاً- أن يكونوا سيئين جداً. لقد عرفت دوماً أن ذلك ينطبق على لويس. ولكنه... أحبني كثيراً، وأنا أحببته.

الآنسة ماربل: هل سبق لك... أن شككت به أبداً؟

– كلا. لأنني كنت حائرة بشأن مسألة التسميم. كنت أعرف أن لويس لم يكن ليسممني أبداً، ومع ذلك فإن رسالة كريستيان تلك قد ذكرت تحديداً أن شخصاً ما كان يسممني، ولذلك فكرت بأن كل ما ظننت أنني عرفته عن الناس لابد أن يكون خاطئاً.

– ولكنك -عندما وُجد أليكس وإيرني مقتولين- شككت آنذاك، أليس كذلك؟

– بلى، لأنني لم أكن أعتقد أن أحداً آخر سوى لويس يمكن أن يجرؤ على ذلك. وبدأت أشعر بالخوف مما يمكن أن يفعله لاحقاً...

ثم ارتجفت قليلاً وقالت: لقد أعجبني لويس. أعجبتني... ماذا أسميها؟ خيريّته؟ ولكنني كنت أرى حقاً بأن المرء إن كان خيّراً فعليه أن يكون متواضعاً أيضاً.

قال الدكتور غالبرايث بلطف: ذلك هو ما أعجبني فيك دوماً يا كاري لويز... تواضعك.

انفتحت العينان الزرقاوان الجميلتان دهشةً وقالت: ولكنني لست ذكية ولست خيّرة بشكل متميز. إنني أستطيع -فقط- أن أُعجب بالخير لدى الآخرين.

الآنسة ماربل: عزيزتي كاري لويز...

* * *

خاتمة

جينا: أعتقد أن جدتي ستكون بأفضل حال مع الخالة ميلدريد؛ فالخالة ميلدريد تبدو ألطف بكثير الآن، لم تعد غريبة التصرفات إلى ذلك الحد... إن كنت تفهمين ما أعنيه.

الآنسة ماربل: إنني أعرف ما تعنينه.

– وكذلك سنعود، وولتر وأنا، إلى الولايات المتحدة بعد أسبوعين.

ثم رمت نظرة جانبية إلى زوجها وقالت: سأنسى كل شيء عن ستوني غيتس وعن إيطاليا وعن كل ماضيَّ المراهق، وسأصبح أمريكية مئة بالمئة، وسندعو ابننا دوماً «وولتر الصغير». لا يمكن أن أكون أكثر إنصافاً من ذلك، أليس كذلك يا وولتر؟

الآنسة ماربل: لا يمكنك ذلك بالتأكيد يا «كيت»...

صحح لها وولتر بلطف وهو يبتسم بمحبة لعجوز تخلط بين الأسماء: جينا، وليس كيت.

جينا: إنها تعرف ما تقول! ألا ترى: لقد دعتني باسم أمريكي ولن تلبث –بعد دقيقة– أن تدعوك «بيتروشيو» كإيطالي!

قالت الآنسة ماربل لوولتر: أعتقد أنك قد تصرفت بحكمة يا فتاي العزيز.

جينا: إنها تعتقد بأنك تماماً الزوج المناسب لي.

نقلت الآنسة ماربل نظرها بين الاثنين، وفكرت... "من الجميل جداً رؤية شابين يحبان بعضهما إلى هذا الحد، وقد تحول وولتر هَذْ تماماً من الشاب العابس المقطب الذي التقته أول مرة إلى عملاق مرح دائم البسمة". قالت: أنتما الاثنين تذكرانني بـ...

اندفعت جينا إلى الأمام ووضعت يدها بإحكام على فم الآنسة ماربل هاتفة: لا يا حبيبتي... لا تقوليها. إنني أرتاب بهذه المقارنات القروية؛ فهي تنتهي -دوماً- بمصيبة. إنك عجوز منحوسة بالفعل، هل تعلمين ذلك؟

ثم غامت عيناها وقالت: عندما أفكر فيك وفي الخالة روث وفي جدتي، وأنكن كنتن شابات معاً... لكم أتساءل كيف كنتن جميعاً! لا أستطيع تخيل ذلك.

الآنسة ماربل: لا أحسب أن بوسعك تخيل ذلك؛ فقد كان ذلك كله منذ أمد بعيد...

* * *